الإنسانية تعود إلى الإسلام

تأليف

د. محمد عبد المنعم خفاجي
الأستاذ والعميد بجامعة الأزهر

د. عبد العزيز شرف
أستاذ الإعلام الإسلامي

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

الإنسانية تعود إلى الإسلام



مقـدمة الكتـاب

نعم ، الإسلام وارث الحضارات ، فلقد ورث الحضارة الفارسية والإغريقية والرومانية والمصرية وجميع الحضارات العالمية القديمة ونقل تراثها إلى الفكر الإسلامى ، وأخذ منها المعارف العلمية والأصول الثقافية التى لا تتنافى مع مبادئ الإسلام الشريفة الرفيعة . وقامت حضارة إسلامية زاهرة فى جميع عواصم بلاد المسلمين من الصين شرقا إلى بحر الظلمات أو المحيط الأطلنطى غربا ، ومن أوربا شمالا إلى أواسط قارة إفريقيا جنوبا ، وحسبك حضارة بغداد وقرطبة والقيروان وفاس والفسطاط ودمشق والبصرة والكوفة وأصفهان وجرجان وبخارى وغيرها من عواصم الإسلام الكبرى التى كانت تسبح فى نور العلم والتقدم والمدنية وفى ظلال الرفاهية والأمن والحرية والسلام . حضارة شريفة نجمت من أصول شريفة وقام عليها الملك والفكر والاقتصاد والاجتماع وكل جوانب الحياة الرفيعة ، وشهد لها العلماء والمفكرون والمشرعون فى كل عصر وكل جيل .

حضارة هزت الدنيا ، ودوت بذكرها الآفاق ، وعاش فيها الناس أحرارا مكرمين ، ينعمون بكل ألوان السعادة والرفاهية والتقدم .

وكانت أوربا تنظر إليها وتذهل لهذا التفوق الحضارى الفريد ، ويصيح مثل بترارك الشاعر الإيطالى فى العصور الوسطى قائلا : ياالله .. لقد تفوقنا على كل الأمم إلا العرب الذين أذلونا بحضارتهم السامقة فيا للخزى ويا للألم !

وجاءت أوربا ظامئة جاهلة مجردة من كل شىء ، فنهلت من حضارة العرب وعلومهم وثقافتهم حتى استطاعت أن تقوم على أقدامها ، ثم استطاعت أن تملك زمام المبادرة وتأخذ العنان بيديها من العرب وأن تنشئ لها حضارة جديدة تخالف الحضارات الأخرى فى كل شىء ، ولا تتفوق على حضارة الإسلام إلا فى الماديات وحدها .

حضارة أوربا نسيج من القوة والطغيان والأثرة وحب الذات والأنانية ، وقد قامت على أساس فلسفتها الاستعمارية والتفرقة العنصرية وتقسيم البشر إلى طبقات ومنازل ووضع العرب والمسلمين فى آخر الدرجات .

ولقد كتبت فى « مجلة رابطة العالم الإسلامى » و « مجلة التضامن الإسلامى » وفى مجلات أخرى من قبل موازنا بين حضارة الإسلام وحضارة أوربا . وقلت عن حضارة أوربا : إنها حضارة لا أساس لها ، مادة بلا روح ، وأهواء بلا عقيدة ، وليست تنطوى على أية

نزعة إنسانية أو أخلاقية ، وهى تقف كل لحظة أمام أبواب الدمار الذى ليست له حدود .
إنها حضارة اللذة والمتعة وعبادة المرأة والمال شعارها ، وعلمها الذى تسير تحته أن الجنس الأوربى هو سيد العالم ومن عداه عبيد أو كالعبيد . وإذا كانت أوربا قد حررت الرقيق كلاما ، فإنه مازال موجودا فعلا . الرقيق موجود فى المرأة التى تبيح شعائر أوربا شراءها بالمال ، وموجود فى البلاد المستعمرة التى تعيش فى منزلة أحط من منزلة العبيد فى سالف الأزمان ، وكل خيرات هذه الشعوب هى لأوربا ، ولشعوب البلاد المستعمرة الفقر والمرض والجهل والقتل والموت البطىء الذى لا يتصور أقسى منه .

إن حضارة أوربا حضارة الربا والقمار والمكيافيلية الشريرة ، والإباحية والعلمانية والمادية ، واستعباد المرأة باسم تحريرها . حضارة لا مكان لها فى قاموس المثل والقيم الشريفة ، وكل ما هو شريف فيها فقد أخذ من العرب ، ونقل عن المسلمين . يقول عوستاف لوبون فى كتابه « حضارة العرب » : والعرب كانوا هم ممدنين للغرب وأئمة له فى ستة قرون ، وعن طريقهم اهتدت أوربا إلى تراث الإغريق وكشفت عن ماضيها » .

ويقول أيضا : الحق أن أتباع محمد ظلوا أشد من عرفتهم أوربا من الأعداء إرهابا عدة قرون ، وعندما كانوا لا يرهبوننا بأسلحتهم كانوا يذلوننا بأفضلية حضارتهم العربية السامقة ، ونحن لم نتحرر من نفوذهم إلا بالأمس .

ومع ما بلغته أوربا من قوة مادية فإنها قد انهارت روحيا وخلقيا وإنسانية إلى الدرك الأسفل ، وحسبك أنها تحرم على الرجل أن يتزوج إلا بواحدة ، ومع ذلك تبيح له أن يعيش مع ألف عشيقة وبائعة لجسدها ولا تعد ذلك منكرا وإثما ، إنما الإثم فى نظرها القاصر هو ما شرعه الإسلام للرجل من حرية الزواج بأربع بشرط أن يعدل بينهن : ﴿ وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾ .

وأوربا فى ظلال حضارتها الماجنة تعيش فى انهيار دائم ، ورعب طويل ، وفزع مستمر ، وما أصدق ما يقول إقبال :

« مثّلت حضارة الغرب دورها ، وقد شاخت وهرمت ، أينعت كالفاكهة وحان قطافها ، وسوف ينهار العالم الذى حوّله مقامرو الغرب إلى حالة من الفساد ، ولقد رأت أوربا بعينها النتائج المخيفة لمثلها الاقتصادية والأخلاقية والعلمية ولسوف تتمخض الإنسانية عن عالم جديد ،وهذا العالم لا يحسن تصميمه إلا من بنى للبشرية البيت الحرام ، وورث محمدا وإبراهيم قيادة العالم .

إن الرقى العالمى فى بلاد الإسلام كان محاطا بتفوق روحى وأخلاق وإنسانى ، وبشرف لا يعدله شرف فى كل جانب من جوانب النفس الإنسانية المؤمنة بالله ، المحافظة على سمو الحياة وكرامتها ، المتطلعة دائما إلى الأمام بروح الأمل والعمل والقوة .

ولم تسد حضارة الغرب إلا حين غاب المسلمون عن إدراك حقيقتهم وذاتهم وشريعتهم وقرآنهم . بل إنها لم تعش إلا فى ظل ضعف المسلمين وتركهم لمقومات مجتمعهم الإسلامى ، وذوبانهم فى الغرب وأفكاره ومثله وثقافته .

إن حضارة الإسلام هى حضارة المسلم الكامل ، إنسان الأرض العظيم المتطلع دائما إلى نور السماء ، والحامل لعبء المسئولية الكاملة ، والمشارك فى نشر السعادة والرفاهية والسلام بين البشر ، وما أشد الفرق بينها وبين حضارة الغرب ، حضارة الاستعمار والحروب ، والصراع بين الطبقات والمجتمعات والناس والشعوب ، حضارة المصارعة وصراع البقر وغير ذلك مما لا يخطر على بال .

ويقول غوستاف لوبون : إن سبب انحطاط الشرق هو تركه روح الدين ، وتشبثه بالعقائد الباطلة .

وإذا كان الشرق قد عاش بعيدا عن التقدم والقوة فى العصر الحديث ، فلأن أوربا قد عملت على تجريده من كل أسلحته الروحية والمادية والنفسية وتركته يتخبط فى ظلام الفقر والحرمان والحيرة .

وها هى ذى مجلة أسبوعية من مجلاتنا تقول عن أزمة الحضارة المعاصرة (آخر ساعة عدد ١٤ ـ ٤ ـ ١٩٧٦) :

« إذا كانت الحضارة تعنى فى جوهرها شمولها مختلف أنواع المعرفة التى يقوم بها العقل الإنسانى من علم وفن وثقافة وأدب وسياسة واقتصاد ، فإن الحضارة المعاصرة قد بلغت مبلغا كبيرا من التقدم والازدهار : على أن البعض يضيقون ذرعا بهذه الحضارة ويرون أنها فى طريقها إلى الانهيار ، كالحضارة الرومانية القديمة التى بلغت قمتها ثم استشرى فيها داء الترف والفساد والانحلال فانتهت . ويرى بعض المفكرين أن على الإنسانية حتى تتجنب الهوة التى سوف تسقط فيها حضارة العصر الحديث أن ترنو ببصرها إلى العصور الذهبية التى مرت بالبشرية » .

ومن هنا نرى من يمجد العصر اليونانى القديم من أمثال الشاعر الإنجليزى بايرون

والشاعر الألمانى هلدرلن والفيلسوف الألمانى نيتشة ، بل نرى طبيبا كبيرا هو ألبرت شفيتزر يرحل إلى إفريقيا هروبا من الحضارة المعاصرة وما جرَّت على الإنسان المعاصر من قلق وتوتر وعدم استقرار ، هرب إلى حيث الفطرة والبساطة والحياة البعيدة عن عُقَد حضارة القرن العشرين .

وتتابع المجلة حديثها بالرجوع إلى ما كتبه الأديب المعاصر الشهير كولن ويلسون صاحب أدب « اللامنتمى » الذى توجس خيفة من حضارة العصر التى نحياها والتى هى سبب لكل ما يلاقيه الإنسان المعاصر من شرور ، لما طبعت عليه الحياة من ترف وانحلال ، فهو يستعرض أعمال كبار الأدباء والفنانين أمثال: سارتر ،ودوستوفسكى ، وألبير كامى ، وهمنجواى ... وسواهم . ثم يرى أنه من الضرورى عدم الانتماء إلى حزب معين أو عقيدة معينة حتى لا تنتهى حياة الإنسان المنتمى بالجنون مثل نيتشة وفان جوخ .

ولقد تنبأ المؤرخ الإنجليزى توينبى بانهيار حضارة الغرب المعاصرة كما انهارت حضارة روما ، ومن ثم يرى كولن ويلسون أن عالمنا اليوم يمر بنفس الظروف التى مرت بها حضارة الرومان عندما انهارت أثناء انتشار الديانة المسيحية .

إن الحل فى رأى كولن ويلسون هو عدم الانتماء ، أو الرفض ، أى السخط على هذه الحضارة التى أرهقت الإنسان بضغوطها الاقتصادية والمادية ،وبما أفعمت به من انحلال وفساد . لقد كتب جيبون فى كتابه « انهيار الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » يقول : إن روما تحولت إلى حضارة لا تفكر إلا فى الجنس والحرب حتى إن « نيرون » تزوج صبيا بعد أن ألبسه ثوب فتاة فى احتفال كبير ، بل وتزوج أمه . وسيرة نيرون وكاليجولا تمتلئ بمثل هذه المآسى التى نرى أمثالها فى مثل رواية « لوليتا » أو « عشيق الليدى تشاترلى » .

ويقول كولن ويلسون : إننا نعيش فى عصر الجاز والتلفزيون ولوليتا وجيمس بوند والحشيش والمخدرات والعنف والجرائم الجنسية .

ونحن نقول إن :

حضارة الإسلام حضارة الشرف والعفَّة والأنساب المصانة ، أما حضارة الغرب فهى الجسد والشهوات المباعة والأنساب المجهولة وهى العرى واللذة الجنسية ، وهى الموبقات ما ظهر وما بطن .

يقول بعض مفكرى الغرب : إنه ليس بالبعيد أن نقف على أطلال عواصم الغرب الكبرى نبكيها كما وقف الإنسان على أطلال المدن الكبرى القديمة باكيا حزينا .

وبعد فإن الإسلام كما ورث حضارة أوربا القديمة هو الذى سوف يرث حضارة أوربا الحديثة بإذن الله ومشيئته ،.لأنه ليس هناك ديانة أو عقيدة تبلغ مبلغ الإسلام الكريم فى السمو والطهارة والرفعة والكمال ، وهو الدين الباقى الخالد ، الذى ترنو إليه البشرية بعينيها وتتطلع إليه الشعوب فى كل مكان وزمان تنشد فيه السلام والحرية والمساواة والإخاء .

الإنسانية تعود إلى الإسلام

الإسلام دين الله وشريعته ، والوحى المنزل على رسوله الكريم ، ونبيه العظيم ، محمد ابن عبد الله ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . هذا الدين العظيم ، هو دين الإنسانية كافة من قبل ومن بعد ، دين البشرية قاطبة فى الأمس واليوم وغدا ، دين الحياة والتقدم ، دين المدنية والحضارة ، دين النور والعلم ، دين السمو والرفعة والعزة ، دين الفطرة والروح والطموح والأمل ، والعزيمة والعمل ، والبناء والتجديد .

لقد حارب الإسلام خصوم أقوياء على طول عصور التاريخ ، وحاربه رجال الدين المحترفون ، وحاربته دول وعروش كانت تخاف الإسلام على نفسها وهما وكذبا ، وحاربه وثنيون متطرفون ، وحاربته مذاهب هدامة كانت تبغى لنفسها السيادة فى الأرض، ولا عزة ولا سيادة إلا لله ورسوله . وحاربه دجالون ومشعوذون يبغون الفساد فى الأرض ، وحاربه حكام ظالمون يبغون أن يكون منطق حكمهم القوة فوق الحق ، والله عز وجل ودينه ورسوله يعلى الحق فوق القوة .. ومع ذلك ، وعلى امتداد عصور التاريخ ، ظل الإسلام شامخا مرفوع اللواء ، تردد تعاليمه السمحة الكريمة الأرض وتضىء بنوره الوهاج السماء .

دين فوق كل الأديان التى عرفتها الدنيا ، وشريعة اهتزت بها الأمم والشعوب والأرض والسموات . دين الفطرة ، والجلال والجمال والسمو والطهر والأمل والعمل، دين البناء والتجدد والصفاء والوفاء ، والعزة والبساطة والسماحة والحرية والإخاء ، دين المساواة بين الناس والأجناس والأمم والشعوب كافة ، دين التوحيد الخالص ، والعقيدة الصادقة ، لا إله إلا الله محمد رسول الله ، والله أكبر ، ما أعذبها كلمات ، وما أروعها نغمات ، وما أجلّ أثرها وتأثيرها فى الحياة ..

الإسلام وما أدراك ما الإسلام ، عرفته الإنسانية وأنكره المتجرون بها ، وأحبته الشعوب وخاصمه قادتها المضللون ، وذاقت حلاوته كل الجماعات والعناصر المضطهدة المحرومة ، ولكن أمما مضطهدة حرمت من أن تفىء إلى ظلاله ، وتذوق جنى شهده ، وتعيش بين أفيائه .

دين الإنسانية والإنسان الكامل ، ودين البشرية التى لا تعرف غيره دينا يهديها فى ظلمات الحياة ودياجيرها .

العالم يريد إنسان القرن العشرين ، وما بعد القرن العشرين.إنسانا كاملاتحلم به الفلاسفة وتتصوره الشعراء فى أخيلتها الجميلة ، إنسانا ساميا قويا عزيزا ، رفيع الصفات ، عظيم النفس ، كبير الطموح ، كثير السعى فى الحياة لخير الإنسانية والناس . يريد الإنسان الجديد ، إنسان الصفاء والنقاء ، إنسان التجديد والبناء ، إنسان الحرية فى كل جوانب الحرية . لا يريد الإنسان العاجز بل المتحرك ، ولا يريد الإنسان الضعيف بل القوى ، ولا يريد الإنسان الذليل بل العزيز بالحق .

وكل المذاهب والأديان والعقائد الروحية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية المعاصرة تحيل الإنسان إلى حطام متداع منهار ، ولا تخلق منه إنسانا عاملا بناء أبدا .. فهذه الشيوعية أحالت الإنسان إلى رجل عاجز ذليل مشلول الإرادة والتفكير ، وهذه الرأسمالية قد صيَّرت الإنسان شخصاً ماديًّا شرهاً طامعاً لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلا ، وهذه اليهودية قد حولته إلى إنسان فظ غليظ قاس شرس لا يحب الخير إلا لنفسه وينكر على غيره حق الحياة ، وهذه المسيحية المحرفة قد خلقت منه إنسانا حائرا ضعيف الشخصية ، ضعيف الاعتداد بالنفس أو القدرة على مقاومة الأعاصير ، وإن استعان بأحدث كشوف العلم يكمل بها نقصه ، ويجبر بها ضعفه ، وهذه هى المذاهب العديدة والديانات المضللة المعاصرة لنا لا تبنى بل تهدم ، ولا تجمع بل تفرق ، ولا تقوى بل تضعف ، ولا تهدى بل تضل .

ولكن الإسلام وحده هو القادر على العمل وصنع الأمجاد فى حياة الإنسان ، وهو وحده الذى يستطيع الصمود والبناء والتجديد والتطور فى الأرض .

لقد عرفت الإنسانية اليوم طريقها إلى الإسلام بعد أن ضلَّت الطريق إليه قرونا كثيرة ، ولا بد أن تعتنقه الدنيا كلها غدا أو بعد غد بإذن الله .

إن الإسلام هو دين القرن العشرين وما بعد القرن العشرين من قرون مديدة طويلة بإذن الله .

إنسان القرن العشرين يسعى إلى وحدة العالم كله أممه وجماعاته ، ولكنه عاجز عن تحقيق هذا الهدف .. وقد سبقه الإسلام فصاغ فى وحدة رائعة كل شعوب العالم فى العصور الوسطى وأخذها بيدها إلى حيث التقدم والمدنية والحضارة والإخاء والمساواة وإنكار الفروق

الظالمة بين الإنسان والإنسان والجنس والجنس وبين الأمة والأمة والشعب والشعب .. ولو أن الإنسانية آمنت كلها بالإسلام لعادت إلى الوحدة الشاملة والحكومة الإسلامية العالمية العادلة ، ولقادت العالم إلى سفينة النجاة والأمان والطمأنينة .

وإنسان القرن العشرين يريد العقيدة الواضحة البسيطة السمحة التى لا تحجر على حرية الفرد ، والتى لا تضع القيود والأغلال فى عنق الإنسان .. والتى لا تحد من نشاطه وطموحه وأمله وعزيمته .. والإسلام هو أعظم الأديان التى تعطى للفرد حرية الانطلاق إلى آفاق أرحب ، والسعى إلى حدود بعيدة ممتدة لا يحصرها عقل ، ولا يستطيع الوصول إلى آفاقها إنسان . وهو الدين السمح الذى يعترف للأديان السماوية المنزلة من السماء بحرية العقيدة والعبادة والبقاء ، وهو دين البساطة ، دين الفطرة ، دين لا يتنكر لعواطف الإنسان ولا لمشاعره وغرائزه ولا لأحاسيسه العامة والخاصة أبدا ، وله حول كل مشكلة حل ، وفى كل معضلة رأى ، والسبب أنه يجعل المرأة شريكة للرجل ، زوجا وأمًّا وجدَّة وأختاً وعمَّة وخالة ، ولا يجعل منها خليلة ولا عشيقة أبدا ويمنحها كل حقوقها الدينية والروحية والاجتماعية والمالية .

وإذا ما خيَّرنا الإنسان بين الخمر والماء كانت فطرته بعيدة عن الخمر كل البعد ، لذلك حرم الإسلام الخمر وأحل الماء ، كما حرم الزنا وأحل الزواج ، وحرم البغاء والمخادنة وأحل تعدد الزوجات ، وحرم — على الجملة — كل ما يتنافى مع الفطرة الإنسانية التى فطر الله الناس عليها ، لأن الدين هو فطرة الله وهو صبغته ، وهو كل ما وافق العقل والروح والنفس والشريعة من قول أو عمل أو عقيدة .

وإنسان القرن العشرين يشمئز لمآسى التفرقة العنصرية وينكرها ، ولكنه عاجز عن محاربتها ، ضعيف الرأى أمام دعاة هذه التفرقة ، وهو يريد القضاء عليها ، ولكنه يعجز عن تحقيق أمله ، وبلوغ هدفه ، ولو قد اعتنق الإسلام لقضى على هذه التفرقة العنصرية قضاء مبرما دون أى جهد أو أية مشقة .

وإنسان القرن العشرين يقف اليوم عاجزا عن محاربة الفقر ونشر الرخاء بين الناس ، على تعدد مذاهب الاقتصاد فى العالم ، وعلى كثرة منابع الثروة التى اهتدى إليها ، وكشف مجاهلها وأسرارها .. وقد سبق الإسلام فحارب الفقر بمنطقه الواضح العادل البسيط الإنسانى دون إثارة لحروب الطبقات التى تثيرها بعض المذاهب اليوم .. ولو أن إنسان

القرن العشرين اهتدى بنور الإسلام لحل جميع مشكلات الإنسان الاقتصادية ، ولتغلب على كل مشكلات الفقر ، ولأذاع الرخاء فى العالم بين الناس والجماعات والشعوب .

وإنسان القرن العشرين يقف اليوم عاجزا حيال مشكلة الأمية المنتشرة فى العالم ، لا يستطيع لها تصريفا .. وقد صنع الإسلام المعجزة من أجل القضاء على مشكلات الأمية ، ومن أجل نشر العلم بين كافة الناس : الرجال والنساء ، الصغار والكبار على السواء .. ولو قد آمن العالم كله بالإسلام لحل مشكلته المتجسمة فى الجهل والأمية حلا جذريا عاجلا على خير ما يتمناه ..

وإنسان القرن العشرين يقف عاجزا حائرا أمام مشكلات الحياة والحضارة والاقتصاد .. لا يجد قلبه سبيلا إلى الطمأنينة ولا إلى الأمن ولا إلى الهدوء الروحى .. وقد جاء الإسلام فمنح الإنسان طمأنينته وهدوءه ، وكل الأمن ، والصفاء الروحى الذى ينشده .. ولو أن الإنسانية آمنت اليوم بالإسلام وطبقت شريعته لحُلَّت أمامهامشكلات الحضارة وأزماتها تجاه الإنسان المعاصر .

إن الإنسانية سائرة إلى الإسلام لأنه الحل الوحيد أمامها لكل مشكلات الحياة المعاصرة .

تقول ألمانية أسلمت وسمت نفسها « فاطمة سى لامير (ص ٩٣ جـ ٣ من كتاب « رجال ونساء أسلمن » لعرفات كامل العشى) : « لقد جاء الإسلام كما يأتى النبع الدافئ إلى الأرض الباردة بعد الشتاء المظلم ، فأدفأ روحى وسربلنى بثوب من تعاليمه القشيبة ، فما أوضح تعاليم الإسلام وأعذبها ، وما أعظم منطقها ، إن الإسلام دين عصرى صالح للتطبيق فى عالمنا المعاصر » .

وليست كلمات هذه الألمانية جديدة بالنسبة لنا نحن المسلمين الذين نؤمن بأن الإسلام صالح لكل زمان ومكان .

إن الإسلام دين العصر ، وهو دين عصرى متقدم متجدد بكل معنى الكلمة ، وهو دين الإنسان الذى يتطلع اليوم ببصره إلى السماء حائرا ينشد الهدى والنور والرحمة والطمأنينة ، فلا يجدها إلا فى الإسلام العظيم ، وفى القرآن الكريم ، وفى تعاليم الحنيفية البيضاء ، وفى مبادئ الشريعة السمحاء : ﴿ ذلك الدين القيِّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

العقيدة الصامدة

الإسلام عقيدتنا ..
وأكرم به من دين ..
وأعظم بها من عقيدة ..
والقرآن شريعتنا ..
وأكرم به من كتاب إلٰهى منزل من السماء ..
وأعظم بها من شريعة مطهرة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .

هذه العقيدة المقدسة ، وتلك الشريعة المكرمة .. هى دعوة الله ورسالته إلى رسوله وخاتم أنبيائه .. محمد بن عبد الله ﷺ .. هى السنّة التى سارت عليها الأمة الإسلامية منذ نزل القرآن الكريم إلى اليوم .. هى النور الذى استضاء به كل حائر ومضطرب ومفزع وخائف ومكروب .. هى الملاذ العظيم الذى احتمى بحماه كل الأجناس والألوان والعناصر والشعوب .. منذ أربعة عشر قرنا من الزمان إلى الآن .. هى القانون الإلٰهى الذى نزل هدى ورحمة من الله رب العالمين إلى الإنسانية عامة وإلى العالم كافة ، وإلى الناس فى مختلف العصور والبلدان والبيئات .. هى الدستور الخالد الذى شرع للناس العلم والتقدم والحضارة وأسس شرائع الحياة والاجتماع والآداب والسلوك .. هى مصدر كل خير .. ومنبع كل فضيلة ، وسر كل سعادة ، وسبب كل مجد فى الأولى والأخرى ، وفى الدنيا والعقبى ، وفى الحياة وبعد الحياة .

وما أعظم ما كافح الرسول ﷺ وأصحابه الأولون من أجل نشر الدعوة ، وتبليغ الرسالة وأداء الأمانة وهداية الناس إلى الحق وإلى صراط مستقيم وإلى كلمة الله المبينة.

وما أشد ما امتحنوا وفتنوا وأوذوا واضطهدوا فى دينهم ودنياهم وفى أنفسهم وأموالهم ، ولكنهم صمدوا وصبروا وصابروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأرواحهم وبكل غال وعزيز عليهم ، فكان عاقبة ذلك النصر والفوز والظفر والفلاح العظيم .

وعرض على الرسول الأعظم صلوات الله عليه وعلى أصحابه المُلك والسلطان والمال والجاه والدنيا وكل متع الحياة ولذاذاتها ، فأبى وأبوا ذلك إباء شديدا وآثروا رضاء الله على كل

شيء ، وقاوموا الشرك والوثنية والظلم والبهتان ، وقالوا كلمة الحق وجهروا بها في كل مكان ، وأعلنوا دعوة التوحيد ودعوا إليها الخاصة والعامة على السواء .. وبعد جهاد شديد ، ومحن ثقيلة الوطأة ، وكفاح ونضال مريرين .. وبعد غالى التضحيات ، نصر الله رسوله وأيّده بروح من عنده ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وقامت للإسلام دولة ، وارتفعت رايته فى الأرض ، ودعا الرسول الأعظم إليه الملوك والأمراء والحكام فى جميع أرجاء الأرض ، وبعث بدعاته إلى كل مكان ، ولم ينتقل إلى الملأ الأعلى إلا بعد أن جمع أغلب العرب على دين الله ، وبلغ دعوة الله إلى كل الآفاق ، ووقفت كتائب الإسلام منصورة مظفرة على حدود مملكتى كسرى وقيصر .

ودخل الإسلام فى حرب شديدة مع هاتين الإمبراطوريتين العظيمتين ، ولكنه صمد فى الحرب حتى كللت هامته رايات النصر ، وعقدت على جبينه ألوية الظفر . ودخلت فارس وكثير من بلاد الروم تحت حكم المسلمين فى عهد أبى بكر وعمر .

ثم ساح الإسلام بعد ذلك فيما وراء فارس وما وراء الشام ومصر من بلاد وأقطار ، فدانت له الدنيا وخضعت لسلطانه الحكام والملوك والأمراء والسادة والأشراف ، وشمل بعدله الحاكمين والمحكومين ، وساوى بين جميع العناصر والأجناس والشعوب ، وجعلها جميعا نِدًّا للعرب وأقام بينهم وبين غيرهم وحدة فى الدين ، ونشر الحرية والإخاء والمساواة والثقافة والمدنية فى كل مكان نزل فيه المسلمون .. فكان ذلك نصرا كبيرا ومصدر بركة وخير للناس جميعا ..

وأقبلت الدنيا على المسلمين ، وفُتن الإسلام وأهلوه بفتن الحياة الدنيا ..فصمد فى المعركة ووقف رابط الجأش قوى العزيمة ، ثابت الأقدام ، لا يبالى بشيء من عرض الحياة ، ولا يناله شيء من إغرائها ووساوسها وفتنها ، فكان له النصر ، وظل يزحف فى الأرض لا يوقف مسيره شيء ، ولا يزعزع من قوته العقبات ولا جميع قوى الشر التى كانت تناوئه وتضمر له العداء .

ثم جُوبِهَ بمعارك قاسية مريرة ملؤها الظلم والبهتان والتعصب ، وقفت فيها جميع قوى المسيحية فى الأرض لتقضى عليه ، ولتهدم ما بناه المسلمون فى الدنيا من علوم ومعارف وحضارة ومبادئ وقيم ومثل شريفة ، فخاضها بعزيمة قوية ، وانتصر فيها نصرا مؤزرا مظفرا ، وكتب الله له البقاء والغلبة والسيادة بين الناس .

ثم امتحن بالغزو التترى وبقوى جديدة تنزل على أرض الإسلام لتبيدها وتزيلها من فوق

الأرض ، فانتصر عليها وأوقف طغيانها وردها إلى الإسلام وإلى الحق والله القوى الجبار المبين العزيز القادر على كل شيء .

ثم إذا هو أمام قوى الاستعمار الجديد التى بدأت تزحف على العالم الإسلامى من جديد ومن كل صوب وحدب ، وتحاول جاهدة أن تهدم حصونه ، وتنهب خيراته ، وتقتلع جذور قوته من أساسها فوقف صامدا وقفة البطولة والتضحية والإباء والشرف وانتصر فى معاركه الكثيرة المريرة القاسية مع هذه القوى الطاغية الشديدة التى تألبت عليه وتآمرت به وأخذت تكيد له كيدا شديدا فى الأرض .

ثم وقف أمام كثير من الأحداث ، وأمام كثير من المحن،وأمام الغزو الحضارى الأوربى لبلاده ، وأمام غزو البعثات التبشيرية لأرضه ، وأمام غزو المبادئ الجديدة الضالة الضارة له ، من رجعية ومادية وصهيونية وسواها ، ومن مختلف المبادئ الظاهرة حينا والمستترة حينا آخر .. وقف أمام كل ذلك وقفات مشرفة تذكر بالفخر والإجلال والإكبار .

صمد الإسلام فى جميع مواقفه إذاً مع قوى الأديان ومع قوى السياسة ، ومع قوى الحرب ، ومع قوى الحضارة الجديدة ، ومع قوى المال والمبادئ الوافدة .. وجرب الغرب معه فى حربه كل سلاح ، فكان للغرب الفشل ، وللإسلام الظفر ، وكان صموده فى جميع هذه المواقف صمودا عظيما جليلا مقرونا بالشرف والمجد والثناء والحمد وصدق الله العظيم فيما يقول : ﴿ إنَّا نحن نزَّلنا الذِّكر وإنَّا له لحافظون ﴾ .

فما سر هذه المنعة وما مصدر تلك القوة ، وما مرد هذا الصمود المعجز الذى لم يعرف لدين من الأديان ولا لشريعة من الشرائع ، ولا لعقيدة من العقائد ؟ .

الحق أن ذلك كله راجع إلى عظمة الإسلام وصحة مبادئه وقوة شرائعه واستقامة أحكامه وسلامة نظمه ، وإلى أنه الدين الحق المنزَّل من السماء ، وإلى أنه يعتمد على قوة ضخمة هى قوة الكتاب الحكيم الذى نزل برسالته من عند الله على خاتم رسله محمد صلوات الله عليه .

ويرجع كذلك إلى ما فى الإسلام من حرية وما فى دعوته من قيم ومثل ومبادئ ، وإلى صلاحيته لكل عصر ولكل بيئة ، وإلى ما تحتوى عليه تشريعاته من سهولة وبساطة ويسر وقصد لخير الناس وخير البشرية كافة .

ويرجع كذلك إلى أنه الدين الوسط الذى يجمع كل ما فى الأديان من فضائل ومثل وآداب وأخلاق ، وإلى أنه دين الحياة وشريعة التقدم ، وإلى مرونته واستجابته لكل دوافع

الخير ، وإلى أن القرآن الكريم كتاب دين ودولة ، وإلى كل صالح عظيم من المبادئ والأهداف .

هذا هو دين الإسلام ، وهذه هى غاياته وأهدافه ، وتلك هى مبادئه وسلامته .. وما بالك بدين يجمع بين الأولى والآخرة ، وبين الغاية الفردية والغاية الاجتماعية ، بين سمو الباعث وشرف المقصد والنزعة ، بين المسئولية والواجب والعقيدة ، بين الحرية والإخاء والمساواة ، بين الضمير الدينى والضمير الإنسانى ، بين حب التقدم والرغبة فى التجديد والإصلاح ، بين القصد إلى رفاهية الفرد وسعادة المجتمع وقوة الأمة ووحدة الإنسانية ، بين حرية النزعة الفردية وقوة الرغبة فى الحرص على مصلحة الجماعة .

هذا هو الإسلام ، وهذه هى عقيدته ، وتلك هى غايته ، وهذه هى وجهته .. إنه الدين الحق .

دين البيِّنة .

دين الصدق فى القول والعمل .

دين الإخلاص فى السر والعلن .

دين الفرد والجماعة .

دين العلم والحضارة .

دين الإنسانية كافة .

الدين العام الخالد الصالح لكل زمان ومكان .

هذا هو الإسلام ، عقيدة حقة ظاهرة ، قيمة صامدة تقف أمام جميع النزعات والأفكار والمبادئ هادية مرشدة واضحة نيِّرة ، لا عوج فيها ولا أَمت ولا مواراة ولا خفاء ولا رياء .

يقف الإسلام قوة كبيرة بين قوى كثيرة كبيرة تتألب عليه ، فيصمد لها ، وينتصر عليها ، ويكتب الله له القوة والغلبة فى جميع معاركه فيها .

هذا هو الإسلام منطق الخير والحق والنور ، منطق القوة والدعوة الصادقة التى تحارب نزعات الشر وقوى الباطل والإلحاد والمادية والتى كتب الله لها النصر دائما فى كل العصور والأجيال .

وصدق الله العظيم فيما يقول : ﴿ كتب الله لأغلبنَّ أنا ورسلى إن الله لقوى عزيز ﴾ .

عقيـدة ومنهج

الإسلام عقيدة ومنهج .

عقيدة التوحيد والعبودية لله رب العالمين .

ومنهج يعلن عن خصائص الإسلام الكبرى فى الحرية والمساواة والإخاء بين البشر أجمعين .

عقيدة متسامية ، ومنهج متكامل ، يحمل كل خصائص التقدم والحضارة والبناء من أجل رفاهية البشر والبشرية .

فى العقيدة إيمان كامل بالله ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر .

وفى المنهج تأتى فى مقدمته أركان الإسلام الكبرى الصلاة والصيام والزكاة والحج .

فالصلاة إعلان بعبودية الإنسان للخالق المبين الأعظم .

والزكاة إعلان بالمساواة الكاملة بين الغنى والفقير ، والإنسان مع أخيه الإنسان ، مع إطلاق الحرية للاقتصاد فى دائرة هذه المساواة ليعمل عمله فى تقدم الحضارة والإنسانية .

والحج إعلان بالإخاء بين أتباع الرسالة كافة ، لا فرق بين أبيض وأسود وأصفر وأحمر ، ولا بين جنس وجنس وشعب وشعب . الجميع عباد الله ، وأكرمهم عند الله أتقاهم .

أما الصيام فإعلان بالحرية ، حرية الإرادة وحرية العقل وحرية الفكر وحرية الإنسان وحرية المجتمع الإسلامى .

فحرية الإرادة تطلق الإرادة الإنسانية من إسار الشهوات واللذات والمتعة .

وحرية العقل فى إطلاق الطاقات العقلية النائمة المكدودة فى معركة الحياة اليومية ، لتؤدى رسالتها الكبرى فى البناء والتجديد والتقدم .

وحرية الفكر فى تحرير الأنماط العادية للإنسان من إسار التقليد والاتباع والعادة .

وحرية الإنسان فى جعله يتمتع بكل مقومات الحياة الروحية الصافية السامية دون شعور بأنه عبد لشىء مادى من أشياء الحياة المادية المتكررة المشاهدة .

وحرية المجتمع فى إطلاقه من قيود « اليومية » الصارمة التى تفرضها الحياة على الإنسان ، ويفرضها الإنسان على الحياة ، حد من الاستهلاك ، تفرغ للإنتاج ، حرب على الترف وعلى أصحابه وعلى طلاب المتعة واللذة ، وعلى الذين لا يعملون إلا للجنس ولا يفكرون إلا فيه . المجتمع وحده هو الأساس الذى يجب أن تذوب فى مصلحته العليا كل الرغبات والأهواء واللذات .

هذا هو الصيام كجزء من المنهج فى الإسلام ، وتجىء بقية أجزاء المنهج : اقتصاد حر طاهر شريف ، يحمل خصائصه التعاونية الكاملة — أسرة متكاملة متحابة مترابطة متعاونة على تحمل أعباء الحياة — آداب وقيم للسلوك الأسمى وللإنسان الصالح لخلافة الله فى الأرض ، ولعمارة الأرض وتذليل صعوبات الحياة أمام الناس — إيمان بالعمل المستمَد من الإيمان بالله الذى لا إله إلا هو الخالد المبين العزيز القادر الأعلى العالِم بما كان وبما سيكون ، والمستمَد من الإيمان بالحقيقة الواحدة الثابتة فى كل زمان والشاملة لكل مكان . وغير ذلك من أجزاء المنهج الذى يحمل طابع الاستقلال والشخصية والتميز والجدة .

إن الإسلام عقيدة متكاملة ، وحضارة متجددة ، نابعة من منهج سليم مترابط ، إنه ليس ذا صلة بأى مذهب من المذاهب المعاصرة ، لا تستطيع أن تقيسه بالرأسمالية ولا الشيوعية ولا الديمقراطية ولا الديكتاتورية ، ولا غير ذلك من المذاهب ، ولا تستطيع كذلك أن تزنه بأى مذهب منها .

إنه مذهب كامل صالح لكل زمان ومكان ، وهو شريعة الله المثلى الوسطى الخاتمة للشرائع وللرسالات السماوية ، وهو دين بقى كتابه المنزل من السماء خالدا محفوظا فى الصدور والصحف مذ نزل هذا الكتاب من السماء إلى اليوم .

ولا يستطيع مسلم أن يقول إنى مسلم إلا إذا عمل بهذه الأصول كلها والتزم بها التزاما تاما دون حيدة عنها ، أو خروج عليها ، وفى حدود الأصول : العقيدة والمنهج . ليس له أن يخرج عن هذا الإطار السماوى ليأتى بإطار آخر يضعه بنفسه ثم يفرضه عليها ، ثم يدعى أنه مسلم . لقد قضى الله عز وجل ، وشرع لنا العقيدة والمنهج ، فليس لنا خيار فيها ، والله عز وجل يقول فى كتابه الحكيم فى سورة الأحزاب : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾ .

والسعادة كل السعادة فى أن نعود إلى العقيدة والمنهج نلتزمهما التزاما كاملا ، ونؤمن بهما إيمانا تاما، ونعتقد عن يقين وصدق أنهما وسيلتنا إلى السعادة فى الدنيا وفى الآخرة ، وأنهما هما اللذان يصلان بنا إلى كل خير فى الدنيا وفى الآخرة ، وفى النفس والأهل والمجتمع والأمة ، وفى الحياة ، وفيما بعد الحياة .

مثالية الإسلام

انتصر الإسلام فى كل معاركه وميادينه ..

انتصر على الوثنية وأذلها ، وانتصر على الجهل وحاربه ، وعلى الوحشية والتأخر والجمود وصاولها ، وعلى الفساد والطغيان والشهوات والأهواء وناضلها ، وعلى كل معوقات الحياة والتقدم والنهضة وأزالها من طريق الإنسان ، وأشعل فى نفس المسلم نور الضمير وهذبه ، وجعل منه الحكَم والمسيطر على كل أعماله ، والرقيب على جميع تصرفاته .. وأنقذ الإنسانية من ضلالها وحيرتها وتأخرها ..

فمثالية الإسلام قضية لا شك فيها ، وإنسانيته مسألة لا جدال ولا ريب فيها ..

فالتوحيد الذى بنى عليه الإسلام ، والذى يرفع من كرامة الإنسان ومعنوياته ، ويصله بخالق السماء ، ويبعده عن الأرض التى يعيش عليها ، ويجعل متجهه إلى الله وحده .. هو مثالية لا ريب فيها .

ومبادئ الإسلام الكبرى ، وأصوله العامة ، التى جاء بها ، من عدل وإخاء ، ومساواة وحرية ، واحترام للحق ودفاع عنه ، وأمر بالإحسان وحث عليه ، والتزام للفضائل ودعوة إليها ، ونهى عن كل الرذائل والموبقات والشهوات والمعاصى وزجر عنها .. كل ذلك مثالية واضحة ولا ريب ..

وتشريعات الإسلام تتضح فيها مثاليته اتضاحا تاما ، من صلاة يتساوى فيها الناس عامة فى الوقوف بين يدى ربهم ، ويتجهون فيها إلى خالقهم ومدبّر أمورهم، ومن زكاة هى مظهر لعدل الإسلام وسماحته وبرّه بالفقير وحدبه عليه وإحسانه إليه ، وصوم وحج فيهما ما فيهما من الأسرار والحكم العالية ، ومن تحريم للربا والغش والاحتكار والجشع فى المعاملة وغير ذلك .

ويكرم الإسلام الإنسان تكريما ظاهرا ، ويترك له حريته واختياره ، ويحترم مظهره الإنسانى ويدعوه إلى السمو به . ويدعو الإسلام كذلك إلى العمل وإلى تحمل المسئولية وإلى تقدير المسلم للتبعات والواجبات المنوطة به ، وكل ذلك تكريم للإنسان ومثالية

ظاهرة هى مظهر لروعة الإسلام وجلاله وعموم رسالته ، وأنه الدين الحق الخالد الصالح لكل زمان ومكان .

وهو فوق ذلك دين يحترم العقل والعلم ويدعو إلى التهذيب والتثقيف ، وأول ما نزل من كتابه الحكيم هو قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علّم بالقلم * علّم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

ومن مثاليات الإسلام أنه يدعو المسلم فى كل وقت إلى أن يشعر بشعور الغير ، ويحس بإحساسه ، ويحب لغيره ما يحب لنفسه ، ويدعوه كذلك إلى الرحمة والخير والبر والإحسان والتعاون والتكافل الاجتماعى ، وإلى أداء الواجب كاملا نحو الفقير واليتيم والمسكين وابن السبيل .

وتتضح مثاليته كذلك فى إلغائه للفوارق بين الأجناس والشعوب والناس ، وتقريره للمساواة الكاملة بينهم ، وهدمه للعصبيات الظالمة ، والعنصرية الباطلة ، ولامتيازات لون على لون ، أو جنس على جنس ، فلا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

والتعاون الذى دعا إليه الإسلام ، وحث عليه ، هو تعاون على البر والتقوى والخير ، وبعد أن كان شعار الجماعة فى الجاهلية : انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، أصبح شعارها فى الإسلام : قف مع الحق أيّان كان والتزمه ودافع عنه ، وإياك والمحسوبية والأنانية والأثرة .

ولقد هدم الإسلام الأثرة وأحل محلها الإيثار ، وهدم العصبية وأحل محلها الحق والعدل ، وحرم الظلم وجعله محرما بين الناس ، ودعا إلى احترام الأموال والأعراض والدماء،إلى احترام حق الغير فى كل شىء ... وكل ذلك بعض من مثالية الإسلام وإنسانيته الكاملة غير المتناهية .

ومواقف الرسول الأعظم وخلفائه وولاة المسلمين فى عصر القوة الإسلاميةشاهد صدق على عظمة الإسلام وروعته وجلاله ومثاليته .

* * *

والقرآن الكريم يحتفى أشد الاحتفاء بتأكيد الدعوة إلى كل القيم العالية ، والمثاليات السامية ، فى الحياة ، حتى إنه ليدعو إلى تطهير النفس وتزكيتها : ﴿ قد أفلح مَن زكّاها * وقد خاب مَن دَسَّاها ﴾ ودعوة الإسلام كلها تطهير وتزكية لنفس المسلم ،

وارتفاع بها عن السفاسف والدنايا والآثام والخطايا ، والشرور والشبهات ، وبذلك انتصر الإسلام ، ودخل فيه الناس أفواجا ، واعتنقوه عن إيمان واقتناع .

إن الإسلام هو الدين الوسط ، الحق ، العام ، الخالد ، الصالح لكل الأجيال والبيئات الذى جاء من الله خاتما للرسالات ، ونهاية للنبوات ، وجامعا لكل ما فيها من مآثر وفضائل ومكارم وتوحيد وحق .. ﴿ شرع لكم من الدِّين ما وصَّى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدِّين ولا تتفرَّقُوا فيه ﴾ .

* * *

وإذا كان أسلافنا الأولون لم يقصروا فى واجب الدعوة إلى الإسلام فى كل زمان ومكان ، فإن إمكانيات اليوم أضخم وأكبر وأوسع وأقدر على القيام بمثل هذه المهمة الإنسانية السامية .

وعلى الدول الإسلامية أن تكوِّن مجلسا أعلى من كبار القادة والعلماء والمفكرين فيها ، له ميزانيته الكبيرة المستقلة ، وتكون مهمة هذا المجلس هى وضع الخطط اللازمة للدعوة إلى الإسلام ونشره والعمل من أجله فى كل مكان من أنحاء العالم .. ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ۝ إنهم لهم المنصورون ۝ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ .

إن مسئوليتنا أمام الله وأمام الأجيال وأمام مستقبل الإنسان لكبيرة وضخمة ، وبخاصة بعد أن أخذ الرعب يملأ آفاق الإنسان فى عصر القوة والحروب الذرية المدمرة .. ورسالة الإسلام هى السلام والدعوة إليه والعمل من أجله فى الأرض ، والعالم لم يكن بحاجة إلى السلام فى أى عصر منه إليه اليوم .

إن الإسلام دين الله وشريعته ، دين الحق ، دين القيِّمة ، دين السماء ، الدين الذى نزل به الوحى المقدس على رسول كريم ، هو محمد بن عبد الله ، ﷺ ، وما أجدرنا أن نعمل من أجل الإسلام كل ما نستطيع ، وأن نبذل فى سبيله كل ما نملك ، ففيه عزنا ، وهو نورنا ، ومنه قوتنا ، وعليه حياتنا ، وبه فخرنا ، وهو الهدى والنور والسلام للناس كافة .

دين حق لا قوة

الإسلام العظيم ، والدين الكريم ، والشريعة الكاملة المثلى ، دين الله إلى الناس كافة ، ورسالته إلى البشر أجمعين .. هو دين الحق لا دين القوة .

كانت النظريات القديمة فى الإمبراطوريات البائدة قبل الإسلام تمجد القوة ، ولا تعترف بالحق ، وتعطى القوة كل مظاهر الحق وقدسيته ، وتفرض القوة على الناس بالسيف ، لأن للقوة فى رأى المفكرين آنذاك كل جلال الحق وهيبته .. وباسم القوة استعملت كل أساليب الطغيان فى معاملة الأفراد والجماعات والشعوب مما لا يدخل تحت التصور ، ومما ينافى كل كرامة أو حرية ..

يالله ! كيف كان الناس يقبلون فى العصور القديمة مثل هذا الغرور والطغيان والاستبداد وتمجيد القوة لنفسها ، وأين هذا كله من سماحة الإسلام وإنسانيته ومثاليته ؟

ومنطق القوة لا يزال سائدا حتي اليوم ، وفلسفة نيتشة وهيجل معروفة ، وآراء هتلر وموسولينى فى تطبيق القوة على السياسة لا تزال ماثلة أمام الأذهان .

وفى عصور الطغيان وارتكاب الموبقات والجرائم باسم القوة ، كان العرب فى الجاهلية يتصورون الأمر على نمط آخر من التفكير .. كانت لديهم آراء تمجد القوة وتحترمها فى شخص القبيلة ورئيسها ، وتعطى للقوة سلطة الحق وشعاره ، وبجانب ذلك كانت لهم نواميس عامة من احترام بعض الفضائل وتقديسها كالعفة والصدق وحماية الجار .. ومن مثل ذلك (حلف الفضول) ، وهو أكرم حلف سمع به العرب وأشرفه ، وقد دعا إليه الزبير ابن عبد المطلب بعد أن أدركت قريش حرب الفجار ، وذاقت ويلاتها أربع سنوات طوالا أصيبوا فيها بالجدب والقحط ، فتحالفت قريش على ألا يجدوا مظلوما إلا قاموا معه وأنصفوه ، وتم ذلك الحلف فى دار عبد الله بن جدعان ، وشهده الرسول ﷺ شابا ، وقال فيه : لقد شهدت مع عمومتى حلفا فى دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعيت لمثله فى الإسلام لأجبت .

وجاء الإسلام الكريم ، ونزل القرآن الحكيم ، وفرض كثيرا من التشريعات التى تهدم النظريات القديمة فى تمجيد القوة ، وأحل محل كل ذلك الحق والعدل بأوسع معانيهما ،

فمن أمر بالوفاء بالوعد ، والتزام العهد ، وحرص على الصدق ، ونهى عن الظلم ، وحض على التعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان ، وتحريم للقتل وسفك الدماء فى غير حدود الله ، وتحذير من الفحشاء والمنكر والبغى ، إلى تقديس للأمانات وأمر بأدائها لأصحابها كاملة غير منقوصة ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ (الأنفال آية ٢٧) . إلى غير ذلك من مظاهر تقديس حقوق الأفراد وحرماتهم .

لقد وقف الإسلام مؤيدا للحق ، داعيا إليه فى كل مظاهره ، لأنه الحق ، ولأنه شريعة السماء ، ولأن الحق منزل من الله الخالق العظيم . ولأن فيه تكريم الفرد والجماعة والإنسانية ، ولأنه هو والسلام الأصلان العظيمان اللذان ينبثق منهما كل فضائل الإسلام وأصول دعوته .

أمر الإسلام الإنسان بالتزام الحق فى العقيدة ، فنهى عن الشرك والوثنية والتقليد ، وطالب العقل بأن يفكر فى الدين وفى الخالق وفى السماء والأرض ، وفى كل مظاهر قدرة الله العلى الحكيم فى هذا الكون المرفوع بالقدرة ، المستند على العلم والإرادة النافذة .

وأمر بالحق فى العبادات والمعاملات ، فأحل البيع وحرم الربا ، ونهى عن الغش والزور والتطفيف فى الكيل والميزان وأكل أموال الناس بالباطل ، والاعتداء على حقوق الغير فى الملكية ، وجعل المعاملة والبيع والشراء قائمين على المقايضة بالمثل ، وإحاطة ملكية الإنسان بسياج من الحرمة والكرامة ، والحق والقانون والقوة ، ونهى عن الجور على الناس فى أموالهم وأعراضهم ودمائهم .

وقرر حق الإنسان الشخصى فى طعامه وملبسه وشرابه ، وفى تكوين الأسرة وفى تربية الأولاد ، وفى التصرف فى الحياة كما تقتضى الشريعة والمنطق والعقل وتقدير المسئولية .. ولم ينزع حق الإنسان الشخصى عنه حتى فى الحروب ، ومن ثم نادى بتحرير الأرقاء ، وضيق منافذ الرق ، وأعطى للرقيق وهو الأسير فى حرب إسلامية مشروعية حق الحياة والعيش ولم ينقصه من حقوق الأحرار شيئا ، وإن كان قد جعل القوامة عليه لسيده ، وذلك إلى أن يفهم الإسلام وشريعته حق الفهم ، وينشأ عليه ، ويتأدب بآدابه . وبعد هذا يكون المن بالعتق ، أو المكاتبة على الحرية ، وغير ذلك من وسائل تحرير الأرقاء .

وقدس الإسلام حق الفقير والمسكين واليتيم ، وحق العامل والخادم والمرأة ، والطفل وحق الشيخ والمريض ، وقرر كل الحقوق المشروعة لكل الأفراد والجماعات والطوائف ،

وجعل التعليم فريضة وحقا للمسلم ، والعلاج والقوت من مطالب الحياة الضرورية ، وحمى حرية الإنسان الشخصية فى المسكن وفى العمل ، وفى الرأى والتفكير ، وفى كل ألوان حياته ، هذه الحرية التى تتلاقى مع حريات الآخرين ومع نواميس المجتمع وأوامر الدين التقاء كاملا .

وشرع كل الحقوق العادلة للشعوب ، فساوى بينهما فى الحقوق والواجبات ، ومنحها الحرية والعدالة ، وأمر الحاكم بالتزامها ولم يجعل له امتيازا على غيره من المحكومين . وجعل الحاكم العادل من الذين يشملهم الله برضائه وفضله يوم القيامة .

الحقوق الشخصية والعامة مكفولة فى الإسلام ، والتزام العمل بها فريضة على الناس كافة ، الحاكم والمحكوم منهم على سواء .

والعبرة فى منطق الإسلام أنه أبطل منطق القوة ، وجعل كل شىء للحق وحده ، وجعل الحق اسما من أسماء الله تعالى ، فالشريعة حق ، والقرآن حق ، وكل ما أمر به حق ، وكل ما أخبر عنه حق ، والبعث حق ، والحساب حق ، والجزاء حق ، والدين كله حق لا ريب فيه .

وإذا كان كل حق للإنسان يقابله واجب مفروض عليه ، فقد حمل الإسلام المسلم المسئولية ، وجعله ملتزما بها التزاما كاملا ، وهذه المسئولية أو الأمانة هى التى ذكرها الله عز وجل فى قوله : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ﴾ .

وذكرها الرسول ﷺ فى قوله : (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى بيته ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته) .

والقرآن الكريم أعظم سند للحق ، وأقوى جهة يستمد منها الحق قوته وقدسيته وروعته وهيبته ، وإذا كان الحق فى كثير من النظم الوضعية يستمد قوته من دساتير مكتوبة معرضة لتلاعب الأهواء والشهوات ، فإن الحق فى الإسلام يعتمد على كتاب مقدس نزل به الوحى الأمين من السماء إلى الأرض ، وبلغه محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه .

إن الحق فى الإسلام هو القوة ، هو الخير ، هو السلام ، هو الأمان ، هو شريعة المجتمع الإسلامى كله ، والحاكم فى الإسلام لا يقوم إلا بالحق ولرعاية الحق ، ولا يجوز له

تجاوزه ولا الاعتداء عليه ولا التفريط فيه.وقد حرم الإسلام عليه المحسوبية بالأثرة والحكم بالهوى والغرض وجعله مسئولا عن أعمال كل معاونيه .. فإذا لم يفعل ذلك فقد فقَدَ المصدر الشرعى الذى يستمد منه قوته وسلطته .

إن الإسلام هو الحق ، الحق العظيم ، الحق العادل ، الحق الذى يهدف إلى سعادة المجتمع والأمة والإنسانية ، وإلى رفاهية الفرد وحريته أولا وقبل كل شىء .

ومن أجل ذلك كان الإسلام هو الدين الكامل ، وهو دين القَيِّمة ، وهو دين الإنسانية فى أمسها وحاضرها وغدها ، وفى كل زمان ومكان ، وكل وقت وجيل .

اليمين واليسار فى القرآن

اليمين واليسار فى اللغة أمرهما ذائع معروف ، وقد أصبحت الكلمتان تطلقان على المعتدل والمتطرف ، وعلى السهل والصعب ، وعلى المعقول وغير المعقول من العقائد والمذاهب والآراء .

والفضل فى استعمال هاتين الكلمتين بهذه المعانى ، وفى ذيوعهما يرجع للقرآن الكريم وحده ، فهو الذى كان له السبق الأول فى ذلك كله ، وعن القرآن الكريم أخذ القدماء والمحدثون يستعملونهما ويرددونهما كثيرا فى أحاديثهم ومحاور كلامهم ..

وليس هناك اليوم كلمات ذائعة مشهورة ، تتردد على الألسنة كهاتين الكلمتين ..

وفضل القرآن الكريم ، على اللغة ، وعلى التجديد والتطور اللغوى ، فى القديم والحديث ، لا يحتاج إلى بيان ، فألفاظه وأساليبه هى التى أمدت أدبنا بكثير من كنوز اللغة وطرائفها وأماثيلها ، وصقله للألفاظ ، وتهذيبه للأساليب وتخليده لصور البيان الرائعة والأساليب البديعة ، والبلاغة النادرة ، مما لا يحتاج إلى بيان ، ولسنا فى حاجة للدلالة عليه إلى برهان ..

ولأول مرة فى اللغة العربية يرد استعمال اليمين واليسار بالمعانى السابقة فى كتاب الله الحكيم ، فليست هناك نصوص أدبية أقدم من القرآن الكريم ، يتردد فيها ذكر هاتين الكلمتين للدلالة على المعتدل والمتطرف من العقائد والمذاهب والأفكار ، أو على الجزاء الإلٰهى العادل فى الآخرة لأهل اليمين وأهل اليسار .

ومن الجدير بالذكر أن القرآن الكريم يستعمل اليمين فى كل قصد واضح وجليل ونبيل وإنسانى من العقائد ، وليس هناك لفظ أخف استعمالا ، ولا أدق معنى ، ولا أبلغ دلالة من هاته الكلمة فيما استعملت فيه من مقاصد . واليمين ترمز إلى اليمن ، والحظ الطيب ، والتفاؤل الكريم ، والطريق اللاحب وإلى سلوك السبيل السوى ، وإلى مرضاة الله وثوابه لسالكيها .

وقد استعمل الشمال فى الدلالة على عكس ذلك كله ، وفى لفظه الشمال رمز إلى تنكُّب الفطرة ، وإلى البعد عن المحجة الواضحة ، وإلى ما فى سلوك مثل ذلك من غاية

شريفة، وفى الشمال ما فى الشؤم من تطير ، وهى توحى بأن طريق الشمال من وسوسة الشيطان ، كما أن طريق اليمين من هداية الله ، ولذلك استعمل القرآن الكريم كلمة الشمال لتدل على أعمق معانى كلمة اليسار ، والتى نستعملها نحن اليوم مخطئين متنكبين عن الاستعمال الدقيق ، كما تنكبنا طريقنا فى فهم معنى اليمين واليسار ، فعكسنا معنى الكلمتين فى استعمالاتنا عكسا بينا ، حتى أصبحنا ندل بكلمة اليمين على الجمود والتأخر والرجعية ، وبكلمة اليسار على التحرر ونبذ القديم والدين والعقيدة ، نظن أن ذلك هو سبيل التقدم والنهوض وحاشا لله أن يكون فى اطراح العقيدة ونبذ الدين تقدم أو نهوض أو تحرر .

ومن ثم كان استعمال القرآن الكريم لكلمة « الشمال » ، وإيثاره لها على كلمة « اليسار » أعمق فهما ، وأدق مسلكا ، وأدل على المقصود منها .

وفى القرآن الكريم من سورة الحاقة يقول الله تعالى : ﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه * إنى ظننت أنى ملاق حسابيه * فهو فى عيشة راضية * فى جنة عالية * قطوفها دانية * كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية * وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول : يا ليتنى لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حسابيه * يا ليتها كانت القاضية * ما أغنى عنى مالية * هلك عنى سلطانيه * خذوه فغلوه * ثم الجحيم صلوه * ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه * إنه كان لا يؤمن بالله العظيم * ولا يحض على طعام المسكين * فليس له اليوم هاهنا حميم * ولا طعام إلا من غسلين * لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ (الحاقة ــ الآيات ١٩ ــ ٣٧) .

والصورتان هنا متقابلتان ، وعلى غاية ما تكون البلاغة والروعة والبيان والسحر والإعجاز ، وفيهما من تطويع الأسلوب وموسيقاه وجماله ما لا نجد له نظيرا ولا شبيها من كلام أبلغ البلغاء أو أعظم الشعراء .

والبلاغة القرآنية هنا تسير فى طريقها الجليل النبيل ، من خدمة الإنسانية ، وهداية البشرية إلى الحق وإلى الله وإلى مثل الحياة وقيمتها الرفيعة ، واللفظ هنا بقدر المعنى ، والأسلوب والبيان يسيران مع العقل والمنطق والحكمة .. لا يمكن لواصف أن يصف شتى عناصر البلاغة والنظم فى هذا النص القرآنى العظيم ، لأن القرآن استعصت بلاغته على فهم البلغاء ، وعلى فلسفة النقاد ، فلم يعودوا يعرفون من أمر هذه البلاغة شيئا إلا أنها من كلام الخالق العظيم والإله القادر الحكيم .

وفى سورة الواقعة يذكر الله عز وجل أهل الميمنة ، وأهل المشأمة ، وطبقة ثالثة هى طبقة السابقين المقربين ، ويبدأ بذكر الطبقتين الأوليين لوضوحهما وكثرتهما ، وأنهما الغالبية العظمى من بنى البشر ، ويؤخر الكلام على الطبقة الثالثة ، لقلتها وندرتها ودقة أمرها .

والسورة كلها فى الحديث عن هذه الطبقات الثلاث ، من بدئها لختامها .. ولننظر فى آياتها الكريمة ، نقف عندها ، نتأمل جلالها وروعتها ، وسحرها وحكمتها ، لنتفهم دلالتها فى حياة الإنسانية كلها ، فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها .

يبدأ الله عز وجل سورة الواقعة بذكر وقوع الواقعة ، أى قيام القيامة وأثرها العظيم على الإنسان والكون .. ﴿ إذا وقعت الواقعة * ليس لوقعتها كاذبة * ﴾ ..

نعم إنها حق وصدق .

﴿ خافضة رافعة * إذا رجت الأرض رجا * وبست الجبال بسا * فكانت هباء منبثا * ﴾

ثم يذكر الله عز وجل أقسام البشر يومئذ ، بحسب أعمالهم ومنازلهم من الله عز وجل ..

﴿ وكنتم أزواجا ثلاثة * فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة * وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة * والسابقون السابقون ﴾ .

ثم يذكر نصيب السابقين فى الآخرة من رضاء الله ونعيمه ، وحظهم فيها من الخير والجزاء الجميل .. وبدأ بهذا القسم الثالث تنويها وتعظيما وتشريفا وتبجيلا لمقامهم عند الله .

﴿ أولئك المقربون * فى جنات النعيم * ثلة من الأولين[1] * وقليل من الآخرين[2] * على سرر موضونة * متكئين عليها متقابلين * يطوف عليهم ولدان مخلدون * بأكواب وأباريق وكأس من معين * لا يصدعون عنها ولا ينزفون * وفاكهة مما يتخيرون * ولحم طير مما يشتهون * وحور عين * كأمثال اللؤلؤ المكنون * جزاء بما كانوا يعملون * لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما ﴾ .

وهكذا تمضى هذه السورة الرفيعة ، جليلة كريمة ، ساحرة باهرة ، تتحدث عن السابقين ومنزلتهم فى الآخرة عند الله عز وجل .. وليس غرضنا هنا أن نفسر السورة ، ولكننا نقصد إلى بيان مضمونها وحده ، وصلة هذا المضمون بماضى وحاضر ومستقبل الإنسانية ، ومن ثم فلم نعرض لتفسير الآيات ، ولا لتوضيح الصور ، ولا لبيان بلاغة الأساليب ، فهى ماثلة أمام كل ذى ذوق ، واضحة عند كل ذى طبع وموهبة من البيان .

ثم يذكر الله عز وجل أهل اليمين ، وما أعده الله لهم فى الآخرة من نعيم ..

﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين * فى سدر مخضود * وطلح منضود * وظل ممدود * وماء مسكوب * وفاكهة كثيرة * لا مقطوعة ولا ممنوعة * وفرش مرفوعة * إنا انشأناهن إنشاء * فجعلناهن أبكارا * عربا أترابا * لأصحاب اليمين * ثلة من الأولين[3] وثلة من الآخرين[4] ﴾ .

وتنتقل السورة الكريمة المكية ، وهى سورة الواقعة ، إلى ذكر أصحاب الشمال ، وما أعد لهم فى الآخرة ، من وبال ، وما يلقونه فيها من نكال ..

﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال * فى سموم وحميم * وظل من يحموم * لا بارد ولا كريم * إنهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرون على الحنث العظيم * وكانوا يقولون : أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون * أو آباؤنا الأولون[5] * قل إن الأولين والآخرين * لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ ..

وتستمر السورة فى خطاب هؤلاء الشماليين ، وبيان جزائهم فى الآخرة ، وفى الحجاج معهم رغبة إقناعهم بالبعث وصدق الأمر فيه وإمكان حدوثه عند العقل ، لأن قدرة الله لا يستعصى عليها شىء ، ولا يعجزها أمر فى الأرض ولا فى السماء .

ثم تتحدث السورة إلى الرسول الكريم عن القرآن العظيم ، وأنه تنزيل من رب العالمين .. وتعود إلى جدال هؤلاء المشركين المكذبين الضالين وإلى مصيرهم عند الموت .. (٧٥ — ٨٠ من السورة) .

وتلخص السورة ما تتلقى الملائكة به عند الموت كلا من هؤلاء الطبقات الثلاث :

﴿ فأما إن كان من المقربين * فروح وريحان * وجنة نعيم * وأما إن كان من أصحاب اليمين * فسلام لك من أصحاب اليمين * وأما إن كان من المكذبين الضالين *[6] فنزل من حميم * وتصلية جحيم * إن هذا لهو حق اليقين * فسبح باسم ربك العظيم ﴾[7] .

وهكذا مضت هذه السورة سورة الواقعة ، فى ذكر اليمينيين واليساريين ، وفى ذكر طبقة رفيعة من خيار الإنسانية وأصفيائها ، وهى طبقة السابقين المقربين .

على ما رأينا من الجلال والحكمة والروعة والبلاغة والبيان والسحر ، سارت إلى هدفها المقصود من تبصير الإنسانية وهدايتها وإضاءة الطريق أمامها ، ورسم النهايات المحتومة للبشر واضحة أمام عقلها ومخيلتها وعينيها ، ليهتدى من اهتدى عن بينة ، وليضل من ضل عن بينة .

وجملة ذلك كله أن الله عز وجل تحدث فى كتابه الحكيم عن اليمينيين واليساريين ،

ووصف كلا بأوصافه ، وأبان ما ينال كل منهما من جزاء فى الآخرة عند الله ..

فإذا كان الأمر عند المسلمين المعاصرين قد انقلب إلى النقيض ، فصار اليمينيون عندهم كأنهم المنبوذون أصحاب الشمال ، وصار اليساريون عندهم هم المختارون وكأنهم أصحاب اليمين ، فإن ذلك من وسوسة الشيطان ، ومن انقلاب الميزان ، ومن فساد المنطق بتأثير سموم الصهيونية ، التى تنفث فى عقول ضعفاء الدين شرورها ، لتضلهم عن الطريق ، وتبعدهم عن الهدف ، وتقصيهم عن رضاء الله ، وعن سبيل العزة والقوة والكرامة ، ولتنقلهم من حالة الذاتية والشخصية الواضحة إلى حالة أخرى من التبعية الذليلة والتقليد الأعمى لكل ضال وضار من المذاهب والعقائد والآراء . وفى ذلك للمسلمين المعاصرين الهوان والذل والشقاء الأبدى المقيم .

اللهم اجعلنا من أهل اليمين ، وأبعدنا عن ضلالات أهل الشمال ، وأنزل علينا من رحمتك ، ما يهدينا إلى سواء السبيل .

---

(١) أى هم عدد ضئيل من الأمم السابقة .

(٢) وعدد قليل من أتباع رسالة محمد آخر الرسالات .

(٣) أى هم عدد قليل من الديانات السابقة .

(٤) وعدد قليل من أتباع رسالة الإسلام آخر الرسالات .

(٥) أى أَوَيُبْعَثُ كذلك معنا آباؤنا الأولون ؟ ممن مضت عليهم آلاف السنين وهم فى أجداثهم راقدون .

(٦) وهم أهل المشأمة .

(٧) الخطاب هنا لرسول الله ﷺ ..

الأصالة والمعاصرة جميعا

فى الأصالة ـــ ترجع الأمة إلى شخصيتها وذاتيتها التى كونتها الأحداث والأجيال الطويلة والمؤثرات الأصيلة فى حياتها من الدين واللغة والآمال والآلام والعوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعقلية المتعددة .

وفى المعاصرة تلوذ الأمة بحاضرها أكثر مما تلوذ بماضيها وتتأثر بالمؤثرات المعاصرة المختلفة وفى مقدمتها التأثر بالحضارات والثقافات السائدة وإن كان هناك من يجعل المعاصرة أخذ الأمة كل تيار قديم أو حديث ومزج ذلك بروحها وبذاتها (وحين يقول الأستاذ الناقد مصطفى عبد اللطيف السحرتى (مجلة الثقافة عدد مايو ١٩٧٤) العصرية ـــ وهى بالطبع موافقة للمعاصرة ـــ استقطاب ما ينبثق فى العصر الحاضر من أفكار نيرة وتقاليد قومية صالحة وعادات حميدة ومبادئ رفيعة ، على رأسها حب الحرية والعدالة والمساواة والنزوع إلى المحبة والسلام إلى الطهارة والعفة ..) ، فيرجع بالمعاصرة إلى المعنى الأول الذى ذكرته وهو اللواذ بالحاضر أكثر من الماضى نجد هناك كتابا يفهمون المعاصرة على معنى الاستفادة من الحاضر والماضى فى بناء وجدان الأمة وروحها ، وأن المعاصرة لا تعنى الانسلاخ عن التراث والتخلى عن الماضى ، وإنما تعنى مواكبة التطور الفكرى والعلمى من أجل الحفاظ على قداسة القيم والتمسك بها .

وأن الحاضر هو تراث الماضى مضافا إليه اجتهاد اليوم وفى الأصالة يقول بعض كتابنا ، مثل الدكتور بدوى طبانة (الأسبوع الثقافى ـــ عدد الجمعة ١٢ من ربيع الأول سنة ١٣٩٤ هـ : مفهوم الأصالة عند أمة من الأمم فى ناحية من النواحى هو عراقتها فى تلك الناحية وصحة نسبتها إليها ، بمعنى أنها من ابتكارها وحدها وأنها لم تأخذها عن غيرها من الأمم أو تقلدها فيها ، ومفهوم التجديد هو الإضافة والتعديل بالزيادة أو الحذف مجاراة لتطور الأمة وتقدمها فى الحياة وأخذها بأسباب الحضارة ، وتبدو الأصالة فى ذلك التراث الضخم الحافل الذى خلفته الأمة العربية فى كثير من مجالات الثقافة العلمية والفكرية والفنية .

ويقول كاتب آخر (المصدر السابق نفسه)

« غالبا ما يعنون بالأصالة الارتباط بتراثنا القديم بكل ما فيه مع الإعراض عن الحاضر وما فيه ، وبالمعاصرة الاكتفاء بالجديد المحدث والانفصال الكامل عن كل قديم ، وهذا النوع من الفهم سقيم ، فالأصالة تعنى الشىء العريق والرأى المحكم . والشىء الأصيل هو ذو الأصل الضارب فى الأعماق .. فالأمة ذات الأصالة هى ذات التاريخ والماضى الرائع ، وذات الجذور القوية العميقة المتصلة بذلك التاريخ وبذلك الماضى ، ليس بكل الماضى بما فيه من غث وسمين ، بل الارتباط الوثيق بما فيه من عناصر الحقيقة والصواب والخير والجمال والسمو والقوة ، فالأصالة هى فى الانتقاء من الماضى ، والمعاصرة هى القدرة على الانتقاء من الحاضر » ويتابع ذلك الكاتب كلامه فيقول : « وهناك من يرى أن الأصالة الحقيقية تكمن فى المزج الذكى بين تراثنا وما يقدمه اليوم العقل الإنسانى من إبداعات » .

وفى الملتقى الثامن للفكر الإسلامى الذى عقد فى الجزائر منذ أعوام بحث أعلام الملتقى موضوع الأصالة والتفتح ، واختلفوا حولها :

فمن الناس من ينادى بالانحصار فى التراث وحده ، ومنهم من ينادى بالانفتاح الكامل على الحضارة الغربية ، بحيث تكون هى الأساس ، وبحيث تكون حضارتنا الإسلامية مجرد تراث نقرؤه ، ومنهم من نادى بأن تستمر المسيرة فى طريقها تأخذ من الحضارة الإسلامية ومن الحضارة الغربية (راجع المصور عدد ١٩ / ٤/ ١٩٧٤) .

وأنا أقول : لنختلف ما شئنا حول تعريف الأصالة والمعاصرة ، ولكن الشىء الذى لا نختلف فيه أبدا ، ولا يصح الاختلاف فيه بحال من الأحوال ، هو أننا يجب علينا الاعتزاز بتراثنا اعتزازا كاملا ، لأنه قطعة حية من حياتنا وتاريخنا وكياننا الروحى والوطنى والقومى ، تراثنا الروحى المتمثل فى عقيدتنا وشريعتنا وسلوكنا وتراثنا العقلى المتمثل فى كل ما أنتجه العقل الإسلامى من آراء وأفكار وعلوم ومؤلفات . وتراثنا الحضارى المتمثل فى كل ما أبدعه الفكر الإسلامى من مقومات الحضارة وأصولها ، هذه الحضارة الإسلامية التى امتازت بروحانيتها ، وبإشراقها وإنسانيتها تميزا كاملا .. وأن من الواجب علينا فى حياتنا المعاصرة ، ونحن نبنى بلادنا ، بعد تحررها من الاستعمار ، بناء كاملا ، أن نجعل هذا التراث هو كل شىء فى حياتنا نأخذ منه ، ونستمد كل مقومات حياتنا من منابعه .

إن تلامذة المستعمرين والصليبيين والصهيونيين ينادون اليوم بيننا ، وفى غير استحياء ، بأن ننفصل عن الماضى كله وأن نعيش فى الحاضر وحده ، وذلك جهل وظلم وجحود شديد .

ولقد عمل الاستعمار ما عمل فى بلادنا من تخريب وهدم وتحريف لتراثنا ، وطعن فى تاريخنا وحضارتنا ، وتربية جيل من شبابنا على أفكاره ونظمه ومذاهبه ، وأصبح هؤلاء هم الذين يجأرون نيابة عن الاستعمار بالدعوة إلى الحضارة والثقافة الغربية والأخذ عنها والرجوع إليها فى كل شىء ، وترك الحضارة والثقافة الإسلامية تركا تاما ، وهؤلاء هم الأخسرون عملا الذين ضلوا وأضلوا .. وقد أخلدوا إلى الأرض ، فلم يرفعوا بالعزة والأصالة رأسا .

إننا ننادى بالأصالة فنعيش مع الماضى والتراث ، ومع الدين والقرآن الكريم ، ومع اللغة والعلوم الإسلامية والعربية ، ومع حضارة أمتنا الإسلامية وتاريخها المجيد ، عيشة كاملة نتذوق كل ما فى كنوز التراث من جلال وجمال وروعة وسحر ، ونعيش كذلك معاصرين لكل جديد نافع من واقعنا ومن واقع غيرنا ، نأخذه وننتفع به ونثرى به حصيلتنا من المعرفة والعلم ، وفى الحديث الشريف : (اطلبوا العلم ولو فى الصين) .

ننادى بأن نعيش فى الأصالة والمعاصرة جميعا ، نشعر بعزتنا ومجدنا وجلال تراثنا ، ونشعر بحاضرنا ونعيش ونتنفع بالجديد النافع منه .

لقد أبدع العقل الإسلامى كل ثمين فى المعرفة وهداه الدين واستظل به ، فسار أشواطا بعيدة فى الكشف عن مجاهل الكون ، وسبر أغواره .

وأبدع كذلك فى كل جوانب العقل والعلم إبداعا أصيلا مميزا قدره ولا يزال يقدره رواد العلوم وأئمة الفكر الإنسانى تقديرا كبيرا .

وتراثنا الفكرى والعقلى تراث جليل خالد شامخ يجب علينا أن نعيشه ونتمثله ، لأنه هو الذى أضاء للإنسانية طريقها أجيالا وقرونا طوالا .

فلدينا ديننا العظيم ، وشريعتنا الكاملة الخالدة الغنية بكل كنوز الفكر التشريعى المضىء ، الذى أخذت البشرية عنه كل قوانينها ونظمها وتشريعاتها ، فعاشت فى ظلالها عشرة قرون فى أمن وعدل ورخاء وسعادة ، ثم جاء الاستعمار الغربى لبلاد الإسلام فحارب قوانين السماء ، واستبدل بها قوانين الأرض ، وخرب فى الحياة الإنسانية تخريبا

شديدا بكل ما كان فى استطاعته من قوة ومن حقد ومن كراهية لكل تقدم إسلامى عظيم .

والحضارة الإسلامية الرفيعة التى أظلت العالم عشرة قرون كانت منارا مضيئا للإنسان والإنسانية ردحا طويلا ، بما هو فى غنى عن الإشادة به والتنويه بمفاخره .

إن أصالة الأمة الإسلامية ، وأصالة حضارتها وتراثها ، وأصالة ثقافتها ، كل ذلك من مفاخرنا الجلية الخالدة ، التى يجب على أجيال المسلمين الاعتزاز بها ، والاهتداء بهديها والاستضاءة بضوئها أبد الآباد .

ولن تعود للأمة الإسلامية عزتها وجلالها ومفاخرها إلا إذا عادت لنبع هذه الأصالة ، ونهلت من موردها ، واستظلت بظلها ، ونعمت بالحياة فى نورها .

الأصالة والمعاصرة يجب أن يكونا جميعا شعار المسلمين المعاصرين فى الحياة .. نأخذ من ماضينا ونرجع إليه فى كل شىء ، ونضيف إليه من جديدنا وجديد غيرنا كل مفيد نافع ، وجليل ثمين .

الإسلام فى حاضره وغده

الغد : هو التاريخ المفتوح الممتد ، فلم يعد الزمان مفصولا إلى ماض ، وحاضر ، ومستقبل ... بل هو تطور متصل ، وحلقة متكاملة ، يكمل غده حاضرو وماضيه أبدا . فالحياة وحدة واحدة ، فروعها من جذورها الضاربة فى أعماق الماضى البعيد .

والغد : هو حاضر الأبناء والأحفاد ، وهو الأمل الذى نعيش له ، ونحلم به دائما ، ونتمناه يجيئنا فى جمال الربيع ، وعطر الورد ، ورقة السحر ، فكلما ضاقت نفس الإنسان باليوم ، وأحاطت به الأزمات وأدركه السأم من واقع سىء ، تمنى الخروج منه إلى غد أفضل .

وتخطيط الإنسان للغد أمر ممكن ، والأمم الحازمة تخطط للمستقبل ، ومن أجل ذلك تقوم وزارات للتخطيط فى معظم الدول اليوم ، وهنا تتجلى عظمة الحديث الشريف : (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا) .

وحين نتحدث عن غد الإسلام فإننا نذكر ما يجيش فى الصدور من أمل .. فى أن يأتى اليوم الذى تتولى فيه مبادئ الإسلام توجيه هذا العالم المضطرب وقيادته إلى شاطئ الأمان ، ونقوم فيه نحن المسلمين بواجبنا نحو الإنسانية التي جعلنا الله شهداء عليها وأمرنا بتوجيهها إلى الخير وتحذيرها من الشر : ﴿ كنتم خير أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ .

وتبدل الحاضر المؤلم إلى غد أفضل ، ليس بالأمر البعيد فى حدود الإمكان ، وليس بالشىء الذى تعجز عنه قدرة الإنسان .

وتمثل انتصارات المسلمين الكبرى خلال حقب التاريخ إمكان ذلك التحول ، وقدرة العقل المسلم على تحويل الهزائم إلى نصر مبين ، وأمامنا شريط ممتد ، من بدر إلى فتح مكة ، فاليرموك فالقادسية ، ثم حطين ، وعين الجالوت .. وأخيرا معركة العاشر من رمضان المجيد .

لقد وقفت الإمبراطورية الرومانية فى وجه الإسلام العظيم منذ معركة اليرموك حتى فتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح فى أواسط القرن التاسع الهجرى ، تشن

عليه الحروب ، وتدبر له المؤامرات ، وتؤلب عليه القوى المختلفة .. ونحن نعرف أنها كانت إحدى القوى المحركة للأحداث فى الحروب الصليبية ، وأنها كذلك كانت المحرك لجيش التتار لغزو العالم الإسلامى ، وحسبنا دليلا على ذلك ما يرويه التاريخ من أن هيتون ملك أرمينية المسيحى كان العامل الرئيسى فى إقناع الملك المغولى « مانجو خان » (٦٤٦ ـــ ٦٥٥هـ/١٢٤٨ ـــ ١٢٥٧م) بإرسال تلك الحملة التى دمرت بغداد بقيادة هولاكو (٦٥٦ : ١٢٥٨م) وأن هولاكو التترى زوّج ابنه من ابنة إمبراطور القسطنطينية المسيحى[1] .. ومع جرائم الإمبراطورية الرومانية الشرقية ضد الإسلام وشعوبه ، فإنها لم تلبث أن انهارت فجأة بدخول السلطان محمد الفاتح القسطنطينية فى اليوم الثلاثين من مايو عام ١٤٥٣م ـــ ٨٥٧هـ ، حيث سار من باب القديس رومانوس ممتطيا صهوة جواده ، فى موكب نبيل ، إلى كنيسة « سانت صوفيا » فأذن من فوق قبابها للصلاة ، وكان ذلك انتصارا رائعا للروح الإسلامية ، ودليلا قويا على أن قوة القرآن فى جمع شمل المسلمين وفى تجديد معنوياتهم ، لم يصبها أبدا الوهن فى يوم من الأيام .

إن الشعب العربى المسلم لا يعرف اليأس أبدا ، ولم يتطرق اليأس إلى قلبه فى يوم من الأيام .

يقول إقبال شاعر الإسلام فى العصر الحديث :

إنك أيها المسلم فى العالم كله حق وحدك ، وما عداك سراب خادع ووهم باطل .

ويقول سارتون المستشرق الأمريكى الشهير[2] :

إن شعوب الشرق الأوسط ـــ وهى مجموعة الشعوب العربية ـــ قد قادت العالم فى حقبتين طويلتين :

أولاهما : قبل أيام اليونان طوال ألفى سنة .

وثانيهما : فى العصور الوسطى ـــ يريد عصر حضارة الإسلام ـــ مدة أربعة قرون

---

(١) ٢٥٢ و ٢٦٠ الدعوة إلى الإسلام ـــ أرنولد توماس ، ترجمة حسن حسن إبراهيم وعبد المجيد عابدين ـــ وراجع : المغول بين المسيحية والإسلام ، ومغول إيران ، وهما لعلى مصطفى بدر .

(٢) الثقافة الغربية فى رعاية الشرق الأوسط ـــ ترجمة عمر فروخ ـــ طبع بيروت سنة ١٩٥٢م .

على الأقل ، وليس ثمة ما يمنع تلك الشعوب من أن تقود العالم مرة أخرى فى المستقبل القريب أو البعيد .

فما هو الغد الذى نريده إذًا للإسلام ؟

إنه — حتما — لا يمكن أن يكون غدا آخر مقطوع الصلة بماضينا لأن ذلك محال يأباه ديننا وتاريخنا وتراثنا وعقلنا ، ويأباه كذلك منطق الأشياء ، وإذا تصورنا غدا آخر مقطوع الصلة بالماضى فإن من المحال الوصول عن طريقه إلى أهدافنا ، وإلى وحدة إسلامية ووطنية كاملة ، ومن المحال كذلك فى ظله تلافى الصراع الطبقى والحروب الاجتماعية بين طبقات المجتمع . وقد فشلت ، ولا تزال تسير فى طريق الفشل كل المحاولات لبناء غد للإسلام يرتكز على أصول غير إسلامية ، من الوثنية أو العلمانية أو المادية الإلحادية أو غيرها من المذاهب الاقتصادية والسياسية السائدة اليوم .

ومحور دعوات أئمة الإسلام ومفكريه فى العصر الحديث هو عودة منهج الحياة الإسلامى الذى يستمد مقوماته من الإسلام والقرآن ، منطلقا من الرسالة التى أذن بها محمد صلوات الله وسلامه عليه فى شعاب مكة وبلغها للناس كافة .. فالطهر الروحى هو منطلقنا إلى الحياة والمجد والعزة ، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها كما كان يقول شيخ المجتهدين الإمام مالك رضوان الله عليه .

ونحن نعلم أن عدد المسلمين اليوم فى العالم لا يقل عن سبعمائة مليون فى آسيا ، ونحو عشرين مليونا فى أوربا وأمريكا وهو عدد هائل يمكنهم أن يصنعوا الأمجاد فى عالمنا المعاصر .

والإسلام وهو يجمع فى نطاقه الكبير كل شئون الدين والدنيا فى بوتقة واحدة لا يمكن أن يكون فى عزلة عن الحياة وواقع الناس وشئون الدولة ، ولا يمكن أن يصير إلى ما صارت إليه الأديان الأخرى ، من اقتصارها على شئون الإنسان وحده حيث لا صلة لها بشئون المجتمع أو الدولة ، وحيث يردد أصحابها شعارهم المعروف : دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله .. وهو أكثر الشعارات بعدا عن روح الإسلام وجوهره ورسالته ، والله عز وجل يقول فى كتابه الحكيم : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء[1] ﴾ ، وليس الإسلام كالمسيحية ولا كغيرها ، دين رهبنة فحسب ، ولا دينا لا تجده إلا داخل الكنيسة وحدها ... إنه حركة اجتماعية دائبة ، تشمل الاعتقاد والأخلاق والدولة والنظم الاجتماعية ، يقول العقاد[2] : « لم يذهب الإسلام مذهب التفرقة بين ما لله وما لقيصر ،

---

(١) ١٥٩ الأنعام . (٢) ٢٧ الإسلام فى القرن العشرين ط ١٩٥٤

لأن الأمر فى الإسلام كله لله ، « بل لله الأمر جميعا .. » وعلى هذا الشعار الزائف وهو : « ما لله لله وما لقيصر لقيصر » لا يكون هناك فى رأيى معنى لأن يأمر الله عباده بتحمل المسئولية ، وبالأمانة وبالصدق فى المعاملة ، وبالحفاظ على أعراض الناس ودمائهم وأموالهم ، ولا بالعدل بين الناس والإنصاف فى معاملة الرعية .

والتوحيد فى الإسلام هو دِعامته الكبرى ، يقول محمد فريد وجدى[1]: « الإسلام أن تسلم وجهك لله ، مجردا نفسك عن علمك وعقلك وحولك وقوتك وتقاليدك كلها ، الخشوع دثارك ، والتقوى والرجاء والضراعة صفاتك، متجردا له كيوم ولدتك أمك على الفطرة . لتتحقق عبوديتك » .

وليس من ريب فى أن أعداء الإسلام اليوم من صليبيين وصهونيين وعلمانيين وشيوعيين ووثنيين وغيرهم يزيفون على الإسلام شعارات وأفكارا زائفة كثيرة ، محاولين بذلك صد التيار الإسلامى عن طريقه . ويجب أن يعرف المسلمون جيدا هذا ، ويجب أن يؤمنوا بأن الإسلام ليس هو ما يذيعه المستشرقون وتلاميذهم ، ولا ما يذيعه من يصفون أنفسهم بالمتحررين والمتقدمين ، وليس هو ما تقرؤه فى كتب تروج لها أيد مجهولة تخطط لعرقلة سير الإسلام ومده العظيم .

وقد وعد الله عز وجل عباده الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح أن تكون لهم السيادة فى الأرض ، فقال عز من قائل :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم ، وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم فى الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ﴾[2] .

ولا ريب أن الإسلام الذى سارت تحت لوائه أيامنا وأجيالنا ، وخفقت فى ظلال انتصاراته أعلامنا وأرواحنا ، وشهدت حضاراته ومختلف تياراته أرضنا وسماؤنا وكان منه ماضينا ، ومن خيوطه نسج حاضرنا ، وفى ظلاله سوف يحيا غدنا ، وهو الذى لا غد لنا أبدا إلا فى ظلاله وتحت راياته ، وفى ضوء نوره ... ولن يصنع الغد المأمول الوضاء للإسلام وشعوبه إلا المسلم الحقيقى الذى وصفه إقبال شاعر الإسلام بأنه « مطلع فجر السعادة

(١) ٢ : ٣٥٦ الإسلام فى عصر العلم .
(٢) ٥٥ سورة النور .

فى العالم ، ومؤذن الصباح فى الليل المظلم ، ومصدر التطور الصالح فى التاريخ ، حتى يشرق العالم بالنور ، ويستيقظ الكون من سباته بالبعث » .

يقول العقاد : إذا بقى للإسلام إيمانه والمؤمنون به ، فلا خطر عليه من أقوياء اليوم ، ولا من أقوياء الغد المجهول[1] .

وإذا بقى للإسلام ذلك فإن قيادة العالم كله ستوضع بين يديه ، لأنه حينئذ لن يكون هناك صوت أعلى من صوته ولا راية أرفع من رايته ، وليس الإسلام خطرا على أحد ، ليس خطرا على المسيحية ولا على اليهودية ، ولا على الشرق ولا على الغرب لأنه دين السلام والعدل والرحمة ، ودين الحب والتسامح الحقيقى .

إن الذى وقف فى معارك الإسلام الكبرى مؤمنا صامدا صابرا ، مناضلا من أجل الحق والحرية ورسالة السماء ، إنما هو المسلم الحقيقى ، وهو ومن ماثله هم الذين روعوا هرقل إمبراطور الرومان وفزعوه فى حروبهم فى الشام ، فلما خرج منها مهزوما مدحورا ، ووصل إلى أنطاكية ، وأقبلت فلول جيوشه إليه محطمة ذليلة ، أمر بعقد مجلس حربى أعلى ، وصاح فى كبار قواده :

ــ ويلكم ، أخبرونى : هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا بشرا مثلكم ؟

فردوا عليه : بلى .

فقال لهم : فأنتم أكثر أم هم ؟ .

قالوا : بل نحن أكثر منهم أضعافا فى كل موطن .

قال لهم الإمبراطور : فما بالكم تنهزمون ؟

فسكتوا ، وأجابه قائد من كبار قواده قائلا : « أيها الملك انتصروا وهزمنا ، من أجل أنهم يقومون بالليل ، ويصومون بالنهار ، ويوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويتناصفون بينهم ، ومن أجل أنا نشرب الخمر ، ونزنى ، ونركب الحرام ، وننقض العهد ، ونظلم ، ونأمر بالسخط ، وننهى عما يرضى الله ، ونفسد فى الأرض » .

وفى غزو المسلمين لبلاد كسرى جلس رسول قائد جيش المسلمين فى مجلس الإمبراطور الفارسى يزد جرد وأقبل عليه كسرى يسأله : من أنتم ؟ وماذا تريدون ؟ وجاء الجواب واضحا قويا جليلا : إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل السماء .

---

(١) ١٧٩ الإسلام فى القرن العشرين .

يقول المودودى[1] : إن فلاح الإنسانية وصلاحها فى المستقبل فى أن تؤمن بالإسلام ، وتكفر بكل ما أخترعت من النظريات الباطلة .

ويشهد برنارد شو بحيوية الإسلام العجيبة ، ويقول إنه الدين الوحيد الذى له طاقة هائلة لملاءمة أوجه الحياة المتغيرة ، وهو صالح لكل العصور . وقال عن رسول الإسلام : إنه يجب أن يسمى منقذ الإنسانية ، وأعتقد أنه لو أتيح لرجل مثله أن يحكم العالم الحديث لحالفه التوفيق فى حل جميع مشكلاته ، بأسلوب يؤدى إلى السلام والسعادة ، اللذين يفتقر العالم إليهما كثيرا .

وإذا كان المسلمون اليوم قد انتهى مصيرهم إلى فرق : فرقة تذهب إلى أن الإسلام قد انتهى زمنه ، وهؤلاء قد سيطر الجهل على عقولهم ، فهم مثلا لا يبلغون فى فهم الإسلام مبلغ بعض المستشرقين الذين يجهر واحد منهم بأن « قوة القرآن فى جمع شمل المسلمين لم يصبها الوهن »[2] .

وفرقة أخرى تذهب إلى أن الإسلام سوف يعود إلى الظهور على مسرح الحياة قوة عالمية ثالثة بين قوتى الشرق والغرب ، قوة بين العديد من القوى التى تسيطر على أقدار العالم والحياة . وكنت أنا أذهب إلى ذلك منذ نحو ربع قرن فى مقالات نشرت فى مجلة الأزهر عام ١٩٤٦ م وما بعده ، وفى كتبى : الإسلام وحقوق الإنسان ، الإسلام دين الإنسانية ، الإسلام ومبادئه الخالدة وسواها .

ويردد العقاد ذلك الرأى أيضا فى كتابه « الإسلام فى القرن العشرين » فيقول : إن الإسلام مجموعة من مجاميع الأمم الكبرى فى القرن العشرين ، وكذلك ذهب الدكتور محمد البهى فى كتابه « الفكر الإسلامى ، مشكلات الأسرة والتكافل » المطبوع منذ سنوات قلائل .

ونشهد بخطأ هذا الرأى ، ونقول : إن الغد وحده لعقيدة الإسلام والغد للإسلام وحده .. إنه سيكون فى الغد القوة الروحية المؤثرة فى العالم ، ولسوف يكون الإيمان بالإسلام أمرا يوجبه مسيرة التاريخ ، وحتمية انتصار الحضارة .

***

إن غرض الصهيونية العالمية هو تمييع التراث العربى الإسلامى فى المنطقة على الرغم من تمسكها هى بتراثها الدينى اليهودى .

---

(١) حاجة الإنسانية إلى نظرية صالحة ــ ص ٩

(٢) ١٤٤ الإسلام قوة الغد العالمية .

وموقف السلطان عبد الحميد من الصهيونية موقف معروف ، فقد ذهب إليه وفد « يهودى من « جمعية أحباء صهيون » وعرضوا عليه بوساطة رئيس وزرائه تحسين باشا العرض التالى :

١ ــ يتعهد اليهود بسداد جميع ديون الخلافة ومقدارها ١٣٣ مليون ليرة ذهبية إنجليزية ، وفوق ذلك يقدمون قرضا للخلافة مقداره ٣٥ مليون ليرة ذهبية دون فائدة . ويتعهدون كذلك ببناء أسطول بحرى تجارى للدولة يتكلف ١٢٠ مليون فرنك فرنسى .

٢ ــ على أن يسمح الخليفة لليهود بإنشاء مستعمرة لهم قرب بيت المقدس ، وأن يباح دخولهم إلى فلسطين للزيارة فى أى يوم من أيام السنة .

وكان جواب الخليفة هو ما نصه :

يا تحسين ، قل لهؤلاء الوقحين ما يلى :

١ ــ إن ديون الدولة ليست عارا عليها ، فغيرها من الدول مثل فرنسا مدينة .

٢ ــ ليحتفظ اليهود بأموالهم ، فالدولة العلية لا يمكن أن تحتمى وراء حصون بنيت بأموال أعداء الإسلام .

٣ ــ بيت المقدس افتتحها للإسلام عمر بن الخطاب ولست مستعدا لأن أتحمل فى التاريخ وصمة بيعها لليهود ولا لخيانة الأمانة التى كلفنى المسلمون بحملها .

٤ ــ وأخيرا ، مر اليهود ، فليخرجوا من عندى ، ولا يحاولوا بعدها مقابلتى أو الدخول إلى هذا المكان أبدا .

وخرج اليهود ليأتمروا مع الاستعمار على السلطان عبد الحميد فقامت الثورة عليه وأقصى عن عرشه ، ثم محيت الخلافة من تركيا ، وكانت الأموال التى رصدوها لحربه وللتخلص منه هى السبب الرئيسى لكل ما حدث .

ولقد مدت الصليبية والصهيونية أيديها إلى الوثنيات المختلفة ، تستعين بها فى محاربة الإسلام والقضاء عليه فى بلاده وفى بلاد أخرى كانت إسلامية آمنة ، مثل القرم ، والقوقاز ، وبخارى ، وسمرقند ، وخوارزم ، وزنجبار ، والفيليبين ، وموزمبيق ، وسواها . ولذلك نرى الصهيونية تلقى معاونة من الدول اليسارية وغير اليسارية على السواء ... وهذا كاسترو ينصح السفير الإسرائيلى فى بلاده كما ذكرته صحف كوبا وإذاعتها وترجمته عنها صحفنا العربية فيقول له :

« على إسرائيل ألا تترك الحركة الفدائية تتخذ طابعا إسلاميا دينيا حتى لا يجعل من

حركتهم شعلة من نار الحماس الدينى ، مما يجعل من المستحيل على إسرائيل أن تصون كيانها ، لأن الفداء إذا تملكته عقيدة دينية وبخاصة فى المجتمعات الإسلامية تلاشت أمامه كل العقائد الأخرى بما فيها الماركسية .. » وقد أنطق الحقد على الإسلام هذا الشيوعى المتطرف فقال ما قال ...

إن جميع هذه القوى تقف فى مواجهة الإسلام ، لترصد حركاته والتعرف إلى خطواته ، والتسمع إلى أخباره ، ما خفى منها وما ظهر ، ليدبروا المؤامرات له فى كل مكان .

وتحرص جميع وسائل الإعلام العالمية والصهيونية على تجسيم خطر أية خطوة يخطوها المسلمون ، ليلفتوا الأنظار فى العالم الصليبى واليهودى والشيوعى إليها ، وليعملوا متكاتفين من أجل القضاء عليها . ويجتمع القادة الروحيون وغير الروحيين فى أوربا بين الحين والحين للتخطيط لمستقبل الإسلام ... ولكن الله لهم بالمرصاد ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين . كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾[1] .

ويساعد الصهيونية فى تحقيق أغراضها هذا الغزو الفكرى الصليبى للشرق الإسلامى العربى . ونشوء طبقات جديدة من أبنائنا أصبحت لا ترى الحياة إلا بمنظار الغرب وثقافاته وفلسفاته وفكره . بل أصبحت ترى أن فكر بلادها وتراثها ، بل دينها ، عبء ثقيل عليها ، يجب طرحه والتحرر منه وألا يبقى له أثر فى حياة المسلمين المعاصرين أينما كانوا . ومن هذا المنطلق الغريب ، وهو أثر غسل المخ الذى أجرى فى أوربا وفى مدارس التبشير فى بلادنا لهؤلاء الناس ، أصبحنا نجد من يصف الإسلام التقدمى العظيم بأنه دين رجعى ، ومن يتحدث عن قطع يد السارق بأنه عمل بربرى ، ومن يقول عن كل شىء فى الإسلام إنه منطق البداوة ، وأن تراثه متخلف من مسايرة ركب الحضارة .. وأين هؤلاء من مثل عزل نحو خمس السكان فى الولايات المتحدة عن الحياة بناء على فلسفة التفرقة العنصرية .. ومن مثل إبادة الوطنيين السود فى جنوب أفريقيا ليحل محلهم الأوربيون البيض ؟ وكان كرومر إذا سئل عن موعد جلاء الإنجليز عن مصر يقول : حين نربى جيلا مؤمنا بالثقافة الغربية وحدها .

---

(١) سورة المجادلة ــ آية ٢٠

وينادى آخرون من هؤلاء الطبقات بأن الإسلام خصم للعلم ، وتكرر الشيوعية والعلمانية أنه دين الغيبيات ، وأنه سبب ضعف المسلمين . يقول مثلا كليموفتش فى كتابه الإسلام المطبوع فى موسكو عام ٥٦ : إن الإسلام فى جوهره ما زال ولا يزال عدوا للعلم . ويقول ماركسى آخر : الإسلام عدو للعلم .

ونود أن نسأل مع العقاد : هل يؤمن عقل الإنسان بالدين فى هذا العصر ويرى دينا أحق بالإيمان به من الإسلام ؟

ولماذا لا يؤمن عقل الإنسان بالدين ؟ أليس أعظم رجال البحث العلمى فى أوربا كانت نفوسهم مشربة بالشعور الدينى العميق ؟ ..

على أنه لا يفوتنا أن نلفت النظر إلى أن بعض المؤتمرات التى تعقد فى أنحاء العالم باسم الإسلام ، هى مؤتمرات تهدف إلى تزييف تاريخ الإسلام وحضارته وثقافته وأفكاره . ويتصدرها المبشرون والمتعصبون من المستشرقين وتلاميذهم .

لقد حاول الغرب إخضاع الشرق الإسلامى لماديته ولمذاهبه الهدامة ولفلسفاته اللاإنسانية ، ولإلحاده ، ولآرائه فى السلوك والأخلاق والعادات ، وخضعت بعض المجتمعات بتأثير ذلك لأفكار الجنس والعرى والربا والخمر والاستهتار وغيرها . فالربا فى رأى دعاة التبعية لا يستقيم أمر العالم إلا به . وإذا قرأنا لعالم فرنسى كبير مثل جاك أوسترو فى كتابه الإسلام أمام التطور الاقتصادى الذى نشر فى باريس عام ١٩٦١ لوجدناه يقول فى صفحة ١١٢ : إن الإسلام يتمتع بإمكانيات هائلة ، وإذا ما وجد الطريق الصحيح مفتوحة أمامه فإن كثيرا من الصعوبات الاقتصادية سوف يحلها هو وحده . ثم يرى أنه أقدر على ذلك من غيره من مذاهب الاقتصاد الروسية والغربية .

إن سياسة التلفيق التى ينتهجها بعض الكتاب فى كتابتهم عن الإسلام لا ثمرة لها . فكل فكرة فى رأيهم يجب أن تقاس بمقاييس الغرب وموازينه قياسا كاملا حتى تصبح مقبولة عند هؤلاء .

ومن خلف هؤلاء تتنمر المادية ويتنمر المبشرون والمستشرقون للإسلام وللمسلمين ويناصبونه جميعا العداء .

وهذه الحضارة هي شيء مفزع ورهيب في نظر المسلم العادى ، ولكنها مع ذلك وكما نؤكد أوهى من بيت النمل ، وأوهن من بيت العنكبوت .

إنها حضارة لا أساس لها . مادة بلا روح وأهواء بلا عقيدة ، وليست تنطوى على أية نزعة إنسانية أو خلقية ، وهى تقف كل لحظة أمام أبواب الفناء الذرى .

يقول إقبال :

« مثلت حضارة الغرب دورها ، وقد شاخت وهرمت ، أينعت كالفاكهة وحان قطافها ، وسوف ينهار العالم الذى حوله مقامرو الغرب إلى حانة للفساد ، ولقد رأت أوربا بعينيها النتائج المخيفة لمثلها الاقتصادية والأخلاقية والعلمية ، ولسوف تتمخض الإنسانية عن عالم جديد ، وهذا العالم لا يحسن تصميمه إلا مَن بنى للبشرية البيت الحرام ، وورث محمد وإبراهيم قيادة العالم » .

إن حضارة القمار والربا ، والمكيافيللية الشريرة ، والأيدلولوجيات المتخلفة والتفرقة العنصرية البغيضة ، والاستعمار الوحشى البربرى ، حضارة العرى — والإباحية ، والعلمانية والمادية ، حضارة استعباد المرأة باسم تحريرها .. لا مكان لها فى قاموس المثل والقيم الشريفة .

وكل عنصر شريف فى حضارة الغرب فهو منا وإلينا ، يقول غوستاف لوبون فى كتابه حضارة الغرب :

إن أوربا مدينة للعرب بحضارتهم ، فالعرب كانوا هم ممدينين للغرب وأئمة له فى ستة قرون ، وعن طريقهم اهتدى الغرب إلى تراث الإغريق وكشف ماضيه فأخذ ينقب عنه .

ونحن لا ننسى أن خضوع العربى المسلم لحضارة الغرب ، ووقوعه تحت سيطرتها الكاملة ، مما جعل المواطن العربى يواجه معضلات ومشكلات هائلة وخطيرة فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والعلم ، لا يدرى كيف يتفاعل معها فى علاقاته الداخلية والخارجية على السواء ، إلى الذلة النفسية التى طغت على الكثير منا أمام طغيان الحضارة الغربية وسيادتها .

وذلك على أية حال أقل بكثير مما كان الغربى يشعر به من قبل حيال سيادة الحضارة الإسلامية العربية .

يقول غوستاف لوبون : الحق أن أتباع محمد ظلوا أشد من عرفتهم أوربا من الأعداء إرهابا عدة قرون ، وعندما كانوا لا يرهبوننا بأسلحتهم كانوا يذلوننا بأفضلية حضارتهم العربية السامقة ، ونحن لم نتحرر من نفوذهم إلا بالأمس .

وقد ذعر الشاعر الإيطالى المشهور بترارك ١٣٣٤ ــ ١٣٧٤م الذى مضت على وفاته اليوم ستة قرون كاملة لسيادة الحضارة العربية وعجز العقل الأوربى عن مجاراتها فقال :

يا عجبا ! لقد تساوينا نحن والإغريق وجميع الشعوب غالبا ، وسبقناها أحيانا ، إلا العرب . فيا لعبقرية إيطاليا الخامدة ، فهل قدر علينا ألا نعمل شيئا بعد العرب ؟

وقد وقف المفكرون الغربيون حيال الشرق العربى موقف المتعجب المذهول .

يقول غوستاف لوبون : إن سبب انحطاط الشرق هو ترك روح الدين وتشبثه بالعقائد الباطلة .

ويقول ولز : الدين الحق الذى يساير المدنية هو الإسلام .

ومن قبل قال عمر بن الخطاب خليفة المسلمين لبعض أصحابه : لقد أعزكم الله بالإسلام فمهما تطلبوا العز من غيره يذلكم الله .

وقال الهرمزان الفارسى لعمر وقواده : إنما غلبتمونا بالإسلام .

ونحن نقول أخيرا فى كلمة موجزة قليلة :

إن الغد للإسلام .

وإن الشعوب الإسلامية لها الغد المشرق فى ظلال الإسلام وهديه العظيم . الإسلام وحده هو عقيدة الغد ، والغد وحده هو لعقيدة الإسلام .

إن هذا ليس حلما من الأحلام ، بل هو الحقيقة الخالدة الواضحة وضوح الشمس فى ريعان النهار .

إن الإيمان بالإسلام ضرورة ملحة للإنسانية لتعيد بناء نفسها من جديد ولترتفع به على المحن ، وعلى أحداث الزمن .

إن الإيمان به هو الانتخاب الطبيعى الذى ترجع إليه الإنسانية بين الحين والحين ، الانتخاب والتخير لأسمى القيم والمثل التى نثق فى قدرتها على الوصول بها إلى مرفأ السلام والحرية والرخاء .

إن الإسلام هو العقيدة التى تعلو أبدا على كل الآلام ، وعلى أحداث الأيام ، وعلى شتى المحن والخطوب الجسام .

ولسوف يظل الإسلام منارة الأجيال والعصور ، وفكرة البشرية السامية الرفيعة على مر الأيام والدهور .

الإسلام وتربية الشباب

الشباب عنصر فعال فى حياة المجتمعات والأمم على طول الأجيال والعصور ، وهم طليعة الحاضر ، وقادة المستقبل ، ورواد الشعوب إلى الحرية والرخاء .. والإسلام ديننا العظيم ينظر إلى الشباب ، من خلال المجتمع كله نظرة رعاية وعطف وتوجيه . فهو يدعو إلى شموله بالرفق والحنان وحسن التربية والتقويم ، وإلى تعويده على تحمل المسئولية ، والاضطلاع بالواجب ، وأداء الحقوق ، والالتزام بالقيم والمبادئ والمثل الشريفة .

فمن رعاية نفسية إلى معالجة شتى الأحوال الاجتماعية والاقتصادية إلى فرض القدوة الطيبة التى يجدها الشباب أمامهم فى الآباء والمعلمين والموجهين ، إلى ثقافة إسلامية واسعة ترشد الشباب إلى أمور دينهم ودنياهم ، وتربية دينية قويمة تحرص على فتح باب الأمل والطموح والعزة والعزيمة فى نفوسهم ، وعلى تحريرها من الخوف والتردد والقلق ، وعلى غرس السكينة والأمن والإيمان العميق فى قلوبهم وأرواحهم . وفى المنزل والمسجد والمدرسة والمجتمع وكل جانب من جوانب الحياة يجد الشباب كل ألوان الاهتمام والرعاية والأسوة الحسنة التى يسيرون على منوالها ، ويمشون فى ظلالها . وأوقات الفراغ لديهم مشغولة بالتثقف والعبادة والمشاركة فى العمل من أجل بناء المجتمع وتقدمه .

والدولة تبسط للشباب حبال الأمل والعمل والرأى والتخطيط ، لتعوّدهم على تحمل التبعة والنهوض بعبء الأمانة ، والقدرة على التصرف فى المشكلات . بل إن الدولة فى الإسلام تستشير الشباب ، وتأخذ بآرائهم إن أصابوا بها كبد الحقيقة ، وكان يقال : « عليكم بآراء الأحداث ، ومشاورة الشباب ،فإن لهم أذهانا تفلّ الحديد ، وتحطم السيوف » .

وقال الإمام الزهرى (ـــ ١٢٤ هـ) : كان مجلس عمر بن الخطاب رضى الله عنه غاصًّا بالعلماء والقرّاء كهولا كانوا أو «شبابا» ، وربما استشارهم . وكان يقول : لا يمنع أحدكم حداثة سنه أن يشير برأيه ، فإن الرأى ليس على حداثة السن ولا على قدمه ، ولكنه أمر يضعه الله حيث يشاء . وفى الأحداث الكبرى كان عمر يجمع الشيوخ فيستشيرهم ، ثم يجمع الشباب ويعرض عليهم المشكلة .

وبفضل الإسلام وتوجيهه للشباب ظهر منهم أكثر قادة الإسلام وأبطاله وزعمائه ومفكريه .. ومن الشباب الذين ظهروا فى عصر الرسالة : الإمام علىّ بن أبى طالب ، الذى كان يضرب به المثل فى البطولة والشجاعة ، وعبدالله بن مسعود أول من جهر بالقرآن فى مكة بعد رسول الله ﷺ ، وأسامة بن زيد الذى نشأ فى بيت النبوة وولاه رسول الله قبيل وفاته إمرة الجيش الذى وجّهه إلى الشام . وقبل خروج أسامة من المدينة مات الرسول الأعظم ، وتولى خلافة المسلمين أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وبادر الخليفة بإنفاذ الجيش وخرج بنفسه يشيع أسامة وجنده ، وأبو بكر يمشى على قدميه وأسامة القائد الشاب راكب ، ويقول أسامة : يا خليفة رسول الله ، والله لتركبن أو لأنزلن . فيقول له الخليفة : والله لا تنزل ووالله لا أركب ، وما علىّ أن أغبّر قدمىّ فى سبيل الله ساعة . وفى جيش أسامة عمر ، وأبو بكر محتاج إلى عمر فى المعاونة فى حمل أعباء الدولة ، فيستأذن الخليفة أبو بكر القائد أسامة قائلا له : إن رأيت أن تعيننى بعمر فافعل . فعاد عمر إلى المدينة بإذن أسامة ، ثم قال الخليفة لأسامة : اصنع ما أمرك به رسول الله ﷺ ، ولا تقصر فى شىء من أمر رسول الله .

ومن الشباب فى الإسلام محمد بن القاسم الثقفى الذى فتح الهند ، ولم يكن عمره يتجاوز العشرين ربيعا ، وطارق بن زياد فاتح الأندلس .

وفى المدينة وقف قائد مسلم يخطب فى أهل مدينة رسول الله ، ويقول لهم : « بلغنى أنكم تعيروننى بأصحابى ، قلتم : هم شباب أحداث ، ويحكم يا أهل المدينة ، وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله المذكورون فى الخير إلا شبابا أحداثا ، شباب والله مكتملون فى شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة فى الباطل أرجلهم ... » .

وبحسبنا أن مطلع الإسلام بدأ بالرسول الأكبر ، وبامرأة هى زوجه خديجة أم المؤمنين ، وبشاب هو ابن عمه علىّ بن أبى طالب .

لقد أعز الإسلام الشباب فما أحرى الشباب بأن يحمدوا الله أن هداهم للإسلام .

الإسلام والاقتصاد

الاقتصاد فى عصرنا الراهن هو المحور الذى تدور حوله حياة الأفراد والشعوب ، بل إن جميع المذاهب التى تسود هذا العصر إن تميزت بشىء فذلك أنها ترتكز على مذاهب اقتصادية ، ومهما اختلفت فى وسائلها فإنها تتحد فى غاياتها التى هى — أولا وأخيرا — الرفاهية الاقتصادية .

ولقد أثبت النظام الاقتصادى فى الإسلام أنه يتصدر كل النظم الاقتصادية . إنه أعطى الحضارة العالمية كل مقوماتها وأعظم النتائج الاقتصادية السليمة المربحة ، التى وطدت الثقة فى نفوس المتعاملين والجماهير ، فهو أكثر النظم فائدة ورخاء وخيرا للمجتمعات والشعوب . يقول جاك أوسترى فى كتابه « الإسلام أمام التطور الاقتصادى » الذى نشر عام ١٩٦١ فى باريس — ص ١١٢ — : « إن الإسلام يتمتع بإمكانيات هائلة ، وإذا ما وجد الطريق الصحيح أمامه مفتوحا فإن كثيرا من الصعوبات الاقتصادية سوف يَحُلها هو وحده ، لأنه أقدر على ذلك من غيره من مذاهب الاقتصاد » .

وإذا كانت حوافز الربح وحدها هى أساس كل المحركات للاقتصاد الغربى ، فإن المحرك الأول للاقتصاد فى الإسلام هو الرغبة الصادقة فى نشر الرخاء بين الناس ، وفى ازدهار التقدم والحضارة فى العالم .

والاقتصاد الإسلامى إنسانى النزعة ، نبيل الهدف فى غاياته وجوهره ، يقود المجتمع إلى التكامل والخير والإيثار والمسئولية ، وتقرير الحقوق والالتزامات المتساوية بين الناس .. وتؤكد نظرية الإسلام فى الاقتصاد أن الرابطة بين المصلحة الفردية والجماعية وثيقة من حيث نظرتها ، فمن الواجب أن تسودها المعاونة والموافقة لا المصارعة والمزاحمة ، ففى رفاهية الفرد رفاهية الجماعة ، والعكس بالعكس وهذه الموازنة العادلة أساسها أن يتكون بين إيثار الأفراد وأثرتهم تناسب سليم متزن . ومن ثم جمع نظام الاقتصاد فى الإسلام شمل الأمة كلها فى نطاق نبيل من المحبة والإخاء والتعاون والعمل المثمر والحرية الفردية ، من أجل تقدم الإنسان وتجدد الحضارة .. بحسبنا أن لا نجد فى

مذاهب الاقتصاد العالمية أية فلسفة خاصة تفوق نظرة الإسلام إلى الأمور الإنسانية فلقد جاء بأحكام نبيلة تعترف بالملكية الخاصة وتهذبها بفرض الزكاة وتحريم الفائدة الثابتة ، وتضع قواعد العدالة الاقتصادية التى تكفل السلام بين الأفراد والطبقات والشعوب .

وإذا كانت النظرية الغربية تقول : « من كلٍّ وفقا لمقدرته إلى كلٍّ وفقا للعمل المنجز » ، وتقول النظرية الشرقية : « من كلٍّ وفقا لمقدرته إلى كلٍّ وفقا لحاجته » ، فإن عمر بن الخطاب يقول : « والله ما من أحد أحق بهذا المال من أحد ، وما أنا أحق به من أحد . والله ما من المسلمين من أحد إلا وله فى هذا المال نصيب ، ولكنا على منازلنا من كتاب الله تعالى ، وقسمنا من رسول الله ، فالرجل وبلاؤه فى الإسلام ، والرجل وقدمه فى الإسلام ، والرجل وغناؤه فى الإسلام ، والرجل وحاجته » . وهذا كلام واضح فى إثبات المساواة الاقتصادية ثم فى تحكيم الكفاية والمقدرة فى نصيب الفرد من هذه المساواة ، ثم فى الرجوع إلى مدى الحاجة البشرية المطلوب دفعها .

يقرر الإسلام منع الاحتكار وكنز الأموال ، والاستغلال بدون عمل ، ويقرر أن يتداول المجتمع الثروة ولا تكون دُولة بين الأغنياء ، ويجعل الدولة وبجوارها الجماعة مسئولين عن توفير أسباب المعيشة لجميع رعاياها .

ولقد كان الناس فى عصر الاستعمار يصفون تشريعات الإسلام بأنها تعوق المعاملات الاقتصادية ، ولا تسمح بتنظيم الشركات والمصارف ، ولم يمض جيل واحد حتى سمعنا أصحاب قوانين أخرى يصيحون بأن الرأسمالية نكبة على الإنسانية ، وعائق من عوائق الحرية الكريمة والعمل النافع ، ثم سمعنا المعسكر الغربى يصف مذاهب المعسكر الشرقى الاقتصادية بأسوأ من هذه النعوت وأشد .

وإذا نادى آدم سميث فى كتابه « ثروة الأمم » ، بأن الثروة مفهوم مادى خالص ، فإن سيسموندى (ـــ ١٨٤٢م) ينكر عليه ذلك . أما الإسلام فيضع الثروة فى خدمة الفرد والمجتمع والأمة ، وخدمة التقدم الإنسانى ، لنشر الرخاء ، وتوفير العمل وجعله حقا لكل أحد ، وكفالة الدولة لجميع مرافق الأمة لخدمة الرعية ، فى حرص شديد على العدالة والمساواة والتعاون ـــ والشعور بالمسئولية ومساعدة الدولة لكل محتاج بقدر ما يسد حاجته ، والإيثار وحب الغير والإحسان والصدقة وأداء الزكاة ، ومواساة الغنى

للفقير وتوقير الفقير للغنى ، وشعور كل منهما بالحاجة للآخر وبأخوته ، كل ذلك مما يحرك الاقتصاد الإسلامى نحو غاياته النبيلة .

وحين حرم الإسلام الفائدة ، وجاء النظام الاقتصادى الغربى الذى أرست دعائمه بيوت المال اليهودية تقررها ، فقد شاهدنا النازية ، وكذلك المادية الشيوعية أول الأمر ، تحرمان نظام الفائدة الربوية التى يجعلها كثير من الاقتصاديين السبب الجوهرى فى الاضطراب الاقتصادى الراهن ، وقد قامت بنوك الادخار على أساس المشاركة فى الربح التى هى الأساس الأول فى الاقتصاد الإسلامى فلقيت نجاحا كبيرا ، وسيقوم قريبا بنك إسلامى برأس مال تسهم فيه الدول الإسلامية تحقيقا للنظرية الاقتصادية فى الإسلام ، ونظام المشاركة لا الفائدة يكفل النهوض باقتصاديات العالم من أجل سد احتياجاته من الإنتاج والمشروعات وتحقيق العدالة الكاملة ، مع ارتباط ذلك كله بالجانب الروحى والإنسانى الذى يوليه الإسلام الكريم كل عنايته .

إن السند الإسلامى للنظام الاقتصادى يقوم على فريضة الزكاة وما يتصل بها من مصارف مالية موجهة فى الإسلام نحو الخير واالمصلحة العامة ، كالمصروفات وكفريضة الأرزاق التى كان الخليفة عمر بن الخطاب يطبقها تطبيقا تاما شاملا ، بالإضافة إلى ما فى الفقه الإسلامى من ثروة تشريعية فى جميع جوانب الاقتصاد ، وكأحكامه فى الشركات والمضاربة والإجارة والبيوع والرهن والوقف والمواريث والهبة والوصية وسواها ، وقد فرض الإسلام على كل مسلم أن يجعل له حقا معلوما فى ماله : ﴿ والذين فى أموالهم حق معلوم • للسائل والمحروم ﴾ (٢٤ و ٢٥ ـــ المعارج) .

ويطيب لبعض المتجاهلين أن يطعن فى شريعة الزكاة فى الإسلام ، هذه الشريعة المحتومة التى يجعلها أبو بكر فى مقدمة الأسباب التى حارب المرتدين من أجلها .. ويكفينا الرد على ذلك ما جاء فى كتاب « اتجاه الإسلام » لجب نقلا عن ماسينيون المستشرق الفرنسى المعروف : « يمتاز الإسلام بأنه يمثل فكـرة مساواة صحيحـة ، بمساهمة كل أفراد الشعب بالعشر فى موارد الجماعة (الزكاة) ومبادىء الإسلام تبذل التبادل الغير المقيد ، كما تنادى بالعداء للأموال المصرفية (الربا) والضرائب الغير المباشرة على ضرورات الحياة ، فى حين أنه شديد التمسك بحقوق الولد والزوج وبالملكية ورءوس الأموال التجارية ، فهو بذلك يقف موقفا وسطا بين البورجوازية والرأسمالية والشيوعية ، والإسلام كذلك كم قام بخدمات أخرى أداها للإنسانية ، وله ماض بديع من تعاون

الشعوب وتفاهمها ، وليس هناك مجتمع آخر مثل ما للإسلام من ماض كله نجاح فى جمع كلمة الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة فى الحقوق والواجبات .

إن الإسلام يقف بين المذاهب الاقتصادية الكبرى الراهنة رسالة سماوية هادية فيها الخير للبشرية كافة ، ولم يكن الحاج عبد الكريم جرمانوس المستشرق المجرى بأقل شعورا بمسئوليته حينما قال : تأثرت أعمق التأثر ببساطة الإسلام وعظمة سيطرته على نفوس معتنقيه . إنه لا يوجد فى تعاليم الإسلام كلمة واحدة ، أو عمل واحد من شأنه أن يعوق تقدم المسلم أو يمنع زيادة حظه من النور والمعرفة والقوة .

المجهول من تاريخ السيرة

فى المدينة وبعد الهجرة النبوية الشريفة ، نقف أمام حدث إنسانى رفيع ، هو مؤاخاة الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، هذه المؤاخاة الفريدة الفذة فى تاريخ الإنسانية ، مؤاخاة رسول الله ﷺ بين المسلمين الأولين فى مكة وهى المؤاخاة الأولى .

فقد آخى رسول الله — ﷺ — فى المدينة ، بعد الهجرة ، بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال لهم كما يروى ابن هشام فى سيرته :

تآخوا فى الله : أخوين أخوين .

أخذ بيد علىّ فقال : إن هذا أخى .

وكان حمزة عمه وزيد بن حارثة مولى رسول الله أخوين فى الله .

وكان جعفر بن أبى طالب — وهو آنذاك مقيم بالحبشة منذ هاجر إليها مع جماعات من أصحاب رسول الله فراراً من أذى قريش وطغيانها — ومعاذ بن جبل أخوين .

وكان أبو بكر وخارجة الخزرجى أخوين ..

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعتبان بن مالك الخزرجى أخوين فى الله .

وكان أبو عبيدة وسعد بن معاذ أخوين .

وكان عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع الخزرجى أخوين .

وكذلك كان الزبير وعبد الله بن مسعود أخوين .

وكان سعيد بن زيد وأُبىّ بن كعب أخوين .

وكذلك كان طلحة وكعب بن مالك أخوين ..

وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وعباد بن بشر صارا أخوين .

وكان عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان فى هذه المؤاخاة الإسلامية الفريدة أخوين

وأبو ذر والمنذر بن عمرو الخزرجى صارا أخوين .

وصار بلال وأبو رويحة الخثعمى أخوين .

وصار حاطب بن أبى بلتعة وعويم بن ساعدة أخوين .

* * *

وبذلك حدثت أعظم وأغرب مؤاخاة إنسانية فى التاريخ ، وكانت هذه المؤاخاة فى المدينة بين فقراء المهاجرين وبين الأنصار ، وعظمت يد الأنصار على المهاجرين ، حتى قالوا فيها : ما رأينا مثل أنصار المدينة ، لقد أحسنوا مواساتنا ، وبذلوا الكثير ، وأشركونا فى المهنة ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله .

هذه هى المؤاخاة الفريدة الجليلة التى حدثت فى الإسلام بعد الهجرة الشريفة على يدى رسول الله ﷺ ، ولا يذكر التاريخ كله مؤاخاة أخرى حدثت غير هذه المؤاخاة . ولا تذكر كتب السيرة النبوية أن رسول الله صلوات الله عليه قد أحدث مؤاخاة أخرى بين المسلمين ، غير هذه المؤاخاة فكتاب السيرة جميعا يذكرون تلك المؤاخاة ويحددون زمنها بأوائل قدوم رسول الله صلوات الله عليه إلى المدينة بعد الهجرة النبوية الشريفة .

ولكنى عثرت على نصوص أخرى من السيرة النبوية ومن كتب طبقات الصحابة والتابعين ، رضوان الله عليهم أجمعين ، تدل على أنه كانت هناك فى مكة قبل الهجرة مؤاخاة بين المسلمين سبقت تلك المؤاخاة التى حدثت بين الأنصار والمهاجرين .

يقول ابن الأثير فى كتابه المشهور « أسْد الغابة فى معرفة الصحابة » ما نصه :

« آخى رسول الله ﷺ بين الزبير بن العوام وبين عبد الله بن مسعود لما آخى بين المهاجرين بمكة ، فلما قدم الزبير المدينة وآخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار آخى بينه وبين سلامة بن وقش » — (راجع صفحة ٢٩٧ من الجزء الثانى من أسد الغابة طبعة طهران) .

وهذا النص صريح على أن رسول الله ﷺ آخى بين الصحابة بمكة قبل الهجرة النبوية ، فلما هاجر إلى المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار مؤاخاة ثانية شبيهة بتلك المؤاخاة الأولى التى حدثت فى مكة بين الصحابة فى الهجرة ، ممن هاجروا بعد هجرة رسول الله إلى المدينة ، ولذلك سمَّاهم « ابن الأثير » المهاجرين باعتبار أنهم هاجروا بعد ذلك ، بدليل قوله : « آخى بين المهاجرين بمكة » .

وقد سبق أن قلنا إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه آخى فى المدينة بين الزبير وعبدالله بن مسعود ، وهذا النص الذى نقلناه من ابن الأثير يشير إلى أن هذه المؤاخاة كانت فى مكة ، وأن الرسول (ﷺ) إنما آخى فى المدينة بين الزبير وسلامة بن وقش .

فلندع هذا النص إلى نص آخرمن ابن الأثير فى كتابه « أُسْد الغابة » ، يقول عمدة الحفّاظ عزالدين أبو الحسن علىّ بن محمد الجزرى المعروف بابن الأثير ما نصه :

« لما أسلم طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام آخى رسول الله بينهما بمكة قبل الهجرة ، فلما هاجر المسلمون إلى المدينة آخى رسول الله بين طلحة وبين أبى أيوب الأنصارى » — (صفحة ٣٩ من الجزء الثالث من كتاب أسد الغابة) .

وهذا النص صريح فى أنه حدثت مؤاخاة بين المسلمين الأولين بمكة قبل هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة .

ومن هذا النص نتبين ما يلى :

١ — كانت هناك مؤاخاة فى مكة بين طلحة والزبير — بينما النص السابق يشير إلى أن المؤاخاة فى مكة كانت بين الزبير وعبد الله بن مسعود .

٢ — وفى المدينة آخى رسول الله بعد الهجرة بين طلحة وأبى أيوب الأنصارى — وقد ذكرنا من قبل فى خبر المؤاخاة بعد الهجرة أن الرسول آخى فى المدينة بين طلحة وشاعر رسول الله كعب بن مالك .

ونحن لا يضيرنا اختلاف الروايات فى أسماء الصحابة الذين آخى بينهم رسول الله ﷺ فى مكة أو المدينة .

ولكن الذى تلفت إليه النظر هنا هو ما يشير إليه ابن الأثير من أنه كانت هناك فى مكة قبل الهجرة مؤاخاة بين المسلمين رضوان الله عليهم أجمعين .

ومن ذلك كله نتبين ما يلى :

١ — كانت هناك فى مكة قبل الهجرة مؤاخاة إسلامية أولى بين السابقين إلى الإسلام.

وهذه المؤاخاة كانت ضرورية لتقوية صفوف المسلمين ، ولزيادة تعاونهم فى مجالات الدعوة والعقيدة والحياة ، ولتثبيت قلوب المسلمين .

وهذه المؤاخاة هى أول مؤاخاة فى التاريخ العالمى كله بعامة ، وفى تاريخ الإسلام كله بخاصة ، وهى مؤاخاة لم تذكرها كتب السيرة النبوية ، ومن ثم كانت مجهولة لا يشير إليها أحد من مؤرخى السيرة على الإطلاق ، ولم يكشف عن فكرتها أحد قبلى ، ولم يكتب عنها شىء قبل هذا البحث .

٢ — وفى المدينة وبعد الهجرة حدثت مؤاخاة ثانية شارك الأنصار المهاجرين فيها أموالهم ودورهم ومتاجرهم وكل ما يملكون ، مؤاساة للذين قدموا عليهم من

المهاجرين من صحابة رسول الله ﷺ ، ممن فارقوا ديارهم وأموالهم ودورهم وتجاراتهم وأرضهم ومساكنهم . وهذه هى المؤاخاة المشهورة التى لم تتحدث كتب السيرة إلا عنها ولم تشر إلا إليها .

وجملة القول أن اضطهاد قريش للمسلمين فى مكة دعا رسول الله ﷺ إلى أن يقيم بين المسلمين فيها مؤاخاة كريمة نبيلة يتقاسم فيها المسلمون ما يملكون من مال ، حفظا للحياة ، وقياما بمؤونة الأهل ، وسدًّا لحاجات الأطفال والنساء ، ومعاونة على مواصلة الجهاد فى سبيل الله والعقيدة والقرآن .

وما أجلَّ ما صنع رسول الله ﷺ وما أكرم ما بذل المسلمون الأولون .

وما أنبل ما تحلّوا به من إيثار ومشاركة وبذل وعطاء ومؤاخاة ومواساة ومعاونة ، لإخوانهم ممن حاربهم المشركون فى رزقهم ومالهم وكسبهم ومعاشهم . .

رحمة الله ورضوانه على صحابة رسول الله السابقين إلى الإيمان ، ومن المهاجرين والأنصار الذين كانوا خير الإخوان ، وأكرم الخلّان ، وأعظم المواسين ، رضى الله عنهم أجمعين .

بنـاء الحضـارة

هذه الحضارة القائمة اليوم فى الغرب المتمثلة فى أضخم مظاهرها المادية ، من صواريخ وقنابل ذرية وهيدروجينية وفلكية ، ومركبات قمرية ، وغيرها لم يكن عجبا أن تقوم فى غير موطن الحضارات العالمية من قبل .

فإذا كانت الحضارة الغربية هى التى خلفت الحضارة الإسلامية وهى التى ورثتها ، فإن حضارة الإسلام إنما كانت منطقتها هى الشرق الأوسط ، بيئة الحضارات ، ومجتمع المدنيات العالمية القديمة . فلقد نشأ الإسلام فى بيئة متصلة بمراكز الحضارة البشرية اتصالا وثيقا : الرومية والفارسية والمصرية ، وفى بلاد الشرق الأوسط قامت كثير من الحضارات السبئية ، والآشورية والبابلية والفينيقية والفرعونية وغيرها ، وكانت كذلك على صلة كبيرة بالحضارة الهندية والصينية كما كانت على صلة بالحضارات الكسروية ، والقيصرية .

منطقة حية بمظاهر التطور الكبير الذى حققه التقاء الحضارات فيها ، وقد ازدهر الإسلام فى نفس المنطقة التى نشأت فيها أصول جميع الحضارات الكبرى ، وهى الشرق الأدنى ، الذى شاهد ثورة العصر الحجرى الحديث ، وعاين قيام أول حياة زراعية فى تاريخ الإنسان ، كما عاين تأسيس المدن ، وحكم الأسر الملكية الأولى وتصنيف الأدبيات . وإذا كانت المواليد الحضارية فى المنطقة قد انقطعت ، فإنها لم تفقد طاقتها الإبداعية التى ظهرت فى أحلى مظاهرها فى انبعاث الحضارة الإسلامية . والإسلام أجل رسالة حضارية هزت العالم هزا عنيفا ، وجاء بها نبى عربى من مكة المكرمة الموطن الأول لهذه العقيدة السماوية الجليلة ، ذات الطابع الحضارى الإنسانى ، ويتجنى كثير من الكتاب والمؤرخين الغربيين على الإسلام فيصفونه بكراهيته للمدنية عامة ، وبمناهضته للفنون ، وبقيامه فى بيئة ثقافية ضحلة ، ومن بين هؤلاء كروبر ...... ويرد على ذلك مؤرخ غربى آخر هو توينبى ــ الذى أنصف الإسلام فى كتاباته إلى حد ما[1] بأن العراق وقت ظهور الإسلام كان دعامة الإمبراطورية الساسانية سياسيا وثقافيا ، وأن سوريا ومصر كانتا كذلك العمود

---

(١) راجع حضارة الإسلام فى دراسة توينبى للتاريخ لفؤاد محمد شبل .

الفقرى للإمبراطورية البيزنطية ، وأن هذه البلدان الثلاثة سوريا ومصر والعراق ـــ تجلت طاقاتها الحضارية على يد الإسلام حينما أعاد توحيدها سياسيا لأول مرة منذ أن تفككت الإمبراطورية الفارسية قبل ذلك بألف سنة على وجه التقريب ، ففى ظلال الأمويين والعباسيين استعادت منطقة جنوب آسيا ومصر مركزيهما باعتبارهما قلب العالم الإسلامى النابض مثلما كانتا قبل الإسلام طوال ثلاثة آلاف سنة(١) .

ولم تفقد هذه المنطقة على أية حال قيمتها الحضارية لقيام الحضارة الغربية فى بيئة جديدة بعيدة عنها ، فإن بيئة الحضارة الغربية إنما كانت امتدادا لبيئة الحضارة الإسلامية من ناحية ، وكانت هذه الحضارة الغربية كذلك منبعثة بتأثير الحضارة الإسلامية وبفضلها من ناحية ثانية ، والإسلام وهو الذى منح الحضارة الإسلامية كل مقوماتها قد أعطى الحضارة الغربية قدرتها على القيام والانبعاث من ناحية ثالثة .

فلقد قام واستيقظ الفكر الأوربى من سباته الذى دام نحو عشرة قرون أو يزيد على صوت قدوم العلوم والآداب والفنون الإسلامية(٢) وكل موجة علم أو معرفة قدمت لأوروبا كان مصدرها البلدان الإسلامية ، وفى هذا ما يفسر للقارئ ما ذكرته له من أن بيئة الحضارة الغربية ، هى امتداد لبيئة الحضارة الإسلامية لا غير .

والعرب أو المسلمون على أدق تعبير كانوا هم أعظم بناة للحضارة فى التاريخ البشرى كافة ، ولولا جهودهم الحضارية الرفيعة ما قامت الحضارة الغربية ، وهم على أية حال لم ينضب معين إبداعهم الحضارى ، فإن منطقتهم لم ولن تخمد فيها روح الإبداع أبدا . إنها منطقة التاريخ والثقافة والفكر ، وهى المنطقة التى شهدت جميع أحداث التاريخ الكبرى ، وجميع مظاهر التحولات الفاصلة ، فى حياة العالم والتى لم ترقد حياتها الحضارية فى يوم من الأيام ، وهى التى سوف تشهد بإذن الله تحولا حضاريا جديدا لن يسكن صداه ولن يعرف أحد مداه ، فى مستقبل الأيام .

كان المسلمون هم الذين ابتدعوا طريقة البحث العلمى الحق القائم على التجربة(٣)

---

(١) راجع ص ٣٨ المرجع السابق .

(٢) ٤٥١ شمس العرب تسطع على الغرب ـــ للمستشرقة الألمانية هونكة .

(٣) المرجع السابق ٤٠١

وكانت واقعيتهم العملية هى التى تدفعهم دفعا ثابتا إلى القيام بتجارب واختيارات شخصية عديدة ، فكانوا يرون إجراء مئات التجارب والتحقيقات للهدف العلمى الذى يعملون له ، دون أن يسعوا إلى مكسب مادى(١) .

وكان نقلهم للأرقام الهندية(٢) عام ١٥٤ هـ ـــ ٧٧٣ م فى عهد المنصور العباسى وعلى يد إبراهيم الفزارى من أهم مظاهر التحولات الفكرية العالمية ، كما كانت ترجمتهم للثقافات الفارسية واليونانية والهندية من أجل مآثرهم على الحياة البشرية والحضارية العالمية .

ولم يأخذ العرب المسلمون العلوم التى دونوها عن طريق الاقتباس ، وكذلك لم يأخذوا الآلات العلمية ومواد العلم الغريب من الأمم القديمة دون مناقشة أو تحقيق ، فلقد أدهشوا العالم بالحرية الموضوعية ، والشجاعة العلمية ، اللتين استقبلوا بهما نتائج السالفين وأقوالهم ليشبعوها بحثا ونقدا وتفنيدا وتحقيقا للأخطاء ودحضها ، وعملا دائبا فى الحقل الجديد لم يدخل الوجل إلى قلوبهم اسم كبير فيرهبهم ، ولعل أبلغ برهان على هذه الصفة ما كانوا يؤمنون به من رفض لكل الآراء المنقولة عن السالفين باسم العلم ما لم تثبت لهم أنفسهم صحتها عن طريق التجارب العلمية الصحيحة . وقد ألفوا كتبا كثيرة فى نقد آراء أرسطو وفى نقد آراء بطليموس ، ويحسبنا ما ذكره الجاحظ أبو عثمان من نقد لكتاب ـــ الحيوان ـــ لأرسطو ، وذلك فى الكتاب العظيم الذى ألفه عمرو بن بحر بعنوان « الحيوان » .

وقد امتازت المؤلفات العربية على ألوانها المختلفة العديدة بروحها العلمى الأصيل ، الذى عبر عن موهبة منهجية نظامية رائعة ، وعبقرية خلاقة ، وكانت تجاهد دائما من أجل توضيح ما استغلق ، أو تفسير ما غمض ، وتمعن فى الوصف الدقيق لكل العوارض وأشكالها وتطورها(٣) .

---

(١) ١٤٣ و ١٤٤ نفس المرجع .

(٢) كان ابتكار الهند لها نحو عام ٣٠٠ ق.م ، ماعدا الصفر ، فقد أضافوه إليها عام ٤٠٠ م ، وعرفت الأرقام الهندية خارج الهند عام ٦٣٢ م أى عام وفاة الرسول .

(٣) ٢٨٥ و ٢٨٦ شمس العرب تسطع على الغرب لهونكة .

كل شيء واضح ، الحقائق واضحة قريبة للأفهام ، لمن شاء أن يثبتها أو يعارضها بالتجربة ، والخبرة والمشاهدة ، والجميع يعتزون بالمسئولية العلمية ، ويقدرونها حق قدرها ، ويعترفون مع ذلك بعجائب الطبيعة ماداموا يجدون تفسيرا لذلك ، وهم يستبعدون من العجائب ما لا يتفق مع العقل ، ويحلون محلها التفسيرات القائمة على المسببات والنتائج والتجارب ، فكل ما كتبوه كان ثمرة بحوثهم الخاصة .

وكانت الثقافة العربية الإسلامية هي الثقافة الوحيدة التي استظل العالم بظلها نحو عشرة قرون كاملة ، ومن أعلامها الجاحظ ٢٥٥ هـ ، وثابت بن قرة ـــ ٢٢١ ـــ ٢٨٨ هـ ، والبناني ٣١٧ هـ ، ومحمد بن إبراهيم الفزاري ـــ ٨٠٠ م ، وأبوه إبراهيم ٧٩٦ م ، وحنين ابن إسحاق ٨١٠ ـــ ٨٧٣ م ، وإسحاق بن حنين ٢٩٦ هـ ـــ ٩١١م ، وعباس بن فرناس ـــ ٨١١ م ، وابن يونس ١٠٠٩ م ، وابن الهيثم ٩٦٥ ـــ ١٠٣٩ م ، والبوزجاني ٩٤٠ ـــ ٩٩٨ م .ومن مثل الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد ونصير الدين الطوسي ١٢٠١ ـــ ١٢٧٤ م وابن البيطار وابن زهر وابن باجة وابن طفيل وسواهم . وكانت الثقافة العربية تستحوذ على اهتمام كل إنسان في الشرق والغرب على حد سواء ، حتى لقد صاح بترارك الشاعر الإيطالي في القرن الرابع عشر الميلادي متألما قائلا : لقد قدر علينا ألا نؤلف بعد العرب . وصاح كذلك بطريرك قرطبة في مطلع القرن السادس عشر الميلادي : وا أسفاه إن كل الشبان المسيحيين الذين يريدون إظهار نفوسهم لا يعرفون إلا لغة العرب وآدابهم .. حتى لقد كان قهر الإسبان العسكري للعرب غير منتقص من إعجابهم الفكري بهم قيد شعرة .

واليوم عندما نجد الثراء عند الناس يقاس بمدى ما يملكون من سيارات فارهة مثلا ، نجد أن المسلمين في عهد حضارتهم كان الثراء عندهم يقاس بمدى ما يقتنون من كتب أو مخطوطات ..

ففي عام ٨٩١ م كان في بغداد وحدها مائة دار كتب عامة .

ولا ننسى مكتبة العزيز الفاطمي وكانت تحتوي على أكثر من مليون ونصف من المجلدات المخطوطة ، وكان في مكتبة الوزير المهلبي ١١٧ ألف مجلد ، وفي مكتبة الصاحب ابن عباد ٢٠٦ ألف مجلد مخطوط ، وكانت ميزانية مكتبة المدرسة النظامية في بغداد المخصصة لشراء الكتب تبلغ مليونا ونصفا من الفرنكات الذهبية ، وكان قيام بيت الحكمة في بغداد عام ٨٣٠ م حدثا من أهم الأحداث الثقافية العالمية الحضارية آنذاك .

وكان سكان إسبانيا فى عهد قمة الحضارة الإسلامية فى ربوعها عام ٩٥٠ م يقدرون بثلاثين مليونا من الأنفس . وإلى غير ذلك من مظاهر النهضة الثقافية التى كان عليها المجتمع الإسلامى الذى قام على أصول رفيعة من الثقافة والمعرفة والبحث والعلم .

ولقد انتقل العلم الإسلامى من مراكز الحضارة والثقافة العربية فى إسبانيا وصقلية وجنوبى إيطاليا ، ومن الشرق العربى نفسه إلى أوروبا ، فأحدث ذلك هزة جديدة فى مجتمعات الغرب ، مما جعلها تستعد لحمل مواريث الثقافة والعلوم العربية ، وتستعد كذلك لإنشاء حضارة جديدة فى بلادها ، وكان معنى ذلك أن أوروبا استعارت الحضارة الإسلامية والثقافية العربية استعارة تامة لتكسو نفسها بحلل شرقية زاهية لم تكن من صنع يديها بحال من الأحوال .

وكان هناك طائفة من المثقفين الغربيين تعلموا فى جامعات العرب فى إسبانيا وفى غيرها تأثروا بطابع الثقافة العربية وبالمنهج العلمى الإسلامى تأثرا كاملا ، وكان فى مقدمة هؤلاء الإمبراطور الصقلى النورماندى فريدريك الثانى الذى كان حلقة الاتصال ، وفى بلاطه فى صقلية التقى الفكر الغربى بالفكر العربى ، وقد توفى فردريك الثانى عام ١٢٥٠ م — ٦٤٨ هـ . وكان فردريك يسلك فى البحث العلمى كل مناهج العلماء المسلمين ، وكانت دولته تقوم على جهود العلماء والباحثين المسلمين فى شتى محاولات العلوم والحياة ، وكان هو نفسه عالما تلقى علوم الإسلام ودرسها وأحاط بها وكان يقول : نحن نتبع أرسطو حيث يجب أن نتبعه ، ولكن فى حالات كثيرة وكما علمتنا الخبرة يبدو وقد بعد عن الحقيقة ، إن اليقين لا يصل إليه الإنسان بالسماع فحسب .

وهذا هو روح منهج العلماء المسلمين أنفسهم اقتبسه فردريك الثانى منهم .. ويقول فردريك الثانى أيضا :

واجب عالم الطبيعة لا يقتصر على جمع المعلومات على السالفين ، بل هو تعليل أسباب الظواهر الطبيعية . وذلك الكلام يمثل روح العلماء المسلمين أيضا تمام التمثيل .

لقد عبرت الثقافة الإسلامية البحر الأبيض المتوسط إلى أوروبا ، فكان لذلك بدء نهضتها وحضارتها ، فالغرب مدين للإسلام وعلومه وعلمائه بأفدح الديون ، والعرب هم الممدّنون الحقيقيون له ، وكانت علوم العرب وكتبهم فى الطب والهندسة ، والتشريح والفلك والنجوم والصيدله والكيمياء وسواها تدرس فى جامعات الغرب دون أن يستطيعوا مجاراتها ، أو تأليف مثيل لها .

إن المسلمين حقا هم بناة الحضارة فى تاريخ الإنسانية الطويل ، وهم الذين رفعوا على كاهلهم بناء الحضارة الإسلامية ، وهم كذلك السبب الجوهرى فى قيام الحضارة الغربية .

- هم الذين قام سبعون عالما جغرافيا منهم برسم خريطة الأرض فى عهد المأمون العباسى، وقام عالم جغرافى مشهور منهم وهو الإدريسى برسم الخريطة الأرضية ، وقدمها إلى روجر الثانى النرماندى الصقلى .

إن العقل العربى الإسلامى لم يقف ولم يجمد أبدا ، إنه فى عطاء دائم وبذل متجدد ، إنه هو الذى منح الحضارة الإنسانية طاقتها وإبداعها الدائم .

وهو الذى سوف يتحرك لينهض من جديد ويبنى لأمته الإسلامية وللعالم الإسلامى كله حضارة إسلامية جديدة رفيعة مؤثرة فى حياة العرب والمسلمين قاطبة بفضل الله .

نؤمن بالإسلام لا بالمادية

الحضارة بين المادية والروحية :

للشيوعية رأيها فى أسس الحياة والوجود والحضارة الذى يتجمع فى فلسفة مادية عجيبة لا تؤمن بالمثل ولا الروحيات والمعنويات .

فهى ترى أن المادة والطبيعة والوجود حقائق موضوعية خارج نطاق الفكر مستقلة عنه ، والمادة أولا ثم يتلوها العقل .. ومن ثم فالحياة المادية للمجتمع ، والوجود المادى له لهما السيادة على الحياة الروحية التى هى عندهم انعكاس الوجود . ويعلق زعيم من زعماء الشيوعية على ذلك بقوله : إن على حزب طبقة العمال ألا يقيم أعماله على مبادئ العقل البشرى المجردة ولكن يقيمها على الأحوال المقررة للحياة المادية للمجتمع باعتبارها القوى الفاصلة للارتقاء الاجتماعى [١] . ويقول إنجلز : إن العالم المادى الذى ندركه بحواسنا والذى نحن جزء منه هو الحقيقة الوحيدة . وليست المادة من إنتاج العقل بل إن العقل ما هو إلا أسمى إنتاج للمادة[٢] .

وهى تذهب إلى أن العالم بطبيعته مادىّ وأن الظواهر المتضاعفة للعالم تشتمل على أشكال مختلفة من المادة فى تحرك وارتباط الظواهر واعتماد بعضها على بعض هو قانون ارتقاء المادة ، وليس من حاجة إلى الروح الشاملة[٣] فهى تؤمن بنظرية النشوء والارتقاء التى قال بها دارون ، ومن ثم تصر على إنكار وجود الله[٤] . ويرى كارل ماركس أن امتداد هذا إلى دراسة الحياة الاجتماعية وتطبيقها على المجتمع يؤتينا نتائج على جانب عظيم من الأهمية ، لأنه يفسر تطور المجتمع ويرجع حوادثه إلى أسباب مادية بحيث لا يترك شيئا منها للمصادفة أو الإرادة الإلهية أو للأسباب العليا الخارجة عن الطبيعة[٥] .

---

(١) الدستور السوفييتى لفؤاد محمد شبل .
(٢) ٣٣ نقد النظرية الماركسية لأحمد جمال الدين طبعة ١٩٤٨
(٣) ٣٠ الدستور السوفييتى .
(٤) ٥٣ الشيوعية فى الميزان .
(٥) ٣٦ و ٣٧ نقد النظرية الماركسية .

وكتب لينين إلى مكسيم جوركى الأديب الروسى المشهور رسالة يقول فيها : « هلاك ثلاثة أرباع العالم ليس بشيء ، وإنما الشيء الهام أن يصبح الربع الباقى منهم شيوعيين » .

وعند « هيجل » أن الفرد ليس حقيقة كالمجتمع وإنما هو « تعبير خاص » عن المجتمع . وفى رأى هيجل أن المجتمع وحده هو الموجود حقا ، وأن الأفراد ليسوا سوى تجريدات أو مختصرات من الكل الاجتماعى المعين .

إن التفسير المادى للتاريخ ليس هو التفسير الوحيد ، فقد تكون عوامل التاريخ اقتصادية وقد تكون شيئا آخر غير الاقتصاد . فالعامل الاقتصادى هو أحد العوامل الفعالة فى التاريخ ولكنه ليس هو العامل الوحيد . وقد اعترف إنجلز صاحب كارل ماركس وزميله فى رسالة كتبها إلى بلوخ فى سنة ١٨٩٠ ، أى قبل وفاته بخمس سنوات ، بأنه هو وماركس قد بالغا فى تقدير أهمية الأسباب الاقتصادية . وأكد مضمون هذه الرسالة لصاحبه ستار كنبرج فقال : « ماركس وأنا مسئولان جزئيا عن حقيقة أنه فى بعض الأوقات قد أعطى أتباعنا أهمية للعامل الاقتصادى أكثر ما يستحق ، ولقد اضطررنا إلى تأكيد صفته المركزية فى معارضتنا لخصومنا الذين كانوا ينكرونه ، ولم يكن هناك وقت ولا مكان ولا فرصة لإنصاف العوامل الأخرى فى الحركة التاريخية .

ويقول أحد الشيوعيين فى تقديمه لكتاب لينين : « الإلحاد جزء طبيعى من الماركسية لا ينفصل عنها » .

وفى برنامج المؤتمر السادس للدول الشيوعية الذى عقد فى سنة ١٩٢٨ ما يأتى :

« الحرب ضد الدين — أفيون الشعوب — تشغل مكانا هاما بين أعمال الثورة الثقافية ، ويلزم أن تستمر هذه الحرب بإصرار وبطريقة منظمة . وحكومة العمال تعترف بحرية الضمير ولكنها فى الوقت نفسه تستعمل كل الوسائل التى تملكها للقيام بدعاية ضد الدين وتنظم التربية على أساس التصور المادى للدنيا » .

ويقول لينين عن « الاشتراكية والدين » : « الدين يعلم هؤلاء الذين يكدحون طوال حياتهم فى الفقر الاستسلام والصبر فى هذه الدنيا ويغريهم بالأمل فى المثوبة بالعالم الآخر » .

ويصور لينين موقف حزب العمال من الدين فيقول : « قال ماركس إن الدين هو أفيون الفقراء ، وهذا حجر الزاوية فى الفلسفة الماركسية جميعها من ناحية الدين . وتعد الماركسية الديانات الحديثة جميعها ، والكنائس وكل أنواع المنظمات الدينية ، آلة لرد الفعل البورجوازى الذى يستهدف الاستغلال ضد مصالح الطبقة العاملة » .

وفى كتاب أرسله لينين إلى الكاتب الروسى ماكسيم جوركى يقول فيه : « إن البحث عن الله لا فائدة منه ومن العبث البحث عن شىء لم يخبأ ، وبدون أن تزرع لا تستطيع أن تحصد ، وليس لك إله لأنك لم تخلقه بعد والآلهة لا يبحث عنها وإنما تخلق » .

ولقد ورد بكتاب « حرية الدين فى الاتحاد السوفييتى » ما نصه :

« فى زمن الثورة الأولى فى روسيا كتب لينين : يجب ألا تشغل الدولة بالدين ويجب ألا تكون للجمعيات الدينية أية صلات بسلطة الدولة .. إن كل فرد حر تماما فى اعتناق أى دين يرتضيه أو فى عدم الإيمان بأى دين على الإطلاق ، ولا يمكن التسامح بشأن أى تمييز بين المواطنين فى حقوقهم على أساس معتقداتهم الدينية ، ويجب أن تحذف أية إشارة إلى معتقدات المواطنين فى جميع الوثائق الرسمية بلا قيد أو شرط ، ويجب ألا تقدم أية منحة حكومية للكنيسة والجمعيات الدينية التى يجب أن تصبح هيئات حرة كلية ومستقلة تماما عن الدولة » .

وورد فيه باب بعنوان : تشريعات الدولة السوفييتية بشأن الدين جاء فيه :

قضت ثورة أكتوبر الاشتراكية الكبرى على العلاقات القديمة بين الكنيسة والدولة ، فأصدرت الحكومة السوفييتيةفى ٢٣ يناير سنة ١٩١٨ مرسوما سوى مسألة حرية الدين وموقف الدولة السوفييتية تجاه الدين والجمعيات الدينية ، وقد أعلن هذا المرسوم التاريخى ما يلى :

١ ــ الكنيسة منفصلة عن الدولة .

٢ ــ محظور إصدار أية قوانين محلية أو لوائح فى أرض الجمهورية يكون من شأنها عرقلة أو تقييد حرية الضمير أو إيجاد أية امتيازات أو ميزات على أساس معتقدات المواطنين الدينية .

٣ ــ كل مواطن له أن يعتنق أى دين أو لا يعتنق أى دين على الإطلاق .

٤ ــ لن تجرى أية مراسم أو احتفالات دينية فى أى عمل من أعمال الدولة ، أو فى أى احتفال رسمى عام أو اجتماعى .

٥ ــ حرية القيام بالطقوس الدينية مكفولة إلى الحد الذى لا يؤدى إلى اضطراب النظام العام ، إذا كانت غير مصحوبة بالتعدى على حقوق المواطنين فى الجمهورية السوفييتية،وللسلطات المحلية الحق فى اتخاذ جميع التدابير اللازمة فى هذه الأغراض لضمان المحافظة على النظام العام والأمن .

٦ ــ لا يستخدم أحد معتقداته الدينية كعذر للتنصل من واجباته المدنية .

٧ ــ يلغى كل قسم أو عهد دينى ، وفى الأحوال الضرورية يكتفى فقط بالوعد الصادق .

٨ ــ تقوم السلطات المدنية ــ وحدها بجميع أعمال التسجيل المدنى عن طرق مكاتب تسجيل الزواج والميلاد .

٩ ــ المدرسة مفصولة عن الكنيسة والتعليم الدينى محظور فى جميع المدارس العامة والخاصة ــ ويتعلم المواطنون الدين على انفراد .

هذه هى الشيوعية ترجع كل شىء حتى الدين والأخلاق والفكر والفلسفة والثقافة والقانون والسياسة إلى انعكاسات للأحوال الاقتصادية والمصالح الطبقية ، وتمتد جذورها إلى الظروف المادية للحياة[١].وتاريخ ارتقاء المجتمع هو عندهم قبل كل شىء تاريخ ارتقاء الإنتاج[٢] وتهتم بتفسير الأحداث التاريخية تفسيرا ماديا[٣] ينكر الدين[٤] .

وفلسفة الشيوعية إلحادية بطبيعتها ، معادية لكل ما يمت بصلة إلى الدِّين ، وكان ماركس زعيمها الروحى وشيخ الماديين لا يؤمن بالمثل ولا يدين إلا بالمحسوسات ويقول : لا إلـه ، والحياة مادة [٥] ، ويقول : رسالة الطبقة العاملة هى القضاء على الدين وعلى الداعين إليه[٦] ، ويقول « هيز » : إن الأشياء المادية وحدها هى المحسوسة لنا وأنا لا أستطيع أن أعلم شيئا عن وجود الله ، إن وجودى الخاص هو وحده الأمر المؤكد أما ما عداه فخيال لا أصدقه[٧] . ويقول إنجلز[٨] : لا محل مطلقا لوجود خالق . ويقول زعيم لهم : إن الحزب الشيوعى لا يمكن أن يكون محايداً تجاه الدين ، إن الحزب يقف إلى جانب العلم والدين ينافيه[٩] ، ويصرون على أن الدين هو مخدر الشعوب[١٠] .

وللمذهب المادى دعاة فى القديم والحديث ، يناقضه المذهب المثالى والإرادى والحيوى ، ومن أنصاره هيجل وديكارت وشوبنهور ونيتشة وبرجسون وسواهم . وينقده كثير من الباحثين .

---

(١) ٦٧ إنجلز . (٢) ٧٩ المذاهب السياسية المعاصرة لعلى أدهم ، و ١٧ إنجلز .

(٣) ٣٢ الدستور السوفييتى . (٤) ٥٦ الشيوعية فى الميزان .

(٥) ٥٢ المرجع . (٦) ٥٣ المرجع . (٧) راجع ١٤٢ الدستور السوفييتى .

(٨) ، (٩) ، (١٠) المرجع .

وهو على أى حال ينكر العواطف البشرية والمثل العليا والقيم الأخلاقية والجوانب الإنسانية والمعنويات الكريمة من فنون وآداب وديانات وسواها مما هو دعامة الحضارة والذين يعترفون بها من الشيوعيين يمسخونها ويردونها إلى عوامل مادية .

إن هذا المذهب المادى الذى ينتهى إلى إنكار الله ومحاربة الدين يناقض أسس الإسلام ومبادئه أبعد مناقضة ، وينكره الإسلام ويحاربه .. والذين يؤمنون بمثل هذه المبادئ الهدامة هم فى رأى الإسلام مرتدون يحاربون ويقاتلون حتى يفيئوا إلى دين الله ، لأنهم يعملون على مسخ الفطرة الإنسانية ومحاربة فكرة التقدم والحضارة ويهدمون الأسس التى بنتها البشرية على مر الأجيال منارا رفيعا للفكر والمدنية .

وفلاسفة الفكر الحديث يصرون على الاعتراف بالله والإيمان بالدين يقول شوبنهور :

إن فكرة الإله الذى ليس له نهاية ، وقدسية الروح والعلاقة بين الله وعباده كلها أفكار صيغت فى الضمير البشرى الخفى الذى ليس له نهاية ، وهى تلك الأفكار التى لا يمكن لى ولا للحياة بغيرها البقاء . ويقول رينان : من الممكن أن يضمحل كل شيء نحبه إلا التدين فسيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى . وكان تولستوى المبشر الروحى بالشيوعية مؤمنا بالدين ، وكان يقول : إن الدين وحده هو الذى يجعل الحياة ممكنة ، ويقول : إننى لا أعيش إذا فقدت العقيدة فى وجود الله ، ولولا أنى كنت أتعلق بأمل غامض فى وجود الله لقتلت نفسى من زمن بعيد . عش باحثا عن الله وإذن فلن تعيش بدونه ، وإذن يقوى اعتقادك فى الكمال الخلقى وفى التقاليد التى تحمل معنى الحياة . إن البشر لا يزالون فى فجر عصر العلم، وكلما ازداد ضياء العلم سطوعاً جلا لنا شيئا فشيئا صفة خالق مبدع ، وإن التواضع والإيمان القائم على العلم يدنوان بنا رويدا رويدا إلى معرفة الله[1] . ويؤكد علماء الذرة والفلك والحياة والرياضة وجود الله ؛ لأن لديهم أدلة كثيرة تثبت وجود كائن أعظم ينظم هذا الوجود ويرعاه بعنايته ورحمته وعلمه الذى لا حدَّ له[2] .

والإسلام يدعو إلى الدين والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والثقة بالمثل العليا والاعتزاز بالفضائل الإنسانية وبالقيم الروحية .. وأساس الحياة عنده هى الروح ، والمادة

---

(١) راجع المختار عدد فبراير سنة ١٩٤٧ من مقالة لرئيس أكاديمية العلوم فى نيو يورك عن كتاب : الإنسان ليس وحيدا .

(٢) راجع المصرى عدد ٢٣ /١٩٥١/٨

تبع لها ، والروح هى التى ناجت الله فى الأزل وعاهدته على الإيمان بالدين كما يقرره القرآن الكريم[1] ، ثم خلقت المادة وحلّت الروح فى الجسم وبدأت الحياة تنمو وبعد هذه الحياة الدنيا يفنى الجسم وتنطلق الأرواح وتبقى مخلدة حتى يأذن الله لها بالبعث وإحياء الأجسام من جديد ..

فالإسلام لا ينكر المادة إطلاقا وإنما يثبتها ويجعلها مسخرة لخدمة الروح .

وكل هذه الأفكار الإسلامية تهدم الأساس الأول الذى بنيت عليه الشيوعية . وجميع الحضارات القديمة والحديثة على السواء لم تقم على أسس مادية محضة إنما كان للعوامل الروحية أثرها البعيد فى قيامها ونموها ، والإسلام يدعو إلى بناء الحياة على الروح : ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾[2] ، ويدعو إلى التحرر من أسر المادة والعيش فى رحاب التأمل والحرية والملأ الأعلى الفسيح ، ليتم وجود الإنسان وكماله وحريته فى الحياة ، وذلك كله هو الأساس الأول للحضارة فى رأى الإسلام .

المادية حرب على الأديان :

المادية آخر المذاهب الحديثة وأشدها حربا لفكرة التدين فى الإنسان ولفطرة العقيدة التى فطر الله البشر عليها . وقد شن دعاتها فى الغرب الحرب على الأديان وأقاموا حكومات تؤيد مذهبهم الإلحادى وتحمل الناس عليه بقوة القانون وتطارد دعاة الأديان والمؤمنين بها أينما كانوا .

والمادية فى جملتها تذهب إلى أن المادة فى كافة صورها هى المؤثرة فى كل شىء وإلى أنها فى الوجود أسبق وأن لها ـــ لا للمعنويات ـ القدح المعلى فى مصائر الشعوب والإنسانية .

وكان للمادية دعاتها فى القديم وممن آمن بها الفلاسفة « طبيرقليطس » وليوسيس ، وديمقريطس ، وممن دعا إليها فى الحديث : بيكون ، وهيز . وقد ذهب الأخير إلى أن المادة والحركة هما وحدهما الحقيقتان المطلقتان وأن المعرفة الإنسانية تتأتى عن طريق الإحساس ، وقد أيده فى ذلك تولاند الذى رأى أن المادة هى القوة والحركة والحياة ، والعقل بعض خواصها وأن التفكير هو وظيفة العقل . وكذلك نهج بريستلى وهارتلى ودارون وبلامترى وسواهم مَن استغنوا عن الروح واطرحوها وفسروا الحياة تفسيرا ميكانيكيا ماديا محضا . وألّف بختر كتابه « القوة المادية » الذى ظل حينا دعامة قوية من دعائم المذهب

---

(١) راجع آية ١٧٦ الأعراف .   (٢) راج آية ٧٧ القصص .

المادى[1] وأعظم الماديين هو كارل ماركس اليهودى المادى المتطرف ، وقد ورث الروح المادى عن أستاذه أنجلز الذى كان يقول إن العالم المادى الذى ندركه بحواسنا والذى نحن جزء منه هو الحقيقة الوحيدة وليس الإدراك والتفكير إلا نتاجا لعضو من أعضاء جسمنا وهو المخ ، فليست المادة من إنتاج العقل ، بل إن العقل نفسه ما هو إلا أسمى إنتاج للمادة . وتفسير ماركس للمادة هو الأساس الأول الذى بنى عليه الشيوعيون مذهبهم . فنجد لينين وستالين يقرران أن المادة والطبيعة والوجود حقائق موضوعية خارج نطاق عقلنا ومستقلة عنه والمادة تأتى فى الصدارة ويتلوها العقل ومن ثم فالحياة المادية للمجتمع والوجود المادى له لهما السيادة على الحياة الروحية التى هى انعكاس للمادة . كما يقرران أن العالم بطبيعته مادى وأن الظواهر المتضاعفة للعالم تشتمل على أشكال مختلفة من المادة فى تحرك ، وأن ارتباط الظواهر واعتماد بعضها على بعض هو قانون ارتقاء المادة وليس من حاجة إلى الروح الشاملة[2] . وكذلك تؤمن الشيوعية الحديثة بنظرية النشوء والارتقاء التى قال بها دارون ومن ثم تصر على إنكار وجود الله ، وكان إنجلز يرجع كل شىء حتى الدّين والأخلاق والفكر والثقافة إلى انعكاسات للأحوال الاقتصادية والمصالح الطبقية[3] ، ويفسر هو وتلاميذه الأحداث التاريخية تفسيرا ماديا وهذا التفسير الاقتصادى للتاريخ ينكر الدين . وكارل ماركس شيخ الماديين لا يؤمن بالمثل ولا يدين إلا بالمحسوسات ويؤثر عنه قوله : « لا إله ، والحياة مادة » وقوله : « رسالة الطبقة العاملة هى القضاء على الدين والداعين إليه » ، وكان « هيز » يقول : « إن الأشياء المادية وحدها هى المحسوسة بالنسبة لنا ، فأنا لا أستطيع أن أعلم شيئا عن وجود الله ووجودى الخاص هو وحده الأمر المؤكد أما ما عداه فخيال لا أصدقه » ، وكان إنجلز يقول : « لا محل مطلقا لوجود خالق »[4] .

كل هذا قطرة من بحر من آراء الماديين فى إنكار الروحيات وجحد وجود الله ونبذ فكرة الدين وحربهم الخطرة على الأديان .

---

(١) راج ص ٢٦ وما بعدها من كتاب نقد النظرية الماركسية لأحمد جمال الدين طبعة ١٩٤٨

(٢) راجع ٨٣ المذاهب السياسية المعاصرة ، ١٤٢ الدستور السوفييتى ، ٥٣ الشيوعية فى الميزان .

(٣) راجع ٣٠ و ٣١ الدستور السوفييتى — طبع النهضة ١٩٤٩

(٤) ١٧ الاشتراكية العلمية والاشتراكية الخيالية لفردريك أنجلز .

ولا شك أن هذا المذهب الإلحادى على ضلال مبين وهو لا يحارب بآرائه الإسلام وحده وإنما يشرك معه جميع الأديان ، والذين يؤمنون بهذا الإلحاد هم فى رأى الإسلام مرتدون يقاتَلون حتى يفيئوا إلى دين الله وإلى الحق .

إن الدين عنصر من العناصر التى لا تتم الحياة بدونها ، وهو رسالة الله إلى الإنسانية حملها الأنبياء والمرسلون ، وأدّوها إلى الناس لخيرهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة . والفلاسفة والمفكرون الذين لهم خطرهم فى الحياة الفكرية فى العالم القديم والحديث كانوا من خير الدعاة إلى فكرة الدين والإيمان بالله ورسله ، وكان تولستوى يقول : « إن الدين وحده هو الذى يجعل الحياة ممكنة » ، ويقول : « إننى لا أعيش إذا فقدت العقيدة فى وجود الله ، ولولا أننى كنت أتعلق بأمل غامض فى وجود الله لقتلت نفسى من زمان بعيد . عش باحثا عن الله وإذن فلن تعيش بدونه ، وعندما اعتقدت فى وجود الله اعتقدت فى الكمال الخلقى وفى التقاليد التى تحمل معنى الحياة » .

ويقول شوبنهور : « إن فكرة الإلـٰه الذى ليس له نهاية وقدسية الروح والعلاقة بين الله وعباده كلها أفكار صيغت فى الضمير البشرى الخفى الذى ليس له نهاية وهى نفس الأفكار التى لا يمكن لى ولا للحياة البقاء بغيرها » . ويقول رينان : « من الممكن أن يتلاشى كل شىء تحبه إلا التدين فسيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى » . ويثبت كريسى موريسون الرئيس السابق لأكاديمية العلوم فى نيو يورك فى كتابه « الإنسان ليس وحيدا » وجود الله بأدلة علمية لا تقبل الجدل ، وينتهى إلى أن الله فى كل مكان وكل شىء ولكنه أدنى ما يكون إلى قلوبنا ، وأن قول صاحب المزامير : « السمٰوات تتحدث بمجد الله والفَلك يخبر بعمل يديه » هو قول صحيح من ناحية العلم والتخيل جميعا . وأكّد عدد كبير من علماء الذّرة والفلك وعلم الحياة والرياضة أن لديهم أدلة كثيرة تثبت وجود كائن أعظم ينظم هذا الوجود ويرعاه بعنايته ورحمته وعلمه الذى لا حدَّ له . ويقول الدكتور راين : إنه ثبت من أبحاثه فى المعامل أن فى الجسم البشرى روحا أو جسما آخر غير منظور ، وقال عالم آخر : إنه لا يشك فى أن الكائن الأعظم وهو ما تسميه الأديان السماوية « الله » هو الذى يسيطر على الطاقة الذرية وغيرها من الظواهر والقوانين الخارقة فى هذا الوجود .

وإذا ثبت وجود الله ثبتت الرسالة وفكرة الدين ، وثبت أن محمدا والرُسل قبله صادقون فيما يحدثون به عن الله من عقائد وشرائع وأديان ، وأن علينا واجب الإيمان بها وبخاتمة

هذه الرسالات وهى دين الإسلام ، وبالكتاب الخالد « القرآن » معجزة هذه الرسالة ..

وصدق الله العظيم فى قوله : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أوَلَم يكفِ بربك أنه على كل شىء شهيد ﴾ .

إن الشيوعية تتنكر للدين تنكرا شديدا .. وأعمال دعاتها وزعمائها فى بلادهم شاهد صدق على ما تقول .. ففى روسيا تجد أن الثورة الشيوعية فيها قد بدأت بحملة قاسية على رجال الدين فقتل عدد كبير منهم وحرم عليهم الظهور فى المجتمعات العامة ، وأغلقت بيوت العبادة وصودرت أوقافها وحرَّم الشيوعيون تدريس الدين وألغوا القَسَم به ، وألفوا الجمعيات للدعاية اللادينية ، وأصدروا مجلة أسبوعية اسمها « بلادين » ، وفى عام ١٩٢٥ عقد مؤتمر موسكو لوضع الخطة الخاصة بالقضاء على النزعة الدينية وبث روح الإلحاد فى المدارس والجيش ، وأخذ « اتحاد الإلحاد » فى النشاط حتى بلغ عدد فروعه فى عام ١٩٣٥ سبعين ألفا تضم الملايين ، وفى عام ١٩٢٩ صدر قانون يحظر الدعاية الدينية ويعتبرها عملا غير مشروع وبذلك عطلت مادة الدستور التى تنص على أن الدعاية الدينية مكفولة كالدعاية اللادينية .. وفى مايو ١٩٣٢ صدر قانون يهدف إلى القضاء على الهيئات الدينية خلال خمسة أعوام جاء فيه : فى أول مايو ١٩٣٧ لن يبقى فى كافة البلاد أى مكان للعبادة ، ويجب القضاء على فكرة الإله بحسبانها من بقايا القرون الوسطى(١) ، ونصت قوانين عام ١٩٣٩ على حظر الاجتماعات الدينية الخاصة بعدم السماح للهيئات الدينية الاحتفاظ بأى نوع من الكتب إلا ما يلزم فى المراسم الدينية ، وحظر بناء أمكنة جديدة لممارسة الشعائر الدينية . إذا كانت روسيا قد أطلقت الحريات الدينية خلال الحرب فإنما كان ذلك ذرًا للرماد ودفعا للشعب إلى تحمل مرارة الكفاح وكسبا لعطف شعوب العالم لتساعد روسيا فى محنتها . ولا يعنى هذا إيمان الشيوعيين بالدين فالطبقة الحاكمة هناك لن تقبل فى صفوفها إنسانا يؤمن بدين من الأديان ، ومنزلة الدين فى روسيا خلال الحرب وبعدها لا تصل إلى عشر ما كانت عليه قبل الثورة الشيوعية(٢) ، والتعليم فيها ينشر الإلحاد ، والجماعات كلها تنفر من الدين ، وتأثير رجال الدين على الشباب قليل وهم يخضعون لتوجهات الدولة خضوعا مطلقا .

---

(١) ١٤٢ الدستور السوفييتى .

(٢) راجع كتاب روسيا السوفييتية لمؤلفه دالن .

وللشيوعية موقف خاص من الإسلام يمثله قول مولتوف : لن تنتشر الشيوعية فى الشرق إلا إذا أبعدنا أهله عن تلك الحجارة التى يعبدونها فى الحجاز وفلسطين .

ولقد عادى زعماؤها فكرة الجامعة الإسلامية لقوميات المسلمين هناك ، ولم يأت عام ١٩٣٣ حتى أرغمتهم الحكومة على اتخاذ الحروف اللاتينية بدل العربية ، وبذلك قطعت صلة هذه القوميات بالعالم الإسلامى ، وفى عام ١٩٣٨ أمرتهم باتخاذ الحروف الروسية . مع أن روسيا أباحت للأرمن والجيرجيين ـــ وهم أقل من المسلمين فى بلادها ـــ الاحتفاظ بحروفهم الهجائية الخاصة ولم ترغمهم على اتخاذ الحروف اللاتينية أو الروسية(١) .

وبهذا أصبح المورد الثقافى للمسلمين هو اللغة الروسية وآدابها وثقافاتهاعوضا عن اللغة العربية والثقافة الإسلامية .

وهناك قيد آخر على الحرية الثقافية للمسلمين ، إذ لا تجيز الشيوعية أن تكون لأية قومية أو أقلية عنصرية فى بلادها ومن بينهم المسلمون ـــ علاقة روحية أو ثقافية بقومية أخرى تماثلها فى العقيدة أو الثقافة خارج نطاق بلادها(٢) وبهذا حيل بينهم وبين الاتصال روحيا وثقافيا بالعالم الإسلامى الحر .

وقد اضطهدت الشيوعية المسلمين فى تركستان وبخارى وسمرقند وطشقند وفرغانة وخوارزم ونفت الكثير منهم إلى مجاهل سيبيريا .

وظهر شعورها حيال المسلمين فى تأييدها المطلق للصهيونية باعترافها بإسرائيل بعد وجودها مباشرة .

إن الحرية الدينية فى ظلال الشيوعية لا وجود لها ، وهذا هو ما يأباه الإسلام وتنكره مبادئه السمحة .

ويقول « أرنولد » فى كتابه الدعوة إلى الإسلام :

يمكننا أن نحكم بالروابط الودية التى قامت بين المسلمين والمسيحيين بأن القوة لم تكن عاملا حاسما فى تحويل الناس إلى الإسلام . فمحمد نفسه قد عقد حلفا مع بعض القبائل المسيحية وأخذ على عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية فى إقامة شعائرهم الدينية ، كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم القوى فى أمن وطمأنينة(٢)ويقول فيه : لما تتبع الجيش الإسلامى وادى الأردن وعسكر أبو عبيدة فى فحل ، كتب الأهالى المسيحيون فى

---

(١) ١٨٩ الدستور السوفييتى .

(٢) راجع ١٧٧من « شبهات حول الإسلام » للأستاذ محمد قطب .

هذه البلاد إلى العرب يقولون : يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا .

السلام الاجتماعى بين الإسلام والمادية :

وفكرة السلام الاجتماعى مبسوطة فى القرآن الكريم بسطا واسعا ، وقد دعا إليها الإسلام وسواه وتناول أطرافا منها التشريع الإسلامى وحرص على تطبيقها الخلفاء والولاة المسلمون ، ، ويمثل بعض مظاهرها قول الرسول : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) ، والقول المأثور : عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به .

وليست فكرة السلام الاجتماعى أمرا مندوبا يدعو إليه الإسلام ، ولكنها فرض واجب وعمل حتم ، وهى جزء من العقيدة الإسلامية وأساسها أن المجتمع مهما كبر أسرة واحدة ، وأن على كل إنسان فيه أن يؤدى الواجب عليه للآخرين بنفس الشعور الذى يشعر به نحو أسرته ، وأن يعمل على نشر الأمن والسلام والمحبة والتعاون بين الناس ، وأن يشعر روحه تلك المعانى ويعتقد أنه لا يتم إيمانه بدونها ، وأن عليه أن يضحى من أجل غيره ويؤمن بالإيثار ويبذل المال والروح فى سبيل أخيه الإنسان ، ولذلك حرم الإسلام الرذائل الاجتماعية ونهى عن الاعتداء على أموال الناس وأعراضهم : (كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه) ، وأوجب الزكاة وحث على الصدقة والإحسان وتفريج المهموم ومساعدة المحتاج .. وأوجب العدل بين الناس وحارب الأهواء والشهوات والمحسوبية ، وحتم التكافل الاجتماعى بين الناس وجعل أساس العلاقة بين الإنسان والإنسان وبين الجماعة والجماعة السلام ، وأوعد المخالفين أشد الوعيد .

أما الشيوعية فتؤمن بمبدأ اجتماعى عجيب هو « صراع الطبقات »[1] يقول ماركس وإنجلز : إن تاريخ كافة الجماعات الحاضرة هو تاريخ الصراع بين الطبقات .. ويقول ماركس زعيم الشيوعية الروحى : لن تستطيع الطبقة العاملة التحرك ولا النهوض بنفسها ما لم تنسف جميع طبقات المجتمع المتراكمة فوقها ، ويقول : إن صراع الطبقات يقود بالضرورة إلى ديكتاتورية الطبقة العاملة . ويدعو ماركس إلى الثورة والانقلاب الشامل كضرورة للإصلاح .. ويؤثَر عن لينين : من غير نظرية ثورية لن تكون حركة ثورية .. ويقول ستالين من رسالته فى المادية الجدلية : تحرير الطبقة العاملة لا يمكن تحقيقه إلا بالثورة فقط .

---

(١) ٧٧ الدستور السوفييتى .

هذه النظرية نقدها علماء الاجتماع نقدا عادلا[1]وهى لا شك تبذر بذور الحقد والبغض والكراهية بين الناس وتعمل على نشر الثورات والحروب وتقضى على التعاون والسلام فى المجتمع ، مما ظهر أثره فى الثورة الشيوعية فى روسيا واضحا ملموسا .

وهى نظرية لا يقرها عقل أو دين ، ويحاربها الإسلام حربا شعواء لأنها تفسد الأمن والسلام وتقضى على الإخاء الإنسانى ، وتجعل بعض الناس أعداء لبعض ، وتولد البغضاء والشقاق فى المجتمع .

وفى عصر الجاهلية الأولى لم تدع جماعة أو أمة إلى « صراع الطبقات » ويسير الإصلاح العام فى الدول المتحضرة بالوسائل السلمية دون سواها ، ولقد أوجب الإسلام أن يعيش الفقراء والأغنياء بجوار بعض إخوة متحابين متعاونين فى الحياة ، وكذلك سائر الطبقات : (مَثَل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر) .

السلام العالمى فى الإسلام والمادية :

السلام العالمى دعوة إلى التعاون بين الأمم والشعوب وحل مشكلاتها بالوسائل السلمية وتحريم الحروب التى تقوم للاستعمار والاستغلال بل تحريمها لغرض نشر الدين : ﴿ لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازعنك فى الأمر وادع إلى ربك ﴾[2]والإسلام بنظمه وروحه وأهدافه يعمل على نشر هذا السلام ويدعو إليه ويجعله هدفا من أهداف الإنسان : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾[3] ، ويؤيد هذا المبدأ بأن الناس يجمعهم أصل واحد ، وأن التعارف والتآلف والتعاون يجب أن يسودهم : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ﴾[4] ، ولذلك ألغى الإسلام العصبيات وفوارق الألوان والأجناس داعيا إلى الوحدة الإنسانية وإلى أن يعيشوا كما بدأوا أمة واحدة : ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ﴾[5] ، ﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ﴾[6] ، ولم يشرع الإسلام الحرب إلا للدفاع عن النفس أو العقيدة .

إن السلام فى رأى الإسلام ضرورى للإنسانية ، وتلك قضية لا ريب فيها ، فالسلام هو أنشودة البشر وأصل الإنسانية لأنه ضرورى لتقدمها .

---

(١) ٧٤ — ٨٢ نقد النظرية الماركسية . (٢) ٦٧ الحج . (٣) الأنفال .
(٤) الحجرات . (٥) ١٩ يونس . (٦) ١٤ الشورى .

هو الذى يساعد على الإنتاج وعلى رفاهية الناس وتقدم التجارة والصناعة والزراعة ، وعلى نشر العلوم والفنون والآداب ، وعلى سير الحضارة والمدنية والرقى .

أما الحرب فتهدم ولا تبنى ، وهى وسيلة للتدمير والتخريب تبعث على الذعر والخوف والاضطرابات ، وتدع الملايين من بنى البشر فى شقاء وظلام ، وتحط من مستوى التفكير والعمل والنشاط بما تنشره من فزع وأحزان ، وتوقف سير المدنية وتعوق تقدم بنى الإنسان .

وأنت ترى المفكرين ينادون بتحريم الحروب وتوطيد دعائم السلام بنزع السلاح وتحريم شن الحروب ، وبالعمل على توثيق الروابط الفكرية والاقتصادية بين أمم العالم ، وعلى إيجاد أخوة عالمية ورسالة إنسانية بل بإيجاد حكومة عالمية .

السلام هو المدنية والحضارة ، والحرب هى الدمار والخراب ، والسلام هو أهم عامل يساعد الإنسان فى الحياة فى التقدم ، والحرب أفظع ما شهده الإنسان وخاصة فى العصر الحديث الذى كشف القنبلة الذرية والصاروخية وسواها من وسائل الإفناء .

ولقد دعا الإسلام إلى السلام وحث عليه ، وأوجب السلام فى المجتمع كما أوجبه بين الأمم والشعوب ، وحمل المسلمون رسالة السلام إلى الأمم والشعوب وبشروا بها الإنسانية داعين إلى الرحمة والمحبة والتعاون والخير العام .

وفكرة السلام جزء من العقيدة الإسلامية ، وأساسها أن المجتمع مهما كبر أسرة واحدة والناس إخوة فى الله والإنسانية ، على كل فرد أن يعمل على نشر الأمن والسلام والمحبة والتعاون بين الناس وأن يؤمن بالإيثار وبالبذل وبالتكافل وبالتعاون الإنسانى .

والإسلام يدعو إلى السلام العالمى وإلى أن تقوم العلاقات بين الأمم والشعوب على التعاون والإخاء والتعارف ، وألغى العصبيات وفارق الألوان والأجناس .

فالدين الإسلامى فى جوهره شريعة السلام والوئام ودين الحرية الشخصية والأمن الاجتماعى والإخاء البشرى ، وهو من أجل ذلك يحارب الفوضى والاضطراب والشقاء ، ويحارب الطغيان والإرهاب وكل ما يحول دون تمتع الفرد بحريته والمجتمع بأمنه والبشرية بالسلام والإخاء المنشودين .

والدين الإسلامى فى اشتراكيته العادلة ومبادئه السمحة الواضحة ، وفى عمله على النهوض بالمجتمعات والشعوب فى ظلال التعاون والمحبة ، وفى رعايته لمصلحة الفقير والغنى

جميعا ، وفى وضعه للمبادئ العامة التى تكفل للإنسانية الأمن والتقدم والرقى هو فى ذلك كله يعزز مبادئ السلام ويعمل على خلق جو جديد ترفرف فيه أجنحة السلام والإخاء والحرية والحضارة والنور والعلم والعرفان .

أما الشيوعية فتؤمن بالحرب وتدعو إليها وتقضى على السلم العالمى بإنشائها وتشجيعها للشيوعية الدولية « الكومنترن » التى تحدد أهدافها فى نشر الشيوعية فى العالم وتحويل العمال فيه إلى شيوعيين ، وإثارة الاضطرابات والقلاقل السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى الدول تمهيدا لثورة الطبقة العاملة وسيادة الشيوعية . وإذا كانت هذه الشيوعية الدولية قد ألغيت عام ١٩٤٣ تقربا للغرب والديمقراطيات ، فقد حل محلها مكتب الاستعلام الشيوعى « الكومنيفورم » . وموسكو وإن تظاهرت بحل الدولية الشيوعية لا تزال توجه الحركات الشيوعية فى جميع أنحاء العالم[١] ، ولا يترك ستالين فى كتابه « مشاكل اللينينية » أثرا للشك فى اعتقاده الذى لا يتزعزع فى أن من حق روسيا بل من واجبها المقدس أن تستخدم القوة فى إشعال نار الثورة فى البلاد الأجنبية إذا ما لاحت الفرصة لإشعالها . وجاء فى مقدمة الكتاب أن دراسة تاريخ الحرب لتقوى الاعتقاد فى النصر النهائى للهدف الجليل الذى عمل له لينين وستالين ، وهو انتصار الشيوعية فى العالم كله[٢] .

وهذه الأفكار كلها تهدم صرح السلام العالمى وتناقض ما يؤمن به الإسلام ويدعو إليه . والإسلام يحرم أن توجد علاقات دولية قائمة على غير المحبة والتعاون الإنسانى ، ويحارب بذر الشقاق بين الأمم ، ويعادى اللصوصية المستترة والجاسوسية المتخفية ، والتمرد على النظام العام فى الجماعات والشعوب .

فأين هذا السمو الإلٰهى الإسلامى فى الفلسفات القديمة والحديثة على السواء ؟ لقد كان أرسطو يرى أن غير اليونانيين أعداء خارجون على القانون وإخضاعهم واجب سياسى ، فأين هذا من سماحة الإسلام وجلال مبادئه وأهدافه ؟

السر فى قيام الإسلام :

إن السر فى قيام الشيوعية وظهورها هو هذا الخداع الغريب الماكر الذى تتراءى فيه للفقراء والمحرومين والطبقات المظلومة فى مظهر المنقذ المختار لنشر الغنى والسعادة بين

---

(١) ٦٤٢ آثرت الحرية لكرافتشنكو .

(٢) ٦٤٧ المرجع .

الناس ، وما تؤمن به الشيوعية من صراع الطبقات وعملها فى بيئة كانت المرتع الخصيب لها وللظروف الدولية التى تحيط بالعالم عقب الحرب الكبرى ، وطغيان زعماء الشيوعية طغيانا لم يعرف له نظير ، مما ظهر فى المجازر البشرية القاسية وعدد الضحايا الهائل فى روسيا وسجون الاعتقال والتشريد والنفى فى مجاهل سيبيريا ، والبطش بخصومها فى الرأى والتنكيل بمعارضيها فى الفكرة والقضاء على الطبقات المعارضة لها فى بلادها ، وأخيرا بهذه الشيوعية الدولية التى يؤيدها الذهب والدعارة والنفوذ .

وهذه كلها وسائل لا يؤمن بها دين ولا يقبلها ضمير ولا يوافق عليها عقل ، وما أضل عقول الجماهير الجاهلة التى تفهم أن الشيوعية تدعو لنفسها لأنها حلم الساعة .

أما الإسلام فعلى العكس من ذلك وأمره فى قيامه وفى ذيوعه فى العالم على العكس من ذلك .

لم يكن الإسلام ثورة ولم يدع إليها ولم يبن خططه على حرب العصابات وصراع الطبقات ، ولم يخدع محمد المحرومين ، ولم يدع إلى مبادئ تافهة يعجز عن تنفيذها ، ولم يؤيده ذهب ولا فضة ولا نفوذ أو سلطان ولا جاسوسية أو لصوصية ، إنما كان الإسلام رسالة إلٰهية للإصلاح ، وهى رسالة الحرية والإخاء والمساواة والعدالة الدينية والعلم إلى العالم كافة والبشرية بجميع طبقاتها ، ولم يكن السر فى قيامه وانتشاره إلا لما حواه من مبادئ الحق والقوة والخير والجمال[1] .

لقد جمع الإسلام إليه الأمة العربية من أدناها إلى أقصاها فى أقل من ثلاثين سنة وتناول من بقية الأمم بين المحيط العربى وجدار الصين فى أقل من قرن واحد ، وكان قيامه فى الجزيرة العربية أثرا للدعوة إليه واقتناع العرب به إذ لم يفرض عليهم بقوة السلاح ولا بتأييد من عصبية أو سلطان .

ولم تكن حروب محمد وخلفائه إلا دفاعا عن حرية العقيدة التى كان الشرك يريد القضاء عليها وعلى نور الله الذى انشق من الصحراء على يدى محمد ، وكانت مبادئ الإسلام نفسها وروح العدالة المطلقة والإخاء والمساواة التى سادت المسلمين الأولين بإيحاء قوى من دينهم هى السبب الأكبر فى انتشاره ؛ لقد دعا الإسلام نفسه لنفسه ولم يؤمن محمد بشىء إلا بالله وبرسالته : ﴿ وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم ﴾[2]، ﴿ ويحق الله الحق بكلماته ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾[3].

---

(١) راجع كتاب « السر فى انتشار الإسلام » لمحمد عرفة ــ ط ١٩٣١ ، وراجع ٢١٧ رسالة التوحيد لمحمد عبده ــ ١٣٦١ هـ .

(٢) ٦٧ الحج .

(٣) ٣٢ التوبة .

ولقد كان المسلمون بدأوا حياتهم الحافلة بعد أن انبثق نور الإسلام وبزغ على العرب فجر جديد فى كفاح ونضال وجهاد مستمر . حاربوا طغيان الأفراد والجماعات والشعوب فظفروا ظفرا مؤزرا : ﴿ أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ ، واكتسحوا الدول والأقطار ناشرين لهداية الله مؤيدين بروحه وأمنه حتى انتشر الإسلام فى كل مكان وعم ضوءه الآفاق .

وكان هذا النصر العظيم معجزة كبرى بهرت الناس وحيرت المفكرين ، لأنه نصر خارق شمل جميع الميادين : الحربية والسياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والفكرية : ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز * الذين إن مكّناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ فشملت الدولة الإسلامية أكثر أمم العالم المعروف آنذاك ، وكانت العواصم الإسلامية هى محور السياسة العامة ومحط أنظار الناس ، والنظم الاقتصادية التى شرعها الإسلام كانت هى النظم السائدة بين جميع هذه الشعوب ، والثقافة الإسلامية كانت هى المنهل العذب الذى ترنو إليه العقول والعيون ويستمد منه الناس ثقافتهم وعلومهم وفنونهم وآدابهم ، والنظام الاجتماعى الذى وضعه الإسلام وكفل به التضامن الاجتماعى بين الأفراد والجماعات والطبقات وجعل الغنى والفقير والكبير والصغير والأمير والعامل إخوة متحابين فى الله .. هذا النظام الرائع هو الذى كانت تحلم بأن تحيا فى ظلاله إمبراطوريات كسرى وقيصر وشارلمان ، والذى ارتمت فى أحضانه كثير من البلاد والأمم . وكذلك مناهج التفكير العامة وألوان الحضارة المشرقة عند المسلمين كانتا هما السائدتين فى البلاد الخاضعة لنفوذ الإسلام ، فوق أنهما من الآمال العزيزة التى كان يحلم بها وبالعيش فى ظلالها الملوك والأمراء والعلماء والعامة فى جميع الأقطار .

هذا التقدم العظيم والروح الوثاب والنهضة الجبارة كان منشؤها الدين نفسه ، وشريعة الإسلام بما اشتملت عليه من آداب ونظم وأخلاق ومثل وعادات ونواميس وأهداف ، فمبادئ الإسلام هى السبب الأول فى نشره وارتماء الأمم فى أحضانه .

لقد حارب الإسلام الضعف بجميع صوره وألوانه :

حاربه فى الفرد فدعا إلى أن يكون المسلم قويا عزيزا كريما كما يقول الرسول الكريم (المؤمن القوى خير وأحب عند الله من المؤمن الضعيف) ويقول : (اليد العليا خير من اليد السفلى) أى المعطى خير من السائل . ودعا إلى العمل والجهاد فى سبيل العيش : ﴿ وهو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ﴾ وقدس حرمة

الأموال والأعراض : (كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله) .

وحاربه فى المجتمع ليقضى على الرذائل والشرور وعاقب عليها عقابا صارما ، وأمر بشتى الفضائل الاجتماعية التى تكسب المجتمع قوة وأمنا وطهرا وخيرا ، وشرع قاعدة اجتماعية مثلى تصور لك آداب الإسلام وأصول دعوته وتبين لك إلى أى مدى كان التضامن الاجتماعى يسود الطبقات والجماعات فى ظلال الإسلام . وهى كما يقول الرسول الكريم : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) وكما جاء فى الأثر : (عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به) . وهذا نظام اجتماعى أساسه حب مصلحة الغير والمحافظة على حقوق الناس وتعود الإيثار والبر والخير والرحمة والتعاون ومقت الأثرة ، وبهذا وثق الصلات بين الأغنياء والفقراء ، كما قضى على العصابات ونشر الإنصاف والعدالة والحق والمساواة بين الناس جميعا ، ودعا الرأى العام الذى ربى على أصول دعوة الإسلام إلى أن يكون قويا جريئا لا يخشى فى الله لومة لائم ، بل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقف فى وجه الظلم والطغيان .

وحارب الضعف فى الأمة ، فجعل راعيها هو القوام على حقوقها والأمين على مصالحها والذائد الحامى الذمار عن أحسابها وشرفها وكرامتها والحاكم العادل الذى ينشر الأمن ويبعث الرحمة ويسوى بين الناس ويعطى كل ذى حق حقه .

ودعا الناس مع دعوته إلى تكوين الأخوة الإسلامية القوية .. إلى أخوة إنسانية عاملة شاملة لا فرق بين الأمم والعناصر والعقائد والمذاهب ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ﴾ .

وهذا كله هو السبب فى مجد المسلمين الأولين وحياتهم ، إذ آمنوا بهذه المبادئ ونهجوا على طريقها فى حياتهم وآدابهم وسلوكهم ، وهو السبب فى انتشار الإسلام بسرعة خارقة للعادة فى جميع الأقطار والأمصار .

إن أكثر المذاهب القديمة والحديثة قامت على الدماء والأشلاء ، وكل النظم التى سادت وتسود اليوم العالم قد ذهب ضحيتها ملايين البشر .. أما الإسلام وأمره فى قيامه وفى ذيوعه فى العالم كله فعلى العكس من ذلك . يقول هانوتو :

« لما بعث الشرق من مرقده عاش فى الإسلام وانتصر بالإسلام ، ولا يزال يحيا اليوم وغدا فى الإسلام » .

وأضيف إلى ذلك أن الإسلام إنما قام على السلام والحرية : حرية الدين وحرية التملك والكسب وحرية الطمأنينة على النفس والمال .

وهو ليس ثورة طبقة على طبقة ، وصراع جماعة لهدم أخرى .. ولم يكن قيامه وانتشاره إلا لما حواه من مبادئ القوة والحق والخير والجمال .

إن الإسلام رسالة إلٰهية لا مبدأ اخترعه بشر ، وهو رسالة الحرية والإخاء والمساواة والعدالة والإصلاح والمدنية إلى العالم كافة ، والبشرية بجميع طبقاتها .

لقد كانت مبادئ الإسلام نفسها وروح العدالة المطلقة والمساواة والإخاء التى سادت المسلمين الأولين بإيحاء قوى من دينهم هى السبب الأكبر فى انتشار الإسلام بين الأمم .. وكانت حرية الأديان محرمة إلا فى بلاد الإسلام . إن سرعة انتشار الإسلام وإقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة إنما كان لسهولة تعقله ويسر أحكامه وعدالة شريعته ، وبالجملة لأن فطر البشر تطلب دينا وترتاد منه ما هو أمس بمصالحها وأقرب إلى قلوبها ومشاعرها[1] .

ولا داعى للإفاضة فى هذه الحقيقة التاريخية فإنها معلومة مشهورة ، ولكنى أقصد من ذلك الرد على مفتريات المبشرين ودعاتهم الذين يظللون عقول الجماهير ويقولون : إن الإسلام قام بالسيف ، وأن الجنود المحاربين هم الذين حملوه إلى جهات الدنيا ، وهذا افتراء على الحقائق ما بعده من افتراء ، فدعوة الإسلام هى التى كانت تدعو إلى نفسها وبنفسها ، والإسلام معناه السلام وهو حامى الحريات ومحرر الشعوب والجماعات ، والتاريخ الإسلامى شاهد صدق على أن مبادئه هى السر الأكبر فى انتشاره ، وإن كان المسلمون حملوا السيف ليدافعوا به عن أنفسهم وليحموا العقيدة من عدوان المشركين والوثنيين . ولم تهاجم الجيوش الإسلامية إمبراطوريتى الروم والفرس إلا للقضاء على المناورات العسكرية الخفية التى كانت تريد أن تمهد للإطباق على الجزيرة العربية ووأد الدين الجديد فيها .

إن كثيرا من المذاهب الحديثة والقديمة على السواء قامت على الثورة والحرب والكفاح وصراع الطبقات ، ولكن الإسلام لم يكن فى حاجة إلى شىء من هذا ، والمسلمون كانوا دعاة خير وعدل وإنصاف ورحمة وبر وتعاون . ولا شك فى أنه لا سبيل إلى التوفيق بين

---

(١) رسالة التوحيد ص ٢١٧ ــ محمد عبده ــ طبع المنار ١٣٦٠ هـ بمصر .

مؤمن بحرية الفكر والعقيدة وكافر بها لا يؤمن مثله بمبادئ الخير والتكاتف والسلام ، بل يحنق عليها ويبغضها .

وإذا أردنا أن نوازن بين الإسلام والمذهب الشيوعى — مثل فى قيامهما وشأنهما ، هالنا الفرق بين دين شعاره الإخاء والوحدة والأمان ومذهب يصطنع العداء بين الناس ويعتمد على التفاوت بين الطبقات ليثير الحقد والبغضاء فى نفوس بنى البشر ، وليقول لهذا أنت غنى ولذاك أنت فقير ، والغنى شر والفقر موت ، وليدفع الفقير إلى أن يقاتل بالسيف أخاه الغنى ليستحوذ على ماله وثروته . يدلك على ذلك التاريخ ، فقد بدأت الشيوعية فى روسيا لأول مرة عام ١٨٨٣ حين شكل بليخانوف الجماعات الماركسية ، ومنها جماعة تحرير العمل التى تعتنق آراء ماركس وإنجلز الداعية إلى أن تسير الطبقة العاملة إلى أهدافها بالقوة والثورة ، وقد سبق ذلك صدور قانون تحرير رقيق الأرض عام ١٨٦١ فى عهد القيصر إسكندر الثانى بتأثير كتابات المفكرين ودعوتهم إلى الإصلاح من أمثال تولستوى وجوركى ويوشكين .

وفى عام ١٨٩٨ نشأ حزب العمال الاشتراكى الديمقراطى فى روسيا داعيا إلى تعاليم ماركس ، وفى ١٩٠١ قام الحزب الاشتراكى الثورى ، وفى عام ١٩٠٣ أنشأ لينين الحزب الشيوعى البولشفى . ومن ذلك الحين ظهرت البولشفية مدرسة فكرية وحزبا سياسيا ينادى باستخدام القوة والعنف لخدمة أغراضه .. وخلال الحرب العالمية الأولى — وكانت روسيا تقاسى أهوال الحرب وويلاتها — أخذت الشيوعية تستخدم السخط العام لإثارة حرب الطبقات ، فقامت فى أوائل مارس ١٩١٧ ثورات وحروب أهلية مدمرة بين الطبقات ، وفى منتصف مارس قبض الشيوعيون على القيصر نقولا الثانى ، وفى اليوم الثانى أعلنوا الجمهورية وأخذوا بعد ذلك فى ذبح الأغنياء واستصفاء أراضى كبار ملاك الأرض وتسليم المصانع والمناجم إلى العمال . وقامت الديكتاتورية الشيوعية الطاغية فى روسيا وأخذوا يسلبون الملاك محاصيلهم ومتاجرهم ومصانعهم باسم الثورة حتى المنازل فى المدن ، ونفذوا مشاريعهم الاقتصادية بقوة السلاح والإرهاب ، وعاملوا طبقة الفلاحين الأثرياء « الكولاك » بدون شفقة أو رحمة كما يقول المؤرخون الروسيون[1] ، فحكموا عليهم بالموت أو بالتشريد فى سيبيريا وغيرها ، وقامت المذابح الهائلة باسم الإصلاح فى كل مكان مما نبعت عن فكرة آمن بها

(١) ٢٤ و ٢٥ الدستور السوفييتى لفؤاد محمد شبل — طبع القاهرة .

الشيوعيون إيمانا عميقا .. فكرة صراع الطبقات واستخدام القوة المسلحة للقضاء على خصومهم فى الرأى . ويصور هذه الفكرة زعماء الشيوعية الروحيون والسياسيون ويقول ماركس وإنجلز : إن تاريخ كافـة الجماعـات الحاضرة هو تاريخ الصراع بين الطبقات .[1] ويقول ماركس : صراع الطبقات يقود بالضرورة إلى ديكتاتورية الطبقة العاملة التى هى وسيلة لإلغاء جميع الطبقات .[2] وهذه النظرية يحاربها الإسلام حربا شعواء لأنها تفسد الأمن والسلام وتقضى على الإخاء الإنسانى وتجعل بعض الناس أعداء بعض وتدعو إلى نهب بعضهم بعضا وتولد الشحناء والحقد فى المجتمع ، والنصوص على ذلك كثيرة من القرآن الكريم وكلام الرسول ، بل إن صراع الطبقات لم تؤمن به أية جماعة فى عصور الجاهلية الأولى ولا يدعو إليه اليوم إصلاح ، فهذا هو الإصلاح العام فى الديمقراطية يسير بتلك الأمم إلى المساواة والعدالة الاجتماعية دون وجود صراع طبقى ، على أن مصالح الجماعات الإنسانية لا تعارض بينها على الحقيقة وإنما بينها التعاون والانسجام ، والإسلام يوجب أن يعيش الفقراء والأغنياء بعضهم بجوار بعض إخوة متحابين ، وقد دعا إلى التعاون التام بين الطبقات .

ولقد أعلن المؤتمر الشيوعى الأول الذى عقد فى موسكو فى ٧ مارس ١٩١٩ تأليف الدولة الشيوعية الثالثة « الكومنترن » لنشر الشيوعية فى العالم وتحويل العمال فيه إلى شيوعيين ، وإثارة الاضطرابات وإيجاد القلاقل فى المحيط السياسى والاجتماعى والاقتصادى فى الدول تمهيدا لثورة الطبقة العاملة ، وسيادة الشيوعية بين الشعوب . وقد ألغت روسيا الدولية الشيوعية فى ٢٢ مايو ١٩٤٣ تقربا إلى الحلفاء ، ولكن الدولية الشيوعية الثالثة استعادت نشاطها الآن وهذا ما يبدو بعد إنشاء مكتب الاستعلامات الشيوعى « الكرمينفورم » فى أكتوبر ١٩٤٧ ، وآثار ذلك واضحة فى إثارة الطبقات فى الشرق والغرب .

وكتاب « مشاكل اللينينية » ظل المرشد الأعلى فى شئون المبادئ والأفكار الشيوعية ، ولا يترك هذا الكتاب أثرا للشك فى اعتقاد مؤلفه فى أن من حق الكتلة العاملة المظفرة — الكتلة الشرقية — بل من واجبها المقدس أن تستخدم القوة فى إشعال نار الثورة فى البلاد الأجنبية إذا ما لاحت الفرصة لإشعالها ، وأن تستخدم القوة

---

(١) ٣٧ المرجع السابق .

(٢) ص ٤٦ المرجع نفسه ، وصفحة ٧١ نقد النظرية الماركسية لأحمد جمال الدين طبع القاهرة ١٩٤٨

العسكرية إذا لزم الأمر ضد الطبقات المستقلة والدول التى تناصرها .

وحكم العقل والأديان عامة — والإسلام خاصة — على مبادئ ونظرية صراع الطبقات واستخدام القوة الثورية لإرهاب الشعوب لا يخفى على إنسان .

إن الشيوعية لم تكن لتقوم لها قائمة فى بلادها لولا هذه المجاوز الهائلة وعدد الضحايا الضخم لها فى بلادها ، ولولا سجون الاعتقال والنفى إلى مجاهل سيبريا والبطش بخصومها فى الرأى والتنكيل بمعارضيها فى الفكرة ، ثم لولا الدعاية والأموال الضخمة التى تبذل لنشرها .

أما الإسلام فلا يمكن أن يشك عقل فى أنه إنما قام على السلام والمحبة والرحمة والخير والتعاون بين الناس ، وعلى الصدق فى المبادئ والإقناع بالحجة وسمو مبادئ الدعوة وأهدافها ، واتجاه هذه الرسالة الإلٰهية إلى غرس بذور الوئام والوحدة بين جميع الأمم والشعوب وعملها لنشر الرفاهية والسعادة بين بنى البشر كافة .

هذا ويستخدم لينين الاشتراكية والشيوعية بمعنى واحد ، أما ماركس فيطلق على نظام الإنتاج الموزع مع توزيع حصيلته وفقا لنوع وكمية العمل المنجز — المرحلة الأولى للشيوعية ولم يسمه بالاشتراكية ، وأطلق على النظام نفسه الذى توزع حصيلته وفقا لحاجات الأفراد المرحلة العليا للشيوعية .

والاشتراكية — اقتصاديا — تنادى بالملكية المشتركة لأدوات الإنتاج ، مع اعترافها بدور النقود والأجور . شعارها : « من كلٍّ وفقا لمقدرته ، وإلى كلٍّ وفقا للعمل المنجز » .

أما الشيوعية نظريا فمبدؤها : « من كلٍّ وفقا لمقدرته ، وإلى كلٍّ وفقا لحاجاته » . فالشيوعية تقول بحصول الفرد على نصيب فى الإنتاج طبقا لحاجته ، والاشتراكية تجعل ما يخصه جزاء على الخدمات التى يؤديها[1] . وينكر الاشتراكيون صراع الطبقات وفكرة الثورة كوسيلة لتحقيق مبادئهم[2] ، من حيث يؤمن بها الشيوعيون ، وبمبدأ إلغاء الملكية الفردية ، وتأميم جميع المؤسسات ، ووضع أموال الأمة فى يد الحكومة ، والقضاء على التجارة الداخلية ، وقيام نظام السلع مقابل بطاقة يقدمها الفرد للحصول على حاجات معيشته ، وتطبق نظام الأجور الذى وضعه لينين ، وتحتكر الدولة وحدها التجارة الخارجية وتهيمن على النظامين النقدى والمصرفى ، وتطبق الملكية المشتركة بمنح

(١) ١٩٦ النظام الاشتراكى — البرّاوى ١٩٥١ (٢) ١٩٨ المرجع .

الفلاحين الأرض على سبيل الإعارة المؤبدة يستغلونها على أساس تعاونى ، والعامل وحده له حق الحصول على دخل. ولما فشلت الشيوعية فى توزيع الأجور وفقا للحاجة أخذت توزعها وفقا للإنتاج ، وهذا ولا شك جور اقتصادى لا مثيل له .

العدالة الاجتماعية فى الإسلام :

إن العدالة الاجتماعية فى الإسلام هى العدل والتعاطف والتكافل الاجتماعى ، وهى الإيثار والتضحية لخير الجماعة ، وهى من الناحية المعنوية تدعم الحرية الفردية وتؤمن بالضمير الإنسانى ، ومن الجانب الاقتصادى تهدف إلى مقاومة الاستغلال فى شتى صوره ، ومن الناحية السياسية تدعو إلى الديمقراطية فتجعل الغنى وظيفة اجتماعية تناط بها حقوق يجب أن يؤدى . . ويجب على الدولة أن تراقب أداءها ، ومن حيث الوسائل تنكر الثورة صراع الطبقات وتحرص على الأمن والسلام بين الناس ، ولا تجعل الملكية والمال وسيلة للتمييز بين الناس ، وتحمى حقوق العامل والفقير والرقيق والخادم والمرأة ، وتعمل للإصلاح العام والتعاون المثمر ، وتقرر التأمين الاجتماعى للفقراء والعاجزين ، وتفرض الزكاة ضريبة لمحاربة الفقر ، وتحرم الربا والاستغلال والاحتكار فى شتى صوره والترف والإسراف ، وتحد من غلواء الرأسمالية ، وتكره التفاوت المادى بين الناس حتى لقد آخى الرسول بين الأنصار والمهاجرين ووزع فى بنى النضير على المهاجرين الفقراء . وتوصى بالإحسان والصدقة ، وتفرض نفقة الأقارب المحتاجين على ذويهم الأثرياء القادرين على الكسب ، وتشرع نظام الوقف والوصية والقرض والهبة والوديعة والإعارة ، وتقرر فريضة الميراث ، وتنهى عن الكسب الحرام ، وتجعل الزوج مسئولا عن زوجته والأب عن أولاده ، وتحض على العمل وعلى إيجاده وتحترم العامل وحقوقه وتسوى بينه وبين صاحب العمل . وتحافظ على الملكية الخاصة وتقيم بجانبها ملكية عامة كما فى أرض الوقف والأرض الخراجية ، وتوصى بالفقراء وبالتكافل الاجتماعى . يقول الرسول : (أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعا فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى) .

وقال ابن حزم : فرض على الأغنياء فى كل بلد أن يقوموا بفقرائها ، ويجبرهم السلطان على ذلك إن لم تقم الزكوات بهم ولا فى سائر أموال المسلمين ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لا بد منه ومن اللباس فى الشتاء والصيف بمثل ذلك وبمسكن يكنهم[1] .

---

(١) راجع ١٧ الإدارة الإسلامية ـــ كردعلى ـــ ١٩٣٤ القاهرة .

والجشع الاقتصادى بكل مظاهره شىء لا يعرفه الإسلام ، ونظام الربا الذى أصبح متغلغلا فى جميع فروع حياتنا نظام فاسد لا يليق بالإنسانية فى القرن العشرين ، وجدير بالأمم أن تفكر فيه من جديد وأن تخطو خطوة حاسمة لإنقاذ العالم من ويلاته . والشركات التى تقوم على نظام الربا لابتزاز أموال الشعب شركات لا يقرها الإسلام الكريم . إن روح الجماعة وتيسير سبيل الحياة لكل إنسان لهما الينبوع الذى تخرج منه كل الأفكار الاقتصادية السليمة فى الإسلام . وأساس النظرية الاقتصادية فى الإسلام : أعط المال لغيرك ليهيئ لنفسه الفرص الطيبة فى الحياة ثم استرده منه .. وعلى هذا الأساس كانت شتى المعاملات الإسلامية الكريمة . وما أجل ما يقول الله تعالى : ﴿ وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون ﴾ .

أمثلة من العدالة الاجتماعية فى الإسلام :

١ ـــ فى السنة الثانية من الهجرة فرضت شريعة الزكاة ، وهى جزء قليل يخرجه الغنى من ماله الكثير فيجبر به قلوبا كسيرة ويسد حاجة من ضعف عن القيام بحاجة نفسه ويرفه عن الفقراء والمحرومين ، ومقدار نسبتها فى الغالب لا يزيد عن اثنين ونصف فى المائة .

وما أجل قول الله تعالى : ﴿ وفى أموالهم حق معلوم ٭ للسائل والمحروم ﴾ وقوله فى وصف المؤمنين : ﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ وقوله : ﴿ أوَلَم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ؟ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ـــ فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولٰئك هم المفلحون ٭ وما أوتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله وما أوتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولٰئك هم المضعفون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ وفى أحاديث رسول الله ﷺ فيض كثير من تأكيد شريعة الزكاة وتقريرها وإيجابها على الأغنياء للفقراء .

وهذا الركن الكبير من أركان الإسلام هو رسول السلام وداعى المحبة والتعاون والعطف بين الناس ، والمقوى للروابط بين الأفراد والطبقات ، والمستل لأحقاد النفوس وأضغانها والمقرب بين القلوب ؛ لتصير الأمة كتلة واحدة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر

والحمى . الزكاة أجل إصلاح اجتماعى أتت به شريعة إلٰهية ، وأكبر دعوة إلى التعاطف والتساعد والتماسك بين الناس ، وهى وما حبب فيه الإسلام من الصدقة والإحسان ورعاية الفقير وإكرام الجار وقرى الضيف وابن السبيل أعظم حل عملى لأعظم مشكلة عالمية استفحلت اليوم ، وهى الشيوعية ودعوة الشيوعيين .

ولما مات رسول الله صلوات الله عليه كانت القبائل العربية لا تزال بحمقها وجاهليتها غاضبة ناقمة على الإسلام وشريعته فى الزكاة فارتد الكثير منها عن الإسلام ، فصمم أبو بكر على محاربة هؤلاء المرتدين مهما كان وهو يقول : « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه » .

ونهض بنفسه لحرب المرتدين حتى أصاخوا لدعوة الإسلام وأدوا لأبى بكر زكاة أموالهم التى كانوا يؤدونها لرسول الله .

رحمك الله يا عمر لقد سبقت العالم المتحضر إلى ما يعملون ، فقد كنت تصرف للفقير من بيت مال المسلمين طعامه وكساء وغطاءه ، وكنت تحمل على ظهرك القوت لتذهب إلى من تستطيع الذهاب إليه من الفقراء .

إن الزكاة ركن كبير من أركان الإسلام ، وفيه علاج حاسم لأمراض المجتمع وتقريب كبير بين طبقات الأمة وتعاون الأغنياء والفقراء ورفع لمستوى الأمة الاجتماعى ودواء لأهم مشكلة من مشاكلنا العامة .. ألا وهى الفقر .

وإخراج الزكاة وتقديرها موكولان إلى ضمير المسلمين ودينهم ، وهم المسئولون عن ذلك أمام الله وأمام المجتمع والناس .. ولكننا أصبحنا الآن فى زمن مادى يتحلل من شريعة الله ويعصى أوامر الله ، ويجد الزكاة مغرما بعد أن كان أسلافنا الأولون يعدونها مغنما كبيرا لما فيها من كسب رضاء الله وثوابه ومضاعفة الأجر عليها ، ولما فيها مع ذلك من حيازة رضاء الملائكة والناس ودعوات الفقير واليتيم والمسكين ، ولما فيها من قضاء على الإجرام والنهب والسرقة والاعتداء على أموال الأغنياء . وصدق الله العظيم حين يقول :

﴿ وما أتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولٰئك هم المضعفون ﴾ .

وجباية الزكاة فرض على المسئولين اليوم بعد أن أصبح أغنياؤنا لا يعبئون بهذا الركن الخطير من أركان الإسلام ، ولنا فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه أسوة حسنة حين

حارب الذين منعوا الزكاة حتى أفاءوا إلى دين الله وشريعته وأدوها كما كانوا يؤدونها لرسول الله ﷺ .

إننا نرى أن تؤلف لجان فى كل قرية ومدينة بقرار وزارى من أعيان المسلمين ومن العلماء فى هذه الجهات ، وتتحرى هذه اللجان الحق والصدق فى عملها وتشرف على جمع الزكاة بشتى أنواعها من الأغنياء ، وعلى صرفها على مستحقيها من فقراء المسلمين ، وعلى أن لا تخرج زكاة قرية أو مدينة منها بل تصرف فيها على فقرائها ، وتكون هذه اللجان مسئولة عن أعمالها أمام القانون والحكومة .

وبهذا نضمن تحقيق غرضين شريفين :

الأول : التحقق من أن كل غنى دفع الزكاة الواجبة عليه كاملة غير منقوصة .

والثانى : التأكد من وصول الزكاة إلى مستحقيها من الفقراء والمساكين .

٢ ــ ويحارب الإسلام عدوا لدودا للإنسانية كافة .. هذا العدو هو الفقر الذى كثيرا ما يكون سببه سوء توزيع الثروة بين الناس ، أو الجهل باستنباط الثروة واستغلالها ، أو جدب الأرض وقلة خيراتها .

ولقد نظر محمد صلوات الله عليه إلى مشكلة الفقر باهتمام شديد ، وسعى بنجاح تام إلى القضاء على هذه المشكلة بعقل المشرع وحكمة المصلح وإلهام الرسول ، مع صعوبة التغلب على الفقر فى بيئة كبيئة الصحراء وفى مجتمع لا يعرف إلا العصبية والفروق الظالمة بين طبقات الأغنياء والفقراء .

كان الناس ينظرون إلى المال على أنه هو الوسيلة لحياة الرفاهية والترف ولاستعباد الفقراء وتسخير الضعفاء ، فحارب محمد صلوات الله عليه هذه الفكرة الخاطئة وأعلن أن المال هو سبب لعمل الخير والبر والرحمة والمعروف ومواساة المنكوب وإغاثة الملهوف وإطعام الجائع وكسوة العارى وإسعاد الناس ، وهو وديعة الله فى أيدى الأغنياء ومال الله استخلفهم عليه ، وجعل من سنة الإنسان المهذب فى الحياة الإيثار لا الأثرة ، والإعطاء لا الأخذ ، والقناعة والرضا والشكر لا الجشع والطمع والسخط والجحود.

وكان الأغنياء لا يعرفون فى المال حقوق الله والفقراء والمساكين ، فطالبهم محمد صلوات الله عليه بما طالبهم به القرآن الكريم فى قول الله تعالى : ﴿ فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولٰئك هم المفلحون ﴾ ونهاهم عن البخل والإمساك والشح والتقتير فقال صلوات الله عليه : (إياكم والشح فإنه أهلك

من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم) . وقال الله تعالى : ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ . ومدح المؤمنين الذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ، وفرض حق الضيف وابن السبيل ، وجعل صلوات الله عليه البر واجبا والإحسان فريضة والصدقة شريعة اجتماعية والزكاة محتوما لمصلحة المجتمع كله . ونظم الوحدة الاجتماعية بين الناس وجعل أساسها الأسرة ، وفرض على الرجل حقوقا يؤديها من ماله لأسرته وأقاربه وأهله ، وطالبه بأن يرعى أبناءه حق الرعاية ويوفر لهم بعمله وجده وسائل الحياة الكريمة ، وحث على القناعة والاقتصاد فقال صلوات الله عليه : (طوبى لمن قنع بالإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به) . وقال : (ما عال من اقتصد) .

وشرع الله لنبيه الكريم شرائع الزكاة والصدقات ، فدعا إليها الرسول صلوات الله عليه وحض عليها ونادى بها ، وسن كذلك تشريعات العمل والإجارة والمزارعة والوصية والهبة والوقف والرهن والوديعة والقرض وعقود الشركات والمضاربة وسواها لكى تتداول الأيدى المال .

ويعمل فيه الفقراء والأغنياء قصدا للربح والكسب الحلال ، ومن ثم حرم الإسلام ورسوله الكريم الربا والاحتكار والاستغلال وأكل أموال الناس بالباطل ، وقرر محمد صلوات الله عليه كسب الأموال من طرقها المشروعة فقال : (من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار) . وعمل على حفظ كرامة الفقراء ففضل صدقة السر وحض على ترك المن والأذى ، وكره السؤال وحرمه من غير حاجة ، وجعل اليد العليا خيرا من اليد السفلى . وحبس محمد صلوات الله عليه الأموال — التى تؤخذ من الفيء والخراج والجزية والغنائم والعشر والركاز وسواها على مصالح الفقراء والتمكين لهم فى الحياة والمعيشة ، وحرر رقيق الأرض من العبودية ، وطالب باحترام حقوق الرقيق الذى أسر فى حرب مشروعة وبالعمل على تحريره ، كما حرر العامل والخادم والمرأة من القيود والأغلال .

ودعا إلى توزيع الثروة توزيعا عادلا بإخائه بين الأنصار والمهاجرين ، وبما فرض من حقوق مشروعة للفقراء فى أموال الأغنياء ، وبدعوته إلى العمل وحضه عليه حتى يأخذ الفقير حقه الكامل فى الحياة مع مرور الأيام ، وبتقسيمه العادل للميراث بين أولى الأرحام ، وبغير ذلك من أسباب التمكين للفقير والمسكين والمحروم . ونهى عن كنز المال

دون أداء حقوقه ، وكره — الاستكثار منه والتكالب على جمعه ، حتى قال رسول الله صلوات الله عليه لبلال : (الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا) .

وحث على الجود والبذل والسخاء ، وكان صلوات الله عليه كما وصفه على : أجود الناس كفا . وكما وصف فى حديث البخارى : (فلرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة) . وتقول عائشة رضى الله عنها : « ما شبع رسول الله ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ، ولو شئنا لشبعنا ولكننا كنا نؤثر على أنفسنا » ودعا الناس إلى التعاون على دفع الضر عن الفقراء فقال :

(أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعا فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى) .
ونهى عن المحاباة فى كل شىء حتى فى اختيار الموظف ، فقال صلوات الله عليه : (من ولى من أمر المسلمين شيئا فأمر عليهم أحدا بمحاباة فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا حتى يدخله النار) . كما نهى عن الخيانة فى الأموال العامة فقال : (من استعملناه على عمل ورزقناه فأخذ بعد ذلك فهو غلول) . أى خيانة .

ولقد حبب محمد صلوات الله عليه الناس فى الكسب الحلال المشروع ، ودعاهم إلى استنباط المجهول من وسائل الثروات وقال لهم : (أنتم أعلم بشئون دنياكم) . وجعل بيت المال فى خدمة الناس والفقير من بينهم خاصة ولم يكن لرسول الله بيت مال يضع فيه الأموال وإنما كان يضعها فى بيته وبيوت أصحابه ، وكان الزبير بن العوام وجهيم بن الصلت يكتبان له أموال الصدقات ، ومعيقب بن أبى فاطمة وكعب بن عمر يكتبان المغانم ، وكان حذيفة بن اليمان يكتب لرسول الله صلوات الله عليه خرص ثمر الحجاز . وكان يتخير ولاته وعماله ويقتصد فى رزقهم ، فاستعمل عتاب بن أسيد الأموى واليا على مكة وجعل رزقه كل يوم درهما ، وصالح صلوات الله عليه أهل فدك على نصف ثمارهم وصرفها على الفقراء . وكان بعمله الشريف ودعوته الكريمة يقوى بذور الرحمة والخير والتعاون والمودة والإخاء بين الناس ، حتى يستطيع المسلمون التغلب على آثار الجدب الذى كان غالبا على جزيرة العرب .

وقد دعا صلوات الله عليه إلى اصطناع الأيادى عند الفقراء : (أكثروا من معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادى فإن لهم دولة . قالوا : يا رسول الله وما دولتهم ؟ قال : إذا كان يوم القيامة قيل لهم : انظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوبا

فخذوا بيده ثم امضوا به الجنة) . وجعل الرسول الأكرم فى كل معروف وكل عمل صدقة فقال :

(كل معروف صدقة ، وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له به صدقة ، وما وقى الرجل به عرضه فهو له صدقة ، والدال على الخير كفاعله ، والله يحب إغاثة اللهفان) . ورفع الرسول صلوات الله عليه من منزلة الفقراء ولم يجعل المال أساسا للحكم على الأشخاص .

وقد قرر محمد صلوات الله وسلامه عليه حقوق الإنسان كاملة غير منقوصة ، وحارب الرق والاستعباد والاستغلال والفوارق الاجتماعية الظالمة بين الناس ، ورفع من شأن الفقراء والمستضعفين ذوى الكفايات والمواهب حتى بلغوا أعلى المنازل فى الدولة الإسلامية مما قلب الأوضاع فى توزيع الثروات بين الناس وأنصف الفقراء وفتح باب الأمل الواسع على مصراعيه أمامهم يدخلونه بقوة وعزم وكرامة وتفاؤل بالحياة .

وهكذا كان محمد صلوات الله عليه الإنسانية فى أروع صورها والمثل الأعلى فى أمجد مظاهره ، والقائد المظفر الذى هدى الحياة وأخرجها من الخوف والقلق والفوضى إلى الأمن والهدوء والاستقرار ، وكانت حياته كلها كفاحا مجيدا فى سبيل الله والحق والمعروف وتقرير حريات الفقراء وكرامتهم ، وكانت جهادا صادقا وجهته الخير وإسعاد الناس . ومن أجل ذلك توّج هذا الجهاد بالنصر وهزت ذكرياته مشاعر الناس والجماعات والشعوب فى كل مكان وجيل ، ولا تزال هذه الذكريات حديث الدنيا ونشيد الحياة وفرقان البشرية الظامئة إلى نبع هذا الوحى المقدس والناموس السماوى الحكيم .

لقد استطاع رسول الله صلوات الله عليه أن يجعل الفقراء والأغنياء إخوانا متحابين متآخين متعاونين ، وأن يقيم فى المجتمع الإسلامى روحا عادلة تؤمن بالمبادئ الروحية والمثل العليا وتجعلها أساسا من أسس الاقتصاد التعاونى الجماعى فى الدولة الإسلامية الناشئة ، واستطاع بما بذره من بذور الخير فى الأرض أن يقضى على الفرقة والخصومة والجريمة والثورة والاضطراب والقلق بين الطبقات . وكانت ثورة محمد الكبرى من أهدافها تحرير الإنسان من الفقر والعوز والحاجة والخوف ، وكفالة حريته وحقه فى الحياة الهانئة الكريمة ، وهدم كل الصروح التى أقيمت ظلما وبهتانا بأيدى الإقطاعية والإقطاعيين الجائرين .

٣ ـــ والاشتراكية ترى تأميم المرافق المتصلة بالخدمات العامة(١) أما الشيوعية فلا تقر الملكية الفردية عامة بحال من الأحوال ، وكان ماركس يرى أنها أساس النزاع بين الطبقات . وقد قام الشيوعيون بإلغاء الملكيات الخاصة وتأميم مصادر الثروة فى روسيا ونفذوا ذلك بالقوة والعسف وجميع موارد الإنتاج والثروة فى يد الحكومة تنتج وتوزع فهى صاحبة المصانع والمزارع والمتاجر والمناجم ومنازل المدن . ويمنع القانون الشيوعى امتلاك سيارة للاستغلال التجارى ، وفى المادة الخامسة من الدستور السوفييتى : الملكية الاشتراكية إما أن تأخذ شكل تملك الدولة فتكون الثروة للشعب عامة أو شكل الملكية التعاونية أو الجماعية . ومحاربة الشيوعية للملكية الفردية استتبع محاربتها للإرث وتحريمها له .

إن مبدأ إلغاء الملكية الفردية إلغاء تاما ينافى الفطرة الإنسانية وغريزة التملك فى الإنسان ، ويدعو إلى الخمول والكسل ، ويخالف تعاليم جميع الأديان ، وقد طبق ذلك فى المجتمع الشيوعى فى روسيا بقوة السلاح ثم أخذت الحكومة فى التراجع فأباحت للمواطنين الامتلاك الشخصى للدخل الناتج عن عملهم ومدخراتهم ولأثاث البيوت والأمتعة والأدوات المخصصة للاستعمال الشخصى ، وأجازت للفلاح فى المزرعة المشتركة أن يملك حديقة حول منزله .

أما الإسلام فقد شرع وحمى الملكية الفردية وأجاز لمن أحيا أرضا مواتا بإذن الإمام ولو ذِمِّيًّا أن يملكها إذا كانت بعيدة عن العامر ، على أن يعمرها خلال ثلاث سنين وإلا أخذت منه ودفعت لغيره .

ولا شك أن فى حماية حرية الملكية أمام الإنسان تحريرا له من قيود الوصاية الاجتماعية واعترافا بشخصيته وكرامته الإنسانية ، وإثارة لمواهبه الخاصة ، ودفعا له على تحمل مسئوليات الحياة .

لقد بعث محمد صلوات الله وسلامه عليه إلى الناس كافة ومعه رسالة تضىء ظلمات الحياة وشريعة تقضى على الأغلال والعبودية ، وبين يديه دستور خالد يهدى إلى النور والحق والحرية والمساواة والعدالة والإخاء .

---

(١) ٢٠٠ النظام الاشتراكى .

ولقد حرر الإسلام وكتابه الحكيم ورسوله الكريم المستضعفين فى الأرض ومحا الاستعباد السياسى والاجتماعى .. وقرر مسئولية الحاكم وأنه خادم الشعب ، وأن لا طاعة له على أحد إذا خرج عن طاعة الله .. وقرر أن أول واجب عليه كذلك حماية دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم ، وألغى الألقاب ونظام الطبقات الجائر ، وهدم الفروق الواسعة الظالمة بين الناس فكلهم لآدم وآدم من تراب ، ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وحرم الترف والفساد والاستغلال والاحتكار وأكل أموال الناس بالباطل وجعل لكل فقير حقا فى بيت المال ، فإن لم يكن فى بيت مال المسلمين ما يسد حاجات الفقراء فحقوقهم يجب أن تؤخذ من أموال الأغنياء التى كره الله كنزها وأنذر من يكنزها لإنفاقها فى غير مرضاة الله بعذاب شديد : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ . وفرض الإسلام الخراج والجزية وكافة الأموال لينفق منها على المساكين والفقراء ، ودعا إلى الورع والزهد فى مال الناس ، وإلى ترك الإسراف فى التملك لأنه مدعاة للترف والهلاك والخروج عن حدود الفضيلة والعفة والدين ، وأعلن وحمى مبدأ تكافؤ الفرص أمام الناس جميعا .

ويؤثر عن جابر بن عبد الله حديث نص بصراحة تامة على أن مالك الأرض إما أن يزرعها بنفسه وإما أن يتنازل عنها ولو بالهبة لغيره من الناس . قال جابر : كان لرجال منا فضل أرض فقالوا نؤاجرها بالثلث أو الربع أو النصف ، فقال الرسول عليه السلام : (من كانت له أرض فليزرعها أو يمنحها أخاه ولا يؤاجرها إياه) أى ليزرعها بنفسه أو ليتنازل عنها ولو بالهبة لأخيه المسلم ولا يعطيها إياه مؤاجرة لأن ذلك مظهر التعاون بين المسلمين .

إن الإسلام يقر مبدأ تحديد الملكية ليعيش المجتمع كافة بنعمة الله إخوانا ، وليتعاون الفقراء والأغنياء على خير الأمة وسعادتها ومجدها ، ولتتقارب الطبقات وتزول الفروق الواسعة بين الناس ويمحى من بيننا الفقر والجوع والعرى ، وليشعر الفلاح والعامل الزراعى بأنهما كغيرهما من الناس لهما الكرامة والحرية والحياة الطيبة الرغيدة ، وأن الحكومة التى تقوم على شئون الشعب تحرص على توزيع العدالة الاجتماعية بين المواطنين كافة دون تمييز أو استثناء . وما أصدق ما يقول الرسول الكريم : (أيما أهل

عرصة ــ أى محلة ــ أصبح فيهم امرؤ جائعا فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى) .

وتقول لجنة الفتوى بالأزهر إن من مبادئ الدين الإسلامى احترام الملكية . وذهب أبو ذر إلى أنه يجب على كل شخص أن يدفع ما فضل عن حاجته من مال مجموع عنده فى سبيل الله ــ أى فى البر والخير ــ وأنه يحرم ادخار مازاد عن حاجته ونفقة عياله ..

ويقول المغفور له الشيخ الشناوى شيخ الأزهر الأسبق[١] : القرآن الكريم قد احترم الملكية الفردية وصانها ونظم انتقالها إلى الأبناء والمستحقين ، وفصل القول فى قواعد المواريث وتحديد الأنصبة فيما تركه الوالدان والأقربون قل منه أو كثر ، وبيان الوصية التى للمالك فى ماله لمن شاء .. مما يدل الدلالة الواضحة على حق الملكية لكل مالك ، وانتقال هذا الحق من بعده إلى ورثته من أبنائه وأقربائه . ولقد حمى الإسلام حرية التملك ودعا إلى احترامها فلكل فرد أن يقتنى من المال ما تمكنه من اقتنائه السبل المشروعة ، وليس عليه وراء ذلك إلا أن يؤدى الزكاة . وله أن يتصرف فى هذه الأموال بما يراه وتبقى بعده تركته لورثته . وحكم الإسلام فيمن تأخر عن دفع الزكاة أو يرفضها معلوم ، وهو أخذه بتأدية هذه الفريضة بالتبليغ والدعوة إليها وإلا صودرت أموالهم بمقدار هذا النصيب المفروض .

الديمقراطية بين الإسلام والمادية :

تصريف شئون الدولة على أساس نظام صحيح أو حكومة الشعب للشعب أو تكافؤ الفرص هو الديمقراطية التى لا يتحقق لها وجود إلا بالمساواة التامة بين الناس ، والاعتراف الكامل بحقوق الإنسان ورعايتها ، والإيمان بالحرية الفردية وبأن الدولة وجدت من أجل الفرد وبضرورة إنماء شخصية الإنسان فى الحياة .

والديمقراطية لا وجود لها فى المجتمع الشيوعى ، فالحريات مصادرة ، والمساواة معدومة حتى فى الاقتصاد ، وأجور العمال واستبداد الدولة الجائر بالفرد لا حد له ، والحكومة تسير على النظام الاستبدادى[٢] ، ولست تجد هناك « مجتمعا عماليا » حتى ولا ديمقراطية اقتصادية[٣] .

---

(١) من حديث له مع صحفى ــ مجلة الأزهر ، المجلد العشرون ١٣٦٨ هـ .
(٢) ٤٢٣ الدستور السوفييتى .
(٣) ٤٨٠ آثرت الحرية .

أما فى الإسلام فالأمر على النقيض : حرية ومساواة وعدل بين الناس ، والحكومة شورية دستورية أساسها مشيئة الشعوب ، والحاكم مسئول عن أعماله ، وحقوق الإنسان فى الحياة والحرية والأمن والتعليم والتأمين الاجتماعى وسوى ذلك مصونة . إن الإسلام يؤمن بمبدأ حكم القانون وبحكم الشعب للشعب وبأن الحكومة وجدت لخدمة الفرد وللعمل على رفاهيته وبالحرية الاقتصادية .. روحه التسامح وحرية الرأى للأفراد والجماعات ومحاربة شتى ألوان التمييز بين الناس .. وذلك هو أساس الديمقراطية الحقة .

والحرية ، وهى دعامة الديمقراطية والحياة الإنسانية المتحضرة ليس لها قيمة كبيرة عند الشيوعيين لأنها فى رأيهم تلهى الجماعات عن الالتفات إلى الظلم الاقتصادى[1] . الشيوعية تحاول تحقيق المساواة المزعومة بإلغاء حرية الإنسان ، فهى لكى تطعم الفرد تسلبه حريته .

حرية الفكر معدومة ، فالناس يفكرون على النمط الذى يعجب الحزب الشيوعى وليس هناك مجال لتفكير مستقل ، وحرية الصحافة والنشر مقيدة ولا يباح دخول صحيفة أو كتاب أجنبى معاد فى فكرته للشيوعية[2] ، والحرية السياسية مفقودة إذ ليس هناك إلا حزب واحد وحاكم واحد وانتخابات صورية لا تنافس فيها ، والحرية الدينية معطلة .

والحرية الاقتصادية لا وجود لها ، فالمصانع والمزارع وأدوات الإنتاج ومرافق الثروة ملك للدولة والفرد أجير عندها نظير إطعامه . لا رأسمالية ، ولكن هناك الرأسمالى الأكبر الذى لا يقاوم وهو الدولة .. مما ينعدم معه التنافس الاقتصادى الذى هو أساس الحرية الاقتصادية ..

والحرية الشخصية محجور عليها ، لأن الحزب الشيوعى يهيمن على حريات الناس. وسلطان البوليس السرى لا حد له ، وللقاضى أن يحكم بإعدام من يرى أنه خطر على الأمن العام ولو لم تقم الأدلة على ذلك ، والعامل فى المصنع لا يملك أية حرية وعليه أن يعمل لأن من لا يعمل لا يأكل . وفى عام ١٩٣٠ صدر قانون ربط العمال بمصانعهم ومنعهم من مغادرة مكان عملهم إلا بإذن خاص ، وبعد ذلك بعامين صدر قانون بطرد العمال الذين يتأخرون عن العمل ولو يوما واحدا دون سبب كاف[3] . وجاء قانون ١٩٣٩ للعمل أنه

---

(١) المذاهب السياسية المعاصرة .

(٢) ٩٤ الشيوعية فى الميزان .

(٣) الشيوعية فى الميزان .

إذا تأخر العامل عن عمله أكثر من عشرين دقيقة فإنه يقدم إلى النيابة المحلية ويحاكم ، فإذا أدين حكم عليه بالسجن أو السخرة .

ونص على عقوبة الذين يتسترون على مجرمى التأخير ، ويجب على الفرد الحصول على إذن خاص لقضاء إجازة ولو يوما واحدا بعيدا عن بيته ، والرحلة خارج البلاد ممنوعة ولا يصرح بها إلا للمبعوثين فى مهمة رسمية . وفرض عام ١٩٣٢ نظام البطاقات الشخصية التى تتضمن شتى المعلومات عن كافة الشئون التى يهم البوليس السياسى معرفتها عن الفرد ، والستار الحديدى مطبق حول البلاد التى تدين بالشيوعية .. والشعب فى عزلة تامة . وقد قام الشيوعيون فى روسيا بحركات تطهير عامة كثيرة لإبادة خصومهم فى الرأى وذهبوا بزعماء ومفكرين وكتاب إلى مجاهل سيبيريا وسجون الأورال ومعتقلاتها . ولكى تعرف كيف يعامل الشيوعيون معارضيهم فى الرأى اقرأ ما يقول دافيدك نيقوليفسكى فى كتابه « لا شىء سوى سلاسلهم » : إن فى روسيا اليوم ١٤ مليونا من العبيد ، فرضت عليهم السخرة ويعيشون فى حظائر تحيط بها حواجز تعلوها الأسلاك الشائكة ويحرسها رماة يرابطون فى أبراج مزودة بالأنوار الكشافة القوية وأسراب من الكلاب لمطاردة الفارين من الأرقاء ، يؤدون أشق الأعمال وأخشنها.وأفدحها ، وهؤلاء من الذين يعارضون الشيوعية أو ينقدونها أو يشتبه فى أمرهم ومن رجال الدين الذين يعرقلون دعوة الإلحاد[١] . وما أصدق ما يقول أندريه جيد : إن الشيوعية لا تؤمن بشىء اسمه الحق .

فأين هذا من حماية الإسلام للحريات وإطلاقه لها وتحريمه الحجر عليها ؟ فحرية الفكر والرأى وحرية التصرف والعمل والحرية الشخصية والحريات العامة وحرية الاجتماع والخطابة والحرية الثقافية والسياسية والدينية كل هذه الحريات قد قررها ودعا إليها وحماها الإسلام وكتابه الكريم . وأبطل الإسلام الحكم الاستبدادى ، وإن الحاكم أو الدولة ظل الله فى الأرض وليس للحاكم فيه أكثر مما للمحكوم يقول عمر لعامل له : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ ويقول : من رأى منكم فىّ اعوجاجا فليقومه ، إن رأيتمونى على باطل فقومونى . ويقول الرسول : (الإمام راع ومسئول عن رعيته) .

ولقد حرر الإسلام الإنسان من الجهل والجمود والفاقة والرق ، ودعا إلى تحرير الأرقاء ورفعهم إلى منزلة السادة ، وحرر الطبقات من طغيان المستبدين وحرر الروح الإنسانى من

---

(١) ٩٨ الشيوعية فى الميزان .

الشهوات والترف والمادة .. إنه بحق دين الحرية والكرامة الإنسانية فى الحياة . والمساواة ركن من أركان الديمقراطية ، والشيوعية تزعم أنها تؤمن بالمساواة وتطبقها وتتخذ من ذلك وسيلة لدعايتها الجوفاء ، وتسرف فتدعى أنها تحقق للإنسان المساواة الاقتصادية . ولعل كلام ستالين فى خصومة عام ١٩٣٤ خير رد على ذلك ؛ قال : « إن هؤلاء القوم يحسبون أن الشيوعية تستلزم المساواة فى مطالب العيش لكل فرد فى المجتمع .. ألا ما أسخفه من رأى يخرج عن فكر مشتت ، وإن المساواة التى نادوا بها هى التى أضرت بصناعتنا أكبر الإضرار » . وبينما كانت الشيوعية تعمل لإلغاء الطبقات والمساواة فى الأجور إذ نحن نرى اليوم فى روسيا عدة طبقات متفاوتة الدخول ، وهى طبقة المفكرين وعددها نحو ١٣ ٪ من السكان ولها نحو ٣٢ من دخل الدولة ، وطبقة الصناع وعددها ٢٤ ٪ ولها من الدخل القومى ٣٢ ٪ ، وطبقة الزراع وعددها ٥٤ ٪ ولها ٣٣ ٪ من الدخول ، وطبقة المسخرين الذين لم يرضوا عن الشيوعية وعددها ٩ ٪ ولها فى الدخول ٣ ٪ ، أما المساواة الاجتماعية فتتلاشى هناك رويدا رويدا .. فقد فرضت التحية العسكرية ، وأعيدت الرتب فى الجيش ، وأعيد لقب وزير ومجلس وزراء ، وزادت ألقاب ستالين وخلفائه ، وسيطرة طبقة واحدة هى طبقة العمال على سائر طبقات المجتمع تفنيد لآرائهم النظرية فى المساواة .

أما المساواة فى الإسلام فحدث عنها ولا حرج .. مساواة كاملة بين الناس جميعا : بين المرأة والرجل والصغير والكبير والمحكوم والحاكم ، بين جميع الطبقات والجماعات ، بين الأغنياء والفقراء مساواة يحميها الإسلام وكتابه ورسوله وخلفاؤه ، ولا تعرف أى لون من ألوان التمييز بين الناس حتى لقد كان الخليفة عمر يمشى وعبده معه راكب ، وولى رسول الله بلال الحبشى على المدينة وفيها سادات الأنصار والمهاجرين ، وأسند إلى مهران الفارسى ولاية اليمن وقال : (ليس لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى) وأذن الخليفة عمر لصهيب وبلال وسواهما من عامة الموالى بالدخول عليه قبل سادة قريش ، وألغى الإسلام الفوارق والامتيازات ووزع الحقوق والواجبات على الأفراد على السواء ، وصار الحاكم والمحكوم جميعا على قدم المساواة فى المسئوليات والالتزامات ، ويؤيد مبدأ المساواة فى الإسلام عدالة اجتماعية قوية أيدها ودعا إليها وتقوم على الأخوة والتكافل العام وأساسها التحرر الوجدانى وتتخذ من الضمير البشرى والتشريع القانونى وسائل لتحقيقها وإذاعتها بين الناس ، فأين هذا من الفلسفات الحديثة التى تتنكر لمبدأ المساواة ؟

والشيوعية ـــ التى تنزل خصومها فى الرأى منازل العبيد وتحبذ الثورة وصراع الطبقات وتعمل على إثارة القلق والاضطرابات فى الجماعات والشعوب ـــ لا تعرف معنى الإخاء . فأين هذا من الإسلام الذى أكد الأخوة الإنسانية وألغى نظام الطبقات والعنصرية الكاذبة والعصبيات الحمقاء وجعل المؤمنين إخوة فى الدين والناس جميعا إخوة فى الإنسانية ، حتى الخدم جعلهم الرسول إخوان المخدومين فقال : (إخوانكم خولكم) . كل هذا فى عصر كان يرى كما يرى أرسطو وأفلاطون من قبل ـــ حرمان الموالى والصناع من الحقوق المدنية لانحطاط ما يمارسون من مهن ، وكما رأى أرسطو من أن الله أوجد البرابرة ليعيشوا أرقاء وسلب ثروتهم من الأعمال الشريفة .

كل هذا دليل على أن الإسلام أثبت قد ما فى الديمقراطية وأصلح مذهبا وأعدل رأيا فيها وأقوم سبيلا إلى الإصلاح العام ، وأنه ما دين أو مذهب يبلغ فى ذلك الباب ما بلغه الإسلام .

حقوق الإنسان فى الإسلام والمادية :

١ ـــ حقوق الإنسان عند الشيوعيين مستمدة من الجماعة وإرادته جزء من إرادتها وليس للفرد كيان مستقل عنها .

تقر الشيوعية للإنسان حق العمل ، ولكنها تحجر على العامل وتربطه بمصنعه وتمنعه من تغيير العمل والمصنع .. وقوام نظام الأجور فى بلادها « الأجر بالقطعة » الذى تنفر منه نقابات العمال فى العالم .. والإسلام الذى شرع المضاربة والشركة والمساقاة والمزارعة والإجارة وسواها من أبواب العمل ، وحمى العامل ورعاه وحافظ على حريته وأجره وحث الناس على العمل .. إنما يهدف إلى القضاء على البطالة والفقر بين الناس .

وتقرر الشيوعية حق الراحة الأسبوعية للمواطنين ، ونحن نعلم أن يوم الجمعة عيد أسبوعى للراحة والاستجمام فى الإسلام الذى يحترم أيام الراحة كذلك عند غير المسلمين .

وتقرر حق الضمان الاقتصادى بالحصول على تأمين مادى عند الشيخوخة أو المرض أو العجز عن العمل ، وقد سبق المسلمون إلى تطبيقه فى بلادهم منذ عهد بعيد ، وكان عمر يصرف للفقراء مسلمين وغير مسلمين حاجتهم من بيت المال ـــ وكان يعتبر الأطفال عاجزين عن العمل ويفرض لكل مولود مائة درهم ، فإذا ترعرع بلغ به مائتى

درهم ، فإذا بلغ زاده . ويجعل أجرة رضاع الطفل ونفقته من بيت المال ، وكان يقسمها فى بيت المال على الناس بحسب بلائهم فى الإسلام حتى استغنى الناس وأبوا أخذ الصدقات . ولم يوجد فقراء فى عهد عمر بن عبد العزيز يأخذون الزكوات فاشتريت بها رقاب وأعتقت .. ورأى ابن الخطاب فى طريقه إلى دمشق قوما مجذومين من النصارى فأمر أن يجرى عليهم القوت من بيت المال . على أن نظام الضمان الاجتماعى لم يبلغ فى روسيا ما بلغه فى شمال أوربا وأمريكا .

وتقرر الشيوعية للإنسان حق التعليم وقد سبقها الإسلام إلى ذلك منذ أجيال . ويؤثر عن رسول الله : (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) . وكان التعليم مجانيا فى شتى مراحله فى بلاد الإسلام مع صرف الغذاء والكساء للطلاب .

وتقرر حق المرأة فى التساوى مع الرجل وهو حق سبق به الإسلام . إن الإسلام ليحمى حق الإنسان فى الحياة والحرية والعدالة والإنصاف والمساواة والأمن ، وحقه فى التعليم ، وحقه فى الحكم الدستورى وفى كل جانب عادل من جوانب الحياة .

٢ — وحرية العقل والتفكير والرأى ، وحرية التصرف والعمل ، والحريات العامة والحرية الشخصية .. كل هذه الحريات قد كفلها ورعاها الإسلام وكتابه الكريم ، ولعلك قرأت كلمة عمر الخالدة لواليه عمرو بن العاص : « كيف تستعبدون الناس وقد ولدتهم امهاتهم أحرارا ؟ » .

لا يقيد الإنسان أى قيد من القيود ، ولا يحجر عليه رجال الدين ، ولا يحول بينه وبين التصرف أب أو جد مادام قد بلغ سن الرشد ، ولا يمنعه من التصرف فى ماله أحد إلا بأسباب شرعية وفى ظروف خاصة . لكل فرد أن يبدى رأيه فى سياسة الحاكم ويناقشه الحساب ، ولعلك أيها القارئ تذكر كلمات عمر المأثورة : إن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فقومونى .. أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم ، وإنى وليت عليكم ولست بخيركم . بل لعلك تعرف مناقشة امرأة له فى فكرة تحديد المهور وردها عليه ، وقوله لها وقد ذكرته بالحق : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » . والصلة بين الرؤساء والمرءوسين صلة الأب بأبنائه والراعى برعيته ..الإمام راع ومسئول عن رعيته وأمور الناس تحكم بالشورى .. ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ ، ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ ، حتى حرية الدين الذى نص عليها القرآن الكريم بقوله : ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ مادام هذا الدين الذى يؤمن به

الإنسان دينا سماويا صحيحا . أما الشرك والوثنية فلا يعترف بهما الإسلام لأنهما انتكاس فى الإنسانية ، وطمس للفطرة الإلٰهية ، وقضاء على كرامة الإنسان وعقله ووجود الفكرى والروحى والأدبى والاجتماعى .

أين هذه الحرية الآن فى القرن العشرين عصر الكهرباء والذرة والعلم ؟ أين حريات الأمم السياسية وحريات الرأى والفكر والحريات الشخصية؟إنها أوهام وخيالات لا وجود لها فى كثير من الأحيان رغم أن المفكرين قد سئموا من الدعوة إليها ورغم حماية القوانين العامة للهيئات الدولية والأمم المتمدينة لهذه الحريات .

ليست الحرية فى الإسلام حرية فى الهدم ولكن فى البناء . إنها الحرية التى لا يحدها شىء إلا توجيه الضمير ورقابة الروح الدينى فى النفس ونزعات الفطرة الإنسانية فى الإنسان .

حرية عامة شاملة تعم الحاكم والمحكوم وتشمل الشعوب الصغيرة والكبيرة ، ويطلقها الإسلام لكل مسلم ومسلمة ، وتتناول الشعب الفاتح والشعوب المغلوبة على أمرها على السواء . فأين هذا من الحرية عند الغرب التى لا يتمتع بها إلا السادة المستعمرون ، أما الشعوب المستعبدة فتعيش فى أشد استعباد وأفظع ضغط على حريات الناس الخاصة والعامة فيها ؟

أما الإخاء فى الإسلام فهو إخاء عام شامل ، المؤمنون جميعا بل الناس كافة إخوة فى الله وإخوة فى الإنسانية .. (إنما المؤمنون إخوة) حتى الخدم جعلهم رسول الله صلوات الله عليه إخوان المخدومين فقال : (إخوانكم خولكم) ألغى الإسلام نظام الطبقات وألغى العنصرية الكاذبة والعصبيات الحمقاء ، وألغى نظام الألقاب (المسلم أخو المسلم لا يظلمه) و (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) و (مثل المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد) (الناس من آدم وآدم من تراب) .. الحسب والنسب والمال لا تغنى عن الإنسان شيئا ، وهل فى ذلك أبلغ من قول رسول الله صلوات الله عليه لابنته ؟ : (يا فاطمة اعملى فإنى لا أغنى عنك من الله شيئا) وقوله صلوات الله عليه : (إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء) (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) فأين هذا مما تعمله أمريكا الديمقراطية فى رعاياها اليوم : البيض لهم كل شىء فى الدولة والزنوج

والسود لا حق لهم على الإطلاق ، بل ليسوا مثل أولئك فى البشرية وفى الكرامة الأدبية فى الحياة .

وأما المساواة فى الإسلام فهى مساواة كاملة بين المرأة والرجل والصغير والكبير والمحكوم والحاكم ، بين جميع الطبقات والجماعات ، بين الأغنياء والفقراء .. مساواة لا تعرف فيها ظلما ولا عنتا ولا آثاما . القانون الإسلامى يشمل الجميع لا فرق بين إنسان وإنسان ، والعدالة تطبق على الجميع بلا محسوبية ولا استئناف . يقول رسول الله : (والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها) . ووزعت الحقوق والواجبات على الأفراد على حد سواء ، وفتح الإسلام آفاق الوصول إلى أسمى الغايات أمام المتنافسين من كل جنس ولون وأمة ، حتى لقد ولى رسول الله بلالا على المدينة وفيها سادة المسلمين من الأنصار والمهاجرين وبلال عبد حبشى اشتراه أبو بكر وأعتقه ، وأسند إلى مهران الفارسى ولاية اليمن وهو من صميم الفرس ، فلما مات أسندها إلى ابنه . ويقول رسول الله فى سلمان الفارسى الأعجمى : (سلمان منا أهل البيت) .

وقد سار خلفاء محمد على نهجه فى المساواة التامة بين الناس والمسلمين كافة . قال الحسن البصرى : حضر إلى باب عمر سهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام وأبو سفيان بن حرب فى نفر من قريش من تلك الرءوس ، وصهيب وبلال من أولئك الموالى — أى الذين كانوا عبيدا قبل الإسلام وهم من عناصر غير عربية وقد شهدوا بدرا ، فخرج إذْنُ عمر لأولئك الموالى وأخر السادة فقال أبو سفيان : لم أر كاليوم قط ، يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه لا يلتفت إلينا ؟ فقال سهيل وكان رجلا حصيفا : إن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم ، دعى القوم ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم .. فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم ؟

وألغى الإسلام الامتيازات الفردية والطائفية ، ومحى ما بين الطبقات من الفروق والحقوق والواجبات ، ووحد الشريعة وأخضع لها الكافة لا فرق بين حاكم ومحكوم فى عصر كان الناس فيه يؤمنون بأن الحاكم ظل الله فى أرضه .. عدالة تامة بين الجميع حتى لقد شكا يهودى على بن أبى طالب فى خصومة ، فأحضرهما عمر أمير المؤمنين وقال عمر لعلى : قف يا أبا الحسين بجانب خصمك . فبدأ التأثر على وجه على فقال له عمر : أكرهت يا على أن تقف إلى جانب خصمك ؟ فقال : لا يا أمير المؤمنين ، ولكنى رأيتك لم تسو بينى وبينه إذ عظمتنى بالتكنية ولم تكنه . ورأى عمر رجلا وامرأة على فاحشة فجمع

الناس وخطبهم وقال : ما الرأى إذا رأى أمير المؤمنين رجلا وامرأة على فاحشة ؟ فنهض إليه على قائلا : يأتى على صحة قوله بأربعة شهداء وإلا فيقام عليه حد القذف .

إن المساواة تامة فى كل شىء بين الناس عامة فى الإسلام .. مساواة فى الحقوق والواجبات ، فى الكرامة وأمام القانون ، لأن الناس خلقوا متساوين فى حكم الله لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ويقول عمر : « أما والله ما أرسل عمالى إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكن أرسلتهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ، فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إلى ، فوالذى نفسى بيده إذن لأقصنه وقد رأيت رسول الله صلوات الله عليه يقص من نفسه .

ويقول الشيخ محمد عرفة عضو جماعة كبار العلماء سابقا من كلمة له :

المساواة فى الإسلام مساواة بين البشر لا فرق عنده بين أبيضهم وأسودهم وغنيهم وفقيرهم وخاصتهم وعامتهم ، فكلهم لآدم وآدم من تراب. حتى العرب الذين هم حاملوه وناشرون له والذين كانت لهم ولاية الحكم لا امتياز لهم على غيرهم من الأمم . (لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى) . وقد قرر الإسلام مبدأ المساواة فى غير ما آية :

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ فهو يقول : إنه جعلكم شعوبا وقبائل للتعارف فكيف تجعلونه سببا للتناكر والعصبية الممقوتة الذميمة ؟

وقال : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ فهو يذكرهم بأنهم أبناء أب واحد وأم واحدة ، فهم مهما بعدت ديارهم واختلفت أجناسهم وتباينت ألوانهم إخوة وذوو رحم ، ولعل وصايته بالأرحام بعد ذلك وصاية ببنى الإنسان جميعا إذ قد أثبت لهم قبل ذلك قرابة ورحما .

جعل الإسلام المساواة مبدأ وأخذ يصدر عنها فى كثير من الوقائع والأحكام . قال قتادة : كان أهل الجاهلية فيهم بغى وطاعة للشيطان ، فكان الحى إذا كان فيهم عزة ومنعة فَقَتلَ عبدُ قومٍ آخرين عبداً لهم قالوا : لا نقتل به إلا حرا ، تعززا لفضلهم على غيرهم فى أنفسهم . وإذا قَتلت لهم امرأةٌ امرأةَ قومٍ آخرين قالوا : لا نقتل بها

إلا رجلا . فأنزل الله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ﴾ نهاهم عن البغى والعدوان وألا يقتلوا غير القاتل وألا يعتدوا على غيرهم فيقتلوا بعبدهم حرا وبالمرأة منهم رجلا وبالحر الواحد منهم أحرارا كثيرا ، وأنزل لتقرير هذا المبدأ ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ﴾ . وفى هذه الآية تقرير للمساواة فى النفوس والأعضاء والجوارح .

لقد سوى الإسلام بين الناس فى الحقوق والواجبات وجعلهم سواء أمام الشريعة ، فالشريعة ماضية عليهم جميعهم .

رُوى أن امرأة من بنى مخزوم سرقت فقالت قريش : من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ أى ليضع عنها الحد ، ومن يجترئ عليه إلا أسامة حِب رسول الله ﷺ ؟ فكلم أسامة رسولَ الله فقال الرسول : (أتشفع فى حد من حدود الله ؟) ثم قام فخطب فقال : (يا أيها الناس إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد . وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها) .

هذه مساواة بين الشرفاء والضعفاء فى الحدود ، فلا توضع عن شريف لشرفه إذا ارتكب موجبها .. وبين الرسول أن التفرقة بين الضعفاء والشرفاء فى الحدود كانت العلة فى ضلال الأمم السابقة .

ويقول عبد الرحمن عزام يصف المساواة فى الإسلام من كلمة له :

« أشير إلى معنى أساسى من معانى الإسلام هو من أعظم مبادئه فى مقاومة الشرور الاجتماعية ، ذلك هو مبدأ المساواة الذى يسيطر على تصرفات المسلمين فى عباداتهم ومعاملاتهم وآدابهم ، فالمسلمون جميعا عباد الله يسعى بذمتهم أدناهم ، وأفضلهم عند الله أتقاهم .

ذلك المعنى متى رسخ فى أذهان الملوك والأمراء والحكام والعامة والفقراء والأغنياء والملاك والعمال كما يريده الإسلام ، استحالت معه الفرقة الاجتماعية وما يترتب عليها من حسد وبغض وخلاف وشر ثم قتال وفساد للمجتمع ، بتسلط الأقوياء على المستضعفين واستذلالهم لمن كانوا أقوياء .

إن مبدأ المساواة شائع الآن بشرائع مصطنعة ومظاهر فى القول والقانون ، ولكنه لم

يستقر فى النفوس والضمائر ولم يختلط اختلاطا كليا بجميع مصادر الحياة ومواردها كما هو فى الإسلام .

فالمسلم يحس فى قرارة نفسه أنه مساو لخادمه وأن الخادم قد يكون أفضل منه عند الله ، ويخشى أن يصيبه شك فى هذا مخافة غضب الله الذى خلق الناس من نفس واحدة متساوين أحرارا .

فالمساواة بهذا المعنى العظيم هى أكبر الضمان ضد الشرور والآفات الاجتماعية التى زلزلت الأمم ، والتى قد تكون أساسا لأكثر هذه الحروب المهلكة للبشر .

فالديمقراطية الإسلامية التى هى أساس الحكم الصالح والحياة السعيدة هى ديمقراطية لا شبيه لها ، وليست المظاهر الخادعة من أشكال الحكم على تنوعها بواحدة مثل الديمقراطية فإن أساسها فى الضمير ، فلو أنها استقرت فى الحياة الحالية واتخذت سبيلها الذى أراده الإسلام لكانت كفيلة بالقضاء على أعظم مصادر الشر وآفته الاجتماعية .

والفروق الطبيعية بين الناس من الذكاء والحسب والجاه والمال والعلم حاول الإسلام تخفيف أثرها بتقريب الطبقات بعضها إلى بعض ، وباشتراكية الإسلام العادلة فى الزكاة والضرائب وأموال المسلمين وردها على الفقراء وصرفها للمساكين . ومما فرضه الإسلام على العالم أن يرشد الجاهل ، وعلى الصحيح أن يواسى المريض ، وعلى الغنى أن يعطف على الفقير ، وعلى الكبير أن يرحم الصغير .

حرية وإخاء ومساواة لم يعرف للإسلام فيها نظير أو شبيه لأنه دين الحق والبيئة والإخلاص الدينى الذى جاء لإنقاذ البشرية والنهوض بها من الذلة إلى العزة ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الفقر إلى الرخاء ، ومن البداوة إلى الحضارة ، حتى لقد قال برنارد شو : لا بد أن تعتنق الإمبراطورية البريطانية النظم الإسلامية قبل نهاية هذا القرن ، ولو أن محمدا بعث فى هذا العصر لقاد العالم إلى السلام والسعادة المنشودة .

وقال توماس كارليل : لقد أصبح من العار على أى فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى ما يقال من أن الدين الإسلامى باطل وأن محمدا خداع ومزور ، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل تلك الأقوال السخيفة المخجلة فإن الرسالة التى أداها ذلك الرسول الكريم مازالت السراج المنير مدة ثلاثة عشر قرنا لنحو مائتى مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذى خلقنا.وقال تولستوى : إن النبى محمدا من عظام الرجال

المصلحين ، ويكفيه فخرا أنه هدى أمة برمتها إلى الحق وجعلها تجنح إلى السكينة والسلام .

ليست الثورة الفرنسية ولا مبادئ عصبة الأمم ولا مواثيق هيئة الأمم المتحدة ولا قرارات لجنة حقوق الإنسان هى التى أذاعت هذه المبادئ ، ولكن الذى سبق فأذاعها ونشرها وطبقها تطبيقا سليما قويا عاما هو محمد وشريعته الإسلام ، الدين الخالد الكريم ومن نحو أربعة عشر قرنا من الزمان .

هذا هو الإسلام .. إننا نؤمن به دينا سماويا خالدا باقيا ما بقيت الأرض والسماء .

إعجاز القرآن

وصف الله عز وجل الذكر الحكيم فى كتابه الكريم فقال : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا ﴾ . البرهان دلائل صدق الرسول من المعجزات النيرات والنور المبين هو القرآن المعجز الهادى إلى سواء السبيل ، وهو أظهر معجزات محمد صلوات الله عليه وأوضح البراهين على صدق رسالته .

وليس هناك أجمع ولا أشمل فى وصف كتاب الله من حديث رسول الله ﷺ (إن الله أنزل هذا القرآن آمرا وزاجرا ، وسنة خالية ، ومثلا مضروبا ، ففيه نبؤكم وخبر ما كان قبلكم ، ونبأ ما بعدكم وحكم ما بينكم ، لا يخلقه طول الرد ، ولا تنقضى عجائبه . هو الحق ليس بالهزل ، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن خاصم به فلج ، ومن قسم به أقسط ، ومن عمل به أجر ، ومن تمسك به هدى إلى صراط مستقيم ، ومن عمل الهدى من غيره أضله الله ، ومن حكم بغيره قصمه الله ، هو الذكر الحكيم ، والنور المبين ، والصراط المستقيم ، وحبل الله المتين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، لا عوج فيقوّم ، ولا يزيغ فيستعتب ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد) وصدق رسول الله ﷺ ، صدق فى كل ما جاء به وفيما وصف به كتاب الله الحكيم . فليس هناك كتاب تفخر به الحياة وتعتز به الإنسانية وتهتدى بهداه الدول والشعوب والجماعات والأفراد ، غير كتاب الله الحكيم .

ولقد نزل القرآن المبين ، والكتاب المحكم العظيم ، على الرسول الأكرم محمد بن عبد الله ﷺ ، فبهر العرب بلاغته ، وأعجزتهم فصاحته وحكمته ، ورأوا النور مشرقا وضاء ، وسمعوا السحر يهز القلوب ويملأ الصدور ، وعجبوا أيما عجب لأسلوبه الفذ الفريد ، أسلوب جمع بين الجزالة والسلاسة والقوة والعذوبة ، وتدفق البلاغة وحرارة الإيمان ، وكأنه السحر الساحر والنور المبين . أسلوب لا هو سجع ولا هو مزاوجة ولا هو نثر مرسل ، وليس من أساليب الكهانة ولا الخطابة ، ليس رجزا ولا قصيدا ولا وصفا ولا غزلا ولا مدحا ولا فخرا ولا هجاء ولا رثاء . أسلوب صيغ من حكمة ومزج بالهداية . نظم رائع وألفاظ عبقرية حسان ، ومعان مفضلة مسترقة كأنها الجمان ، جزالة وروعة ،

وأداء خارج عن المعهود من نظام كلام العرب ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، فليس لهم كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع ، والمعانى المطبقة والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة ، والتناسب فى البلاغة والتشابه فى البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر ، إنما تنسب إلى حكيمهم كلمات موروده وألفاظ محدودة ، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها أحيانا الاختلال والاختلاف والتعمل والتكلف والتجوز والتعسف ، على حين جاء القرآن على كثرته وطوله متناسبا فى الفصاحة ، على ما وصفه الله تعالى به فقال : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ وقال جلت حكمته : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ .

وماذا يقول القائلون فى كتاب الله الذى تجد فيه الحكمة وفصل الخطب مجلوة عليك فى منظر بهيج ، ومعرض رشيق ، ونظم غير متعاص على الأسماع ، ولا ملتو على الأفهام ، ولا مستكره من اللفظ ، يمر كما يمر السهم ، ويضئ كما يضئ الفجر ، ويزخر كما يزخر البحر ، طموح العباب ، جموح على المطرق المنتاب ، كالروح فى البدن ، والنور المسيطر فى الأفق والغيث الشامل والضياء الباهر ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، وصدق الله العظيم : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ .

نزل القرآن دليلا على صدق رسالة محمد صلوات الله عليه ، وصفحاته جامعة لأصول رسالته ودعوته ، ومع ذلك فقد كذب المشركون وكفروا وجحدوا . وحين تحداهم الله بآياته البينات أخذوا يهذون ويستهزئون ويضحكون ويقولون ما لا يعلمون ، ويهرفون بما لا يعرفون . ملكتهم الحيرة واستبد بهم العجب وأخذوا يفكرون ماذا يقولون . روى أن أبا جهل قال لملأ من قريش : قد التبس علينا أمر محمد ، فلو التمستم رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان عن أمره ؟ فقال عتبة : والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علما وما يخفى على . فأتاه فأسمعه رسول الله أوائل سورة « فصلت » فلما بلغ قوله : ﴿ إن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ . أمسك عتبة على فيه وناشد الرحم ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش ، فلما احتبس عنهم قالوا : ما نرى عتبة إلا قد صبأ . فانطلقوا إليه وقالوا : يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت . فغضب وأقسم لا يكلم محمدا أبدا ، ثم قال : والله لقد كلمته

فأجابنى بشىء والله ما هو يشعر ولا كهانة ولا سحر . ولما بلغ ﴿ صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ أمسكت بفية وناشدته بالرحم . وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب ، فخفت أن ينزل بكم العذاب .

ويروى أن الوليد بن المغيرة قال لبنى صخر وقد سمع آيات من القرآن يتلوها الرسول الأعظم صلوات الله عليه : والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، وما يقول هذا بشر . وبلغ قريشا مقال الوليد فقالت : صبأ والله الوليد، والله لتصبأن قريش كلهم . فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه . فذهب إليه وقعد حزينا لديه وكلمة بما أحماه . فغضب الوليد وخرج فأتى قريشا فى مجلسها فقال : تزعمون أن محمدا مجنون ، فهل رأيتموه يهذى ؟ وتقولون إنه كاهن ، فهل رأيتموه قط يتكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه يتعاطى شعرا قط ؟ وتزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليــه شـيئا من الكذب ؟ فقالوا فى كل ذلك : اللهم لا ، ثم قالوا : فما هو ؟ ففكر فقال : ما هو إلا ساحر . أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ وما الذى يقوله إلا سحر بأثره عن مسلمة وعن أهل بابل . فارتج النادى فرحا وتفرقوا معجبين بقوله ويروى أنه لما اجتمعت قريش عند حضور الموسم قال لهم الوليد : إن وفود العرب ترد فأجمعوا فى محمد رأيا لا يكذب بعضكم بعضا . فقالوا : نقول كاهن ، قال : والله ما هو بكاهن ولا هو بزمزمته ولا سجعه . قالوا : مجنون . قال : ما هو بمجنون ولا بخنقه ولا بوسوسته . قالوا : شاعر . قال : ما هو بشاعر ، قد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضة ومبسوطه ومقبوضه .. ما هو بشعر . قالوا : فنقول : ساحر . قال : ما هو بساحر ولا نفثه ولا عقده . قالوا : فما نقول ؟ قال : ما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا وأنا أعرف أنه لا يصدق . وإن أقرب القول أنه ساحر ، وإن القرآن سحر يفرق به بين المرء وابنه والمرء وأخيه والمرء وزوجته والمرء وعشيرته . فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون منه الناس ، فأنزل الله تعالى فيه من سورة المدثر ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيدا * وجعلت له مـالا ممدودا * وبنين شهودا * ومهدت له تمهيدا * ثم يطمع أن أزيد * كلا إنه كان لآياتنا عنيدا * سأرهقه صعودا * إنه فكر وقدر * فقتل كيف قدر * ثم قتل كيف قدر * ثم نظر * ثم عبس وبسر * ثم أدبر واستكبر * فقال إن هذا إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قول البشر * سأصليه سقر ﴾ الآيات .

ومع هذا الإنكار والإصرار والجحود والبهتان ، كانوا يذعنون لبلاغة القرآن ويعترفون بها ولا ينكرونها أو يجحدونها . سمع أعرابى رجلا يقرأ : ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ فسجد وقال : سجدت لفصاحته.وسمع آخر رجلا يقرأ ﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا ﴾ . فقال : أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام . ويروى عن الوليد بن المغيرة هذا أنه جاء إلى النبى فقرأ عليه شيئا من القرآن فكأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوك إياه لئلا تأتى محمدا لتعرض لما قاله . قال الوليد : قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا . فقال : قل فيه قولا يبلغ أنك كاره له . قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ولا بزجره ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقول شيئا من هذا . والله إن لقوله الذى يقول لحلاوة ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وإن ليحطم ما تحته . قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه . قال : فدعنى أفكر . ثم قال : هذا سحر يؤثر ..

يقول السيوطى فى الإتقان : كان العرب مرة بجهلهم يقولون أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ، مع علمهم أن صاحبهم أمى وليس بحضرته من يملى أو يكتب فى نحو ذلك من الأمور التى أوجبها الجهل والعناء والعجز .

ويروى أن القصائد الجاهلية كانت معلقة على الكعبة ، فأنزلتها العرب لفصاحة القرآن .

وفى حديث إسلام أبى ذر وصف أخاه أنيسا فقال : والله ما سمعت بأشعر من أخى أنيس ، لقد ناقض اثنى عشر شاعرا فى الجاهلية أنا أحدهم . وأنه ذهب إلى مكة وجاءلى بخبر النبى . قلت له : فما يقول الناس ؟ قال : يقولون : شاعر ساحر كاهن ، ولقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعته على قصائد الشعر فلم يلتئم على لسان أحد يدعى أنه شاعر ، إنه لصادق وإنهم لكاذبون .

وقد أسلم جماعة من العرب عند سماع آيات من القرآن كما وقع لجبير بن مطعم . سمع النبى ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور ، قال جبير : فلما بلغ هذه الآيات ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون * أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون * قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين * أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون * أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون * فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين * أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون * أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون * أم عندهم خزائن ربك أم هم

المسيطرون ﴾ . قال جبير : فكاد قلبي حينذاك أن يطير ، وذلك أول ما وقر الإسلام فى قلبه :

وأخرج ابن هشام عن ابن شهاب الزهرى أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله وهو يصلى من الليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا . ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود . فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا . فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته فقال : أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد . فقال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها . قال الأخنس : وأنا والذى حلفت . قال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء . فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به ولا نصدقه .. فقام عنه الأخنس وتركه . جحود وإنكار ، كفر وإصرار ، فكان لا بد من أن يخذل الله قريشا ويخزيهم ليؤمنوا صاغرين . حينئذ كان لا بد من إقامة البرهان على صدق رسالة نبيه ، وحينئذ وقع التحدى بالقرآن هذا التحدى الذى دل على الإعجاز وأنه فوق قدرة البشر أن يأتوا بمثله .

تحدى الله ورسوله العرب بهذه المعجزة الخالدة والكتاب المبين ، تحداهم أول الأمر أن يأتوا بمثله فقال تعالى ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عهدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾وقال تعالى : ﴿ أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون ، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ وقال : ﴿ قال لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ ولم يفعلوا . فكيف عجزوا وتراجعوا حين تحداهم الله بآياته البينات وهم أمة مفطورة على البلاغة والأدب والشعر ، وكانوا أكثر ما يكون خطيبا وأديبا ؟

كيف عجزوا أمام التحدى وباءوا بالخزى والهوان والذلة ، وصغرت أنفسهم وأقدارهم فلم يستطيعوا محاكاة القرآن ومعارضته ؟ والأمر أغرب من ذلك فقد تحداهم الله عز وجل بعد ذلك أن يأتوا بعشر سور من أمثال سور القرآن الكريم فقال ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إلـٰه إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ .

وعجزت قريش وعجز العرب وعاد محمد يتحداهم بسورة مثل سور القرآن الكريم .. سورة واحدة يأتون بها تضارع فى نظمها وبلاغتها وجودتها سورة من سور كتاب الله ، فتلا عليهم قوله تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله ﴾ . وقال : ﴿ وإن كنت فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾ ... ومع ذلك التحدى لم يفعلوا ، لم يجمعوا شعراءهم وخطباءهم وحكماءهم وكهانهم ورجازهم ليقبلوا التحدى .. لم يأت أحد منهم بما يقف أمام القرآن الكريم وسيلة الحذق لينفى عن نفسه وعن قومه عار الخذلان فى معركة التحدى ، بل فى معركتهم مع محمد صلوات الله عليه ، وسجلوا على أنفسهم العجز ، بل لقد سجل القرآن الكريم ذلك على البشر عامة فقال :﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ فبين أن البشر عامة بل الإنس والجن لا يستطيعون ولو عاون بعضهم بعضا أن يقفوا أمام هذا التحدى ، ولا يقدرون على مثل هذه البلاغة التى هى فوق طاقتهم لأنها بلاغة الخالق الأعظم ، ففوق الإنس والجن الملك القادر والمدبر الحكيم الله جل جلاله وعلت قدرته وعظمت حكمته ..

ونفى الله عز وجل عن كتابه كل ما كان يصفه به المكذبون فقال :

﴿ والنجم إذا هوى ... إن هو إلا وحى يوحى ﴾ وقال : ﴿ إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين * ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين * وإنه لتذكرة للمتقين * وإنا لنعلم أن منكم مكذبين * وأنه لحسرة على الكافرين * وإنه لحق اليقين ﴾ .

وهذا مسيلمة أخذ يهذى ويزعم أنه نزل عليه قرآن فبان ضعفه وصغاره وخزية وعاره ، وظهرت عليه الذلة والمسكنة والهوان ، وعرف الناس كذبه وبهتانه ، وباء بغضب من الله .

ويروى أن أبا بكر سأل قوما قدموا عليه من بنى حنيفة عن كلام مسيلمة وما كان يدعيه قرآنا ، فقصوا عليه بعض كلامه ، فقال أبو بكر : سبحان الله ويحكم أن هذا الكلام لم

يخرج عن ربوبية فأين كان يذهب بكم ؟ .

ويصف حسان بن ثابت شاعر الرسول فى شعره نزول القرآن فيقول فيما يقول :

الله أكرمنا بنصر نبيه ... وبنا أقام دعائم الإسلام

يتنابنا جبريل فى أبياتنا ... بفرائض الإسلام والأحكام

يتلو علينا النور فيها محكما ... قسما لعمرك ليس كالأقسام

فنكون أول مستحل حلاله ... ومحرم لله كل حرام

ثم مضت الأيام ولم يرو أن أديبا أو كاتبا أو شاعرا أو مفكرا أو حكيما أو مصلحا أو زعيما أتى بكتاب قال إنه قد عارض به القرآن الكريم ، بل لقد وقف المفكرون فى مختلف العصور من كل جنس ولون وأمة حيال القرآن صاغرين عاجزين ، إلا من أعماه الحقد والحسد والبغى وأضلته الشياطين والعصبية الحمقاء .. كتب المنصفون عن القرآن فى كل عصر مبجلين مكرمين ، وكتب المنصفون من المستشرقين عنه معظمين مكبرين . قال الدكتور موريس الفرنسى : إن القرآن أفضل كتاب أخرجته العناية الإلـٰهية لبنى البشر .. وقال جوستاف لوبون : إن القرآن وما اشتق منه هو إلى الفطرة بحيث يلتئم مع حاجات الشعوب .. وقال آخر : يحتوى القرآن على أسمى المبادئ وأكثرها فائدة وإخلاصا . إلى غير ذلك مما قالوه فى القرآن ومما لا يمكن استيعابه وحصره .

فالإعجاز القرآنى إذاً حقيقة ثابتة ثبوت السماء لا ريب فيها ، العرب فى كل عصر وغير العرب فى كل جيل لم يعارضوا القرآن الكريم.لم يقدروا على هذه المعارضة .لم يأت أحد منهم بشىء قليل أو كثير يقف فى بلاغته أمام بلاغة القرآن الحكيم .

هذا فى اللغة العربية . ولست أقصر أنا الإعجاز عليها وحدها فأقول : اقرأ إن شئت باللغة العربية بلاغات البلغاء وفصاحات الفصحاء ، ثم انظر بسكون قلب وخفض جناح وفراغ لب وجمع عقل وإمعانه فى ذلك ، فسيقع لك الفصل بين كلام الناس وكلام رب العالمين ، وستعلم أن القرآن يخالف كلام الآدميين .

وأين مثل كلام مسيلمة من الكتاب المبين ، ومن كلام رب العالمين ؟ .. أين مثل قوله : « والمبديات زرعا، والحاصدات حصدا ، والذاريات قمحا ، والطاحنات طحنا ، والخابزات خبزا ، والثاردات ثردا ، واللاقمات لقما ، إهالة وسمنا ، ما سبقكم أهل المدر » ومثل قوله : « والليل الدامس ، والذئب الهامس ، ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس » .

أين مثل هذا من آيات القرآن وفصاحته ، ومن سحره وبلاغته ، ومن عظمته وروعته ، ومن سموه وحكمته ؟ أين هو من ذلك النظم العجيب ، والسحر الغريب ، والأسلوب القرآنى المعجز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ؟

ولا أجعل الموازنة قاصرة على الآداب العربية وعلى ما كتب بلغة العرب وحدها ، ولكننا نقول :

إن فى الأمم الكبيرة فلاسفة ومفكرين ومشرعين وأدباء وكتابا وشعراء وخطباء ، ولكل منهم كتب وآثار مدونة مطبوعة أو مخطوطة ، وإنى لأتساءل : هل هناك من هذه الآثار ما يعادل فى أثره وخطره ومنزلته القرآن الكريم بما اشتمل عليه من توجيه صالح كامل للحياة ، وتحديد واضح للمثل الإنسانية العليا ، ومن رسم لأهداف الأفراد والجماعات والشعوب ، ودعوة إلى الحق والعدل والحرية والمساواة والإخاء والمدنية والعلم ، وهل من بينها أثر قامت به شريعة ودين ، ونشأت عليه دولة وحضارة استظل العالم بظلها أجيالا طوالا مثل القرآن الكريم ، وهل وجدت بربك للقرآن شبيها من الكتب وحّد لغة وحفظها وأذاعها فى العالم ، ورفع شأنها وهذب ألفاظها وأساليبها وأحيا فنونا جديدة من الأدب وتأثر الناس ببلاغته ، ووضعت بسببه شتى علوم الدين واللغة والأدب والبلاغة ، يقتبس الأدباء والعلماء والمفكرون منه ثروتهم الأدبية والفكرية ؟ هل تجد فى أدب ما يسمونهم الأدباء العالمين ما تجد فى القرآن الكريم من سمو ورفعة ونبل دعوة وجلال غاية ، وعظمة هدف ورسالة ، ومن دقة تحليل للعواطف والمشاعر والنفوس ، ومن توجيه رفيع للإنسانية كافة ودعم قوى لمبادئ الحرية والمساواة فى الحياة .. كلا وربك بل إن خصائص هذا الفن الأدبى الرائع الكامل لن تجد ما يشبهها باللغات الأخرى فى كتاب غير كتاب الله .. بل إن الكتب السماوية المقدسة : التوراة والإنجيل والزبور لا يمكن أن نوازن بينها وبين القرآن الكريم.فلو كانت قد نزلت معجزة للأنبياء الذين نزلت عليهم لما جعل الله لهم معجزات أخرى تدل على صدق رسالتهم وترشد قومهم إلى أنهم مرسلون من الله .. وهى إنما نزلت للحكمة والهداية والنصح فلم تقم عليها أديان هؤلاء الأنبياء كاملة ، ولم يقصد كذلك بها إعجازا بيانيا خاصا ، وهاك أروع ما فى الكتب السماوية المقدسة بيانا وهو مزامير داود ، خذ أية قطعة منها وليكن المزمور الأول واقرأه بنصه كما فى الكتاب المقدس : « طوبى للرجل الذى لم يسلك فى مشورة الأشرار ، وفى طريق الخطاة لم يقف ، وفى مجلس المستهزئين لم يجلس ، ولكن فى ناموس الرب ومشورته وفى ناموسه يلوح نهارا وليلا فيكون كشجرة مغروسة عند

مجارى المياه والتى تعطى ثمرها فى آونة ، ورقها لا يذبل وكل ما يضعه ينجع » .. ونحن مع تقديرنا لهذا النص الدينى ومع علمنا بأنه مترجم ، نقول إنه ينحو السلوك الإنسانى مسلك الخير ، ولكنا نعود بك إلى ناحية أخرى فى الموازنة وهى أنه شتان ما بين هذه الروح وروح القرآن الحكيم ، فمن المحال الموازنة بين ذلك وبين مثل قوله تعالى : ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ ، أو مثل قوله تعالى : ﴿ ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ﴾ ، أو مثل قوله : ﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ إلى غير ذلك من روائع بلاغات القرآن الكريم .

إنك حين تحلل أثرا أدبيا أو فكريا أو دينيا يجب أن نعرف خصائصه وقيمته وأثره وما يوجه إليه من أهداف وغايات ، وتضعه بعد الدراسة فى منزلته الصحيحة من البيان والأدب والتفكير الإنسانى ، والقرآن كلما تناولناه بالدراسة كان جديدا بكرا يعطيك كل ما تطلبه منه من غذاء روحى وهداية دينية وحكمة إنسانية وتفكير إصلاحى ،جليل مثمر كل الثمار الطيبة فى الأرض والوجود والحياة .

وقد اختلف العلماء والباحثون والناقدون فى سر إعجاز القرآن الكريم .

١ ـــ فذهب النظام إلى أن الإعجاز حقيقة واقعة ، وأن الله جلّت قدرته هو الذى صرف العرب عن معارضته وسلبهم القدرة على مضاهاته .. ولو كان ذلك كذلك لم يكن هناك فائدة للتحدى ولا معنى للإعجاز .

٢ ـــ وقال آخرون : إن الإعجاز سببه ما اشتمل عليه القرآن من الأخبار بالمغيبات ، من مثل قوله تعالى : ﴿ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ﴾ ، وقوله : ﴿ غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين ﴾ ، وقوله : ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ وقوله : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم فى الأرض ﴾ ، وقوله : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فكان جميع هذا كما ذكر القرآن الكريم .. ومن هذا أيضا قوله تعالى : ﴿ سيهزم الجمع ويُولُّون الدُّبُر ﴾ ، وقوله : ﴿ قاتلوهم يعذّبهم الله بأيديكم ويُخْزِهم وينصركم عليهم ويشفِ صدورَ قوم مؤمنين ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ لن يضرُّوكم إلا أذًى وإن يقاتلوكم يولُّوكم الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ ﴾ . ومن ذلك أيضا ما اشتمل عليه القرآن من كشف أسرار المنافقين واليهود وكذبهم ودسائسهم ومكرهم .. ومنه قوله تعالى : ﴿ وإذ يعدكم الله

إحدى الطائفتين أنها لكم ﴾ ، وقوله : ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ ولما نزلت بشر النبى ﷺ بذلك أصحابه ، وكان المستهزئون نفرا بمكة ينفرون الناس عنه ويؤذونه فهلكوا ، وقوله تعالى : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ فكان ذلك على كثرة من رام ضره .

ومن الإخبار بالمغيبات فى رأينا ما ذكره القرآن الكريم من الأمور الكونية والعلمية الدقيقة التى أدى إليها وإلى صدقها العلم الحديث ، ومن مثل ذلك هذه الأمثلة :

(أ) قال تعالى : ﴿ فلا أقسم بالشفق * والليل وما وسق * والقمر إذا اتسق * لتركبن طبقا عن طبق ﴾ فهذا يشير إلى صعود الإنسان إلى الفضاء وركوبه طبقات الجو ، وقد وقع ذلك أخيرا كما أخبر القرآن الكريم .

(ب) وقال تعالى : ﴿ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ﴾ . وقد أثبت العلم الحديث أن النبات فيه ذكر وأنثى ، يتم بينهما التلاقح .

(جـ) وقال تعالى : ﴿ كلما نضجت جلودهم بدَّلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ﴾ وقد أثبت العلم الحديث أن الإحساس فى منطقة الجلد ، فإذا ذهب الجلد بعذاب النار فى الآخرة أعاد الله إلى المعذَّبين جلودهم ليعودوا مرة أخرى إلى الإحساس بالعذاب .

وغير ذلك كثيرا من أشياء أمر الله بها أو نهى عنها ، ثم جاء العلم الحديث فأثبت صدق القرآن وحكمته من ذلك .

٣ ــ ويروى آخرون أن سبب إعجاز القرآن ما اشتمل عليه من قص تاريخ العالم والشعوب والأمم والأنبياء والمرسلين ، والقرون السالفة والشرائع الداثرة ، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب وممن قطع عمره فى تعلم ذلك . فأورد القرآن جميع هذه القصص والتواريخ كلا على وجهه وأتى به على نصه ، مما اعترف العلماء والباحثون بصدقه ، ومما أيدته الكتب السماوية الأخرى وكذلك بحوث العلماء وكشوف الأثريين . فكيف وصل إلى محمد علم ذلك وهو الأمى البدوى الذى لم يتعلم فى مدرسة ولم يختلف إلى أستاذ ولم يقرأ كتابا ؟ وقد كان كثير من أهل الكتاب يسألونه عن أخبار النبيين والمرسلين فينزل عليه من الذكر الحكيم ما يتلو عليهم منه ذكرا ، كقصة موسى والخضر ، ويوسف وإخوته ، وأصحاب الكهف وذى القرنين ، ولقمان وابنه ، ومثل حكم الرجم ، وما حرم إسرائيل على نفسه ، ومثل سؤالهم عن الروح وأشباه ذلك من الأنباء ، وتدبير الكون وخلقه ، وما فى التوراة والإنجيل والزبور وصحف

إبراهيم وموسى مما صدقه فيه البحث والعلم .

٤ ــ ويذهب القاضي أبو بكر الباقلاني صاحب كتاب « إعجاز القرآن » إلى أن وجه الإعجاز ما فى القرآن من النظم والتأليف مما هو خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد فى كلام العرب ، فهو يجعل سر الإعجاز فن فى البلاغة والبيان فى القرآن الكريم .

وذهب الزركشى وبعض المؤلفين إلى أن كل ما ذكره العلماء من أسرار فى ذلك هو وجوه للإعجاز وأسباب له .

وقد ألف فى الإعجاز الكثيرون من مثل : أبى عبيدة والجاحظ والواسطى والرمانى والخطابى والباقلانى والرازى وعبد القاهر وابن أبى الأصبع وسواهم . وألف فيه كذلك فى العصر الحديث : مصطفى صادق الرافعى وغيره .

ولا شك أننا حين نريد أن نتعرف إلى اسرار الإعجاز ، ينبغى ألا نغفل الجانب الأدبى فى قضية الإعجاز ، ولا الجانب العلمى الدقيق الذى ورد فى القرآن منذ أربعة عشر قرنا وأيده العلم الحديث فى كل ما ذكره ، ولا الجانب الفكرى والإنسانى الذى يرتفع بمنزلة القرآن الكريم على كل كتاب وكل أثر ولا الجانب الروحى الذى انفرد به القرآن فى هداية الناس وإرشادهم وإنقاذهم من الحيرة والضلال .

ويجب أن نضيف إلى ذلك أن إعجاز القرآن فى هذه الشريعة الكاملة التى نزل بها ، والتى تصلح دائما وأبدا فى كل زمان ومكان ، والتى وقف المفكرون والمشرعون والمصلحون حيال مبادئها السامية النبيلة موقف الإعجاب والتقدير ..

إن إعجاز القرآن ببلاغته وروعته وجدته ، وفى شرف معانيه ومقاصده ومراميه وأغراضه ، وفى جلال دعوته وصدق شريعته وسمو حكمته ، وفى عظمة تصويره للحياة الإنسانية فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، وفى سمو روحه وجلال أثره وخلوده على مر الأيام .

وإن إعجازه لهو كذلك سر من الأسرار التى استأثر الله عز وجل بعلمها ولم نعلم منه إلا القليل ، وكلما مرت الأيام ابتدى لنا وجه جديد من وجوه الإعجاز وأسراره .

وإذا كان البحث فى إعجاز القرآن قد أدى بالعلماء العرب قديما إلى الكشف عن علمين جليلين ، هما علم البلاغة العربية ، وعلم النقد الأدبى .. فأولى بنا اليوم أن ننطلق فى ميادين البحث عن الإعجاز من جديد ، وأن يقودنا ذلك مرة أخرى إلى

الكثير من الكشوف العلمية والأدبية .

ونرى أن توافر العلماء والمختصين على البحوث القرآنية كل فى ناحية اختصاصه ، قد يؤدى بنا إلى جديد من القول ومن أسرار الإعجاز .

وإذا كانت البلاغة العربية قد وقفت فى أول طريق البحث عن الإعجاز ثم لم تمض بعد ذلك خطوة أخرى ، فأولى بنا أن نسير فى الطريق لنصل إلى غاياته البعيدة .

ومن الجلى فى الأمر أن القرآن قد أيد مرورُ الأجيال إعجازه ، وهو لا كتاب سماوى بعده ، وسوف يستمر القرآن وتستمر قضية إعجازه ما بقيت الأرض والسماء ..

إنك غلام معلّم

قال عبد الله بن مسعود الهذلى لرسول الله ﷺ بعد البعثة ، وكان ابن مسعود غلاما صغيرا :

ـــ يا رسول الله ، علمنى من هذا الكلام ، من هذا القرآن .

فمسح رسول الله ﷺ رأسه وقال له :

ـــ (إنك غلام معلّم) ..

قال ابن مسعود : فلقد أخذت من رسول الله سبعين سورة ، ما نازعنى فيهـا بشر .

و كان ابن مسعود الهذلى من بنى هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر ، وكان حليف بنى زهرة ، كان أبوه مسعود قد حالف فى الجاهلية عبد بن الحارث بن زهرة .

وكانت أمه من هذيل أيضا ، وهى أم عبد بنت عبد وُدّ الهذلى .

وكان ابن مسعود وهو غلام يافع يرعى فى غنم عقبة بن أبى معيط .

وعاش ابن مسعود فى مكة ، ثم كانت البعثة النبوية الشريفة ، فأسلم وكان من السابقين الأولين . قال ابن مسعود : لقد رأيتنى سادس ستة ما على ظهر الأرض مسلم غيرنا .

وكان أول من جهر بالقرآن فى مكة بعد رسول الله ﷺ .

يقول ابن هشام : اجتمع يوما أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا :

ـــ والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعهم ؟

فقال ابن مسعود :

ـــ أنا .

فقالوا :

ـــ إنا نخشاهم عليك ، إنا نريد رجلا له عشيرة تمنعه من القوم إن أرادوه .

فقال :

ـــ دعونى فإن الله سيمنعنى .

فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام فى الضحى وقريش فى أنديتها حول الكعبة ، حتى قام عبد الله عند المقام فرفع صوته وهو يقول :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ الرحمٰن *
عَلَّم القرآن *
خَلَقَ الإنسان *
علَّمهُ البَيَان ﴾ .

فاستقبلها فقرأ بها ، فتأملوا فجعلوا يقولون : ما يقول ابن أم عبد ؟ وهم يتعجبون .

ثم قالوا ـــ بعضهم لبعض ـــ : إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد .

فقاموا فجعلوا يضربون فى وجهه وجعل يقرأ ، حتى بلغ من السورة ما شاء الله أن يبلغ .

ثم انصرف إلى أصحابه ، وقد أثروا بوجهه ، فقالوا : هذا الذى خفنا عليك ، فقال :

ـــ ما كان أعداء الله قط أهون علىَّ منهم الآن ، ولئن شئتم غاديتهم بمثلها غدا .

فقالوا :

ـــ حسبك ، قد أسمعتهم بعض ما يكرهون .

وهناك رواية أخرى ذكرها ابن الأثير فى « أسد الغابة » (٤١٠ : ٤) وفيها أن المقداد ابن عمرو « أو ابن الأسود » كان أول من أظهر الإسلام بمكة . قال ابن مسعود : أول من أظهر الإسلام بمكة سبعة منهم المقداد.. ويلقب بصاحب رسول الله ﷺ ومات فى خلافة عثمان عن سبعين عاما (٥١١ : ٤) « أسد الغابة » .

على أنه لا تناقض كما يبدو بين هذه الرواية والرواية السابقة التى تقول : إن ابن مسعود كان أول من جهر بالقرآن فى مكة ، لأن تلك الرواية تقول : كان المقداد أول من جهر بالإسلام فى مكة ، وهذه تقول : إن ابن مسعود كان أول من جهر بالقرآن فى مكة . هذا من جانب ومن جانب آخر ففى الرواية التى تقول إنه المقداد ، ورد عن ابن مسعود أن أول من أظهر الإسلام بمكة سبعة منهم المقداد بن عمرو ، أو ابن الأسود ، نسبة إلى الأسود ابن عبد يغوث الزهرى ، لأن المقداد حالفه فتبناه الأسود فنسبه إليه (٤٠٩ : ٤ أسد الغابة) .

أخذ رسول الله ابن مسعود بعد إسلامه ، فضمه إليه ، وكان ابن مسعود يخدم رسول الله ، فكان يلج عليه ويلبسه نعليه ويمشى أمامه ويستره إذا اغتسل ويوقظه إذا نام .

ويروى أن ابن مسعود هاجر الهجرة الأولى والثانية إلى الحبشة .

ويروى أنه ما كان أحد من المسلمين من خارج مكة يرى ابن مسعود إلا أنه رجل من

أهل بيت النبى ﷺ ، لما كان يرى من دخوله ودخول أمه على رسول الله ﷺ .

وعن عبد الرحمن بن يزيد قال : أتينا حذيفة فقلنا : حدثنا بأقرب الناس هديا وسمتا برسول الله صلوات الله وسلامه عليه فنأخذ عنه ونسمع منه ، قال : كان أقرب الناس هديا برسول الله صلوات الله وسلامه عليه ابن مسعود . ولقد علم المحظوظون من أصحاب محمد أن ابن أم عبّد هو من أقربهم إلى الله زلفى إلى الله .

آمن ابن مسعود برسول الله ، وقال فيه الرسول الأكرم : (لو كنت مؤمرا أحدا من غير مشورة لأمّرت ابن أم عبّد) .

شهد ابن مسعود جميع معارك الإسلام فى عهد الرسول وأبى بكر وعمر .

وكان يلازم مجالس رسول الله يطلب العلم ويأخذه من صاحب الرسالة العظمى ، وهو يقول :

ـــ لقد علم أصحاب محمد أنى أعلمهم بكتاب الله وما أنا بخيرهم ، ولو أنى أعلم أن أحدا أعلم بكتاب الله منى تُبلغنيه الإبل لأتيته .

وما كان أحد من أصحاب رسول الله ﷺ ينكر على ابن مسعود ذلك ، وفى عهد الخليفة المسلم عمر بن الخطاب بعث عمر بن الخطاب إلى الكوفة بعمار وابن مسعود وكتب إليهم :

إنى قد بعثت إليكم عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا ، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله ومن أهل بدر ، فاقتدوا بهما وأطيعوا واسمعوا قولهما ، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسى .

وكان الصحابة يقولون : ما رأينا رجلا أحسن خلقا ، ولا أرفق تعليما ، ولا أحسن مجالسة ، ولا أشد ورعا من ابن مسعود . فقال لهم على بن أبى طالب : أنشدكم الله أهو الصدق فى قولكم ؟ قالوا : نعم . قال : اللهم اشهد أنى أقول مثل ما قالوا وأفضل .

وكان عمر بن الخطاب يقول فيه : كنيف مُلئَ علماً .

وكان ابن مسعود إذا نام الناس قام فقرأ بالقرآن ، فيسمع له دوىّ كدوىّ النحل حتى يصبح .

وعاش ابن مسعود فى الكوفة ، وفى عهد الخليفة عثمان بن عفان عاد إلى المدينة ، وكان يتجنب الخلفاء الراشدين وعطاءهم . ورأى بعض الصحابة فى نومه رسول الله يقول لابن مسعود : يا ابن مسعود (هلمَّ إلىّ فقد جفيت بعدى) فأدرك أنه قد حان أجله . وفى

مرضه عاده الخليفة عثمان فقال له : ما تشتكى ؟

قال ابن مسعود : ذنبى .

قال الخليفة : فما تشتهى ؟

قال ابن مسعود : رحمة ربى .

قال الخليفة : ألا آمر لك بطبيب ؟

قال ابن مسعود : الطبيب أمرضنى .

قال الخليفة : ألا آمر لك بعطاء ؟

قال ابن مسعود : لا حاجة لى فيه .

قال الخليفة : يكون لبناتك .

قال ابن مسعود : أتخشى على بناتى الفقر ؟ إنى أمرت بناتى أن يقرأن كل ليلة « سورة الواقعة » فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من قرأ الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا) .

وتوفى ابن مسعود عام اثنين وثلاثين للهجرة ودفن بالبقيع ، وصلّى عليه الخليفة عثمان ، ودفع الخليفة إلى عبد الله بن الزبير عطاءه وكان قد امتنع من أخذه عامين ورعاً وزهدا فدفعه ابن الزبير إلى ورثته .

ولما مات ابن مسعود نعى إلى أبى الدرداء بالشام فقال : ما ترك بعده مثله .

وحقا ، ما ترك ابن مسعود بعده مثله .

وتوفى ابن مسعود عن نحو ستين سنة ، وكان ميلاده بعد زواج رسول الله ﷺ من خديجة بنحو أربع سنين ، أى فى العام التاسع والعشرين من ميلاد رسول الله ﷺ .

رحمه الله وأجزل مثوبته .

عاصم بن ثابت

عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح « قيس » الأنصارى الأوسى من أعلام الإسلام وأبطاله .

تزوج عمر بن الخطاب ابنته ، ومنها كان ابنه عاصم بن عمر بن الخطاب .

وأبلى عاصم فى سبيل الإسلام خير البلاء فى بدر وأحد .

وبعد أحد قدم على رسول الله فى المدينة رهط من هذيل ، وهم بنو لحيان ، فقالوا :

يا رسول الله إن فينا إسلامافابعث معنا نفرا من أصحابك يفقهوننا فى الدين ، ويقرئوننا القرآن ، ويعلموننا شرائع الإسلام .

فبعث رسول الله ﷺ معهم ستة من أصحابه :

١ ــ عاصم بن ثابت .. وأمّره رسول الله ﷺ كما يقول ابن الأثير (٣ : ٧٣ أسد الغابة) وهو الذى ذكر الحى من هذيل . ويقول ابن هشام فى السيرة : إن الرهط من عضال والقارة . ويقول ابن الأثير : إن الرسول بعثهم سرية (٣ : ٧٣ أسد الغابة) .

٢ ــ مرثد الغنوى ، ويقول ابن هشام إنه كان رئيس القوم .

٣ ــ خالد بن البكير الليثى .

٤ ــ خبيب بن عدى .

٥ ــ زيد بن الدثنة .

٦ ــ عبد الله بن طارق .

وخرجوا مع الرهط ، فلما وصلوا « الرجيع » وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز بين عسفان ومكة ، غدر الرهط بهم ، وغشوا المسلمين بالسيوف ، وهم ومن انضم إليهم من قومهم وكانوا قريبا من مائة رجل من الرماة ، فلما أحاطوا بالمسلمين الستة قالوا لهم : لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلا .

فقال عاصم لأصحابه : أما أنا فلا أنزل فى جوار مشرك .. اللهم فأخبر عنا رسولك .

وقاتلهم عاصم ومن معه فقاتلوهم ورموهم ، وقتل عاصم فى آخر شوال من العام

الثالث للهجرة النبوية ، وقتل مرثد وخالد ، واستسلم خبيب وزيد وابن طارق ، فأسروهم .

وخرج بهم المشركون إلى مكة ليبيعوهم فيها ، فلما كانوا بالظهران ـــ وادى فاطمة ـــ نزع عبد الله بن طارق يده من الحبل وأخذ سيفه ليقاتل المشركين ، فرموه بالحجارة فقتلوه ،وشدوا وثاق زيد وخبيب وقدموا بهما مكة فباعوهما لقريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة .

أما زيد فاشتراه صفوان بن أمية ، فقتله بأبيه أمية بن خلف الذى قُتل فى بدر ، وحين قُدِّم زيد ليقتل سأله أبو سفيان : أنشدك بالله يا زيد أتحب أن محمدا عندنا الآن فى مكانك تضرب عنقه ، وأنك فى أهلك ؟ فرد عليه زيد فى عزة المسلم وجلاله ويقينه : والله ما أحب أن محمدا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، وأنى جالس فى أهلى . قال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا .. وقتلوا زيدا .

وأما خبيب فحبسوه عند بنى الحارث لأنه كان قتل أبا إهاب التميمى ، وقدموه لُيقتل به ، فصلَّى ركعتين قبل أن يصلب ، ولما رفعوه على خشبة قال : اللهم احصهم عددا، واقتلهم بددا ، ولا تغادر منهم أحدا . وقتلوه رحمه الله .

وأرسلت قريش رسلا لتحضر رأس عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح من الرجيع ،أو ليحضروا شيئا من جسده . وكان عاصم فى بدر قتل عقبة بن أبى معيط الأموى ، كما قتل مسافع بن طلحة وأخاه كلاب بن طلحة ، رمى كلا منهما بسهم ، فعاد كلاب إلى مكة وقال لأمه سلافة : سمعت رجلا حين رمانى بسهم يقول : خذها وأنا ابن الأقلح . فنذرت أمه سلافة إن أمكنها الله من رأس عاصم لتشربن فيه الخمر . فلما قتل عاصم يوم الرجيع أرادت قريش إحضار رأسه لتشرب فيه « سلافة » خمرا .

وسارت الرسل حتى أتوا المكان ، فلما أرادوا أن يأخذوا رأس عاصم ليبيعوه من سلافة ، بعث الله سبحانه وتعالى على جسد عاصم سحابة مثال الظلة من النحل فحجبت جسده ، فلم يستطع المشركون الوصول إليه ولم يقدروا على شىء منه وعجزوا عن مقصودهم ، فقال بعضهم لبعض : إن النحل سيذهب إذا جاء الليل ، فبعث الله مطرا ، وجاء سيل عظيم حمل جثمانه فلم يوجد له أثر . وسمِّى عاصم ـــ حمىّ الدبر ـــ النحل .

وكان ذلك استجابة من الله عز وجل لدعاء عاصم إياه ، وكان عاصم قد عاهد الله أن لا يمس مشركا ، ولا يمسه مشرك . فحماه الله تعالى بالدبر بعد وفاته .

هزت هذه الحادثة الشنيعة وجدان رسول الله ﷺ ، فكان يقنت ويدعو ويلعن عصلا وذكوان وبنى لحيان[1] شهرا ، وقال فى ذلك شعراء الرسول ﷺ شعرا كثيرا ، بل كان رجز رسول الله يوم الخندق : (اللهم العن عصلا والقارة) .

وبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى فدائيا من أكرم وأعظم الفدائيين فى الإسلام (ــ ٥٩ هـ) فأنزل جثمان خبيب من حيث صلب ، ولما نزلت جثته لم يرها عمرو ولا أحد بعد ذلك فكأنما ابتلعتها الأرض .

ويقول الطبرى : إن الرسول أمره بقتل أبى سفيان ، لكنه والأنصارى الذى كان معه لم يستطيعا ذلك لأن أهل مكة عرفوهما (٢ : ٢١٦ ــ ٢١٨ الطبرى ــ مطبعة الاستقامة بالقاهرة) .

وعمرو هذا هو الذى بعثه رسول الله ﷺ سنة ست من الهجرة بكتاب إلى النجاشى يدعوه فيه إلى الإسلام ، وجعله وكيلا عنه ليعقد له على أم حبيبة بنت أبى سفيان (٤ : ٨٦ أسد الغابة) وليكلف النجاشى بأن يبعث له فى المدينة المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة ، وقدم بهم عمرو بن أمية فى السفينة التى حملهم النجاشى فيها (٢ : ١٢٦ ــ أسد الغابة) .

جزى الله صحابة رسول الله ﷺ عنه وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

---

(١) بسبب هذه الحادثة كانت غزوة بنى لحيان فى جمادى الأولى سنة ٦ هـ راجع (٣/٤٤٦) سيرة رسول الله ﷺ لخفاجى .

لست منك ولست منى

ـــ يا أبت إليك عنى ، لست منك ولست منى .

ـــ ولم يا بنى ؟

ـــ إنى أسلمت وجهى لله ، وآمنت برسالة محمد بن عبد الله .

ـــ أى بنى ، وما رسالته ؟

ـــ إنها الطهر والتوحيد ، والعفة والبر والخير ، وأن تحب للناس ما تحبه لنفسك ، إنها الصلاة ، والصيام ،والزكاة ، والحج . إنها شهادة أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمدا رسول الله .

ـــ أى بنى ، فدينى دينك .

وأسلم الأب .

* * *

ـــ أى صاحبتى ـــ زوجتى ـــ إليك عنى ، لست منك ولست منى .

ـــ ولم أيها الزوج .. أيها الرجل .. أيها الشريك ؟

ـــ إنى أسلمت وجهى لله ، وآمنت برسالة محمد بن عبد الله .

ـــ وما رسالة محمد ؟

ـــ إنها العفة والأمانة والصدق والإحسان ، وإنها الخير وصلة الرحم والبر والإيمان ، إنها التوحيد خالصا لله رب العالمين .

ـــ إذًا فدينى دينك .

وأسلمت المرأة الزوجة والشريكة والصاحبة وعادت الزوجة لتستدرك على زوجها وهى تقول :

ـــ أعلىَّ خوف من ذى الشرى ـــ صنم لهم ـــ ؟

ـــ لا ، أنا ضامن لذلك .

* * *

ـــ يا أمى إليك عنى لست منك ولست منى .

ـــ ولم يا بنى ؟ أعقوقا وإثما وطغيانا ؟

ـــ لا ، ولكنى أسلمت وجهى لله ، وآمنت برسالة نبى الإسلام ، آمنت بالله رب العالمين :

ـــ وبماذا أمرك محمد ؟

ـــ إنه يأمر بالصدقة والإحسان والزكاة والصيام والصلاة والحج ، والرفق والشفقة ، وبالإيمان بالله والملائكة والكتب والرسل أجمعين .

ـــ إذًا فديني دينك يا بنى .

وأسلمت الأم .

* * *

ـــ أى دوس ، إليكم عنى ، إنى آمنت برسالة محمد .

ـــ وما رسالة محمد ؟

ـــ هى ما يقوله القرآن الكريم : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرِّق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ .

ـــ إذًا فديننا دينك إن أحللت لنا الربا .

قال : لا أملك لكم من الله من شيء ، وما أحل لكم حراما ولا أحرم حلالا .

كان ذلك المتحدث هو الطفيل بن عمرو بن طريف الأزدى الدوسى ، وكان يلقب ذا النون ، وكان شريفا سيدا فى قومه الدوسيين يستمعون له ، ويأتمرون بأمره .

وعاد الطفيل إلى رسول الله ﷺ بمكة ، فقال :

ـــ يا رسول الله ، إنه قد غلبنى على دوس الربا ، فادع الله عليهم .

فقال صلوات الله وسلامه عليه : (اللهم اهد دوسا إلى الإسلام) ، والتفت إلى الطفيل ، وقال ﷺ له : (ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم) .

ورجع الطفيل ، فلم يزل بأرض قومه دوس يدعوهم إلى الإسلام ، حتى هاجروا إلى رسول الله ﷺ إلى المدينة يبايعونه على الإسلام .

ويحدث الطفيل بقصته مع الإسلام والرسول فيقول :

قدمت مكة ورسول الله بها يدعو الناس إلى الإسلام ، وقريش تكفر به وتصدّ عنه وتفتن أصحابه وتؤذيهم فى أنفسهم وأموالهم وحرماتهم .

ومشى إلى رجال من قريش فقالوا :

ـــ يا طفيل ، إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل (محمد) بين أظهرنا ، قد قطع الرحم وفرّق الجماعة ومزّق الشمل ، وإنما قوله كالسحر يفرق به بين الرجل وأبيه وبين الرجل وأخيه وبينه وبين زوجه ، ونحن إنما نخشى عليك وعلى قومك فلا تكلمه ولا تسمع منه .

ويقول طفيل : فوالله ما زالوا بى حتى عزمت وأجمعت ألا أسمع منه شيئا ولا أكلمه ، وذهبت فحشوت أذنى قطنا خوفا أن يصل كلامه إلى ، وأنا أريد ألا أسمعه .

قال طفيل : وغدوت إلى المسجد الحرام فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى عند الكعبة .
قال الطفيل : فقمت قريبا منه فأبى الله إلا أن يسمعنى قوله ، فسمعت كلاما حسنا ، فقلت فى نفسى : ثكلتنى أمى والله إنى لرجل شاعر لبيب ما يخفى علىَّ الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ فإن كان الذى يقوله يأتى به حسنا قبلته ، وإن كان قبيحا تركته .

قال طفيل : فمكثت بجواره حول الكعبة حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فاتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت : يا محمد إن قومك قالوا لى كذا وكذا ، ثم إن الله أبى إلا أن أسمع قولك فسمعت قولا حسنا ، فاعرض علىَّ أمرك ، فعرض علىَّ رسول الله الإسلام وتلا علىَّ القرآن ، فوالله ما سمعت قولا قط أحسن منه ولا امرأً أعدل منه .. فأسلمت وقلت : سأعود إلى قومى وأدعوهم إلى الإسلام ، وتوجهت إلى الله أسأله أن يعيننى عليهم وأن يفتح قلوبهم لما أدعوهم إليه .. (فلأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حُمر النّعم) .

ثم يمَّمت شطر قومى فاستقبلنى الناس وأنا أهبط إليهم من الثنية المحيطة بمحلتهم ، فلما دخلت الحى دعوت أبى فأسلم ، ودعوت زوجتى ثم أمى فأسلمتا ، ودعوت دوسا فأبطأوا عن الإسلام وغلبنى عليهم الربا ، فلما دعا رسول الله لهم بالهداية عدت فدعوتهم إلى الإسلام ولم أزل أدعوهم حتى آمنوا به وصدقوا برسوله ﷺ ، وأعزهم الله بالدين والقرآن .

وهكذا كان الطفيل ، وهكذا عاش فى ظلال الإسلام ..

شهد بدرا وأحدا وغزوة الخندق ، وقدم على رسول الله بمن أسلم معه من قومه ولحقوا جميعا برسول الله ﷺ بخيبر ، فأسهم صلوات الله وسلامه عليه له ولهم مع المسلمين .

ولم يزل الطفيل مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه حتى فتح الله عز وجل عليه مكة ، وبعد فتح مكة قال طفيل : يا رسول الله ابعثنى إلى ذى الكفّين ــ صنم ــ حتى أحرقه .

فبعثه رسول الله ﷺ إليه ، فأوقد الطفيل نارا وألقاه فيها واحترق ذو الكفين وكان من خشب وأخذ طفيل يقول وهو يحرقه :

يا ذا الكفين لست من عبادكا
ميلادنا أقدم من ميلادكا
أنا حشوت النار فى فؤادكا

ورجع الطفيل إلى المدينة فكان مع رسول الله ﷺ حتى صعدت روحه إلى الرفيق الأعلى صلوات الله عليه وسلامه ، وارتدت العرب وقاتلهم أبو بكر قتال الأبطال ، وخرج الطفيل مع المسلمين يحارب المرتدين مجاهدا أهل الردة حتى فرغوا من المرتدين فى نجد واليمامة .

ثم خرج إلى الشام لقتال الروم واشترك فى معركة اليرموك ، وصمد صمود الأبطال ، وقتل فى موقعة اليرموك عام ١٣ هـ فى خلافة عمر بن الخطاب ، وبذلك مات الطفيل الأزدى الدوسى شهيدا فى سبيل الله ، واستحق بذلك البشرى برضوان الله ورحمته فى الأولى ويوم الدين .

سلطان العلماء

الإمام أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام شيخ الإسلام وسلطان العلماء (٥٧٧ ـــ ٦٦٠ هـ) من أشهر الأعلام المسلمين فى عصره ، عصر الدولة الأيوبية وأول عصر المماليك .

نشأ فى دمشق وتعلم فى حلقاتها العلمية ، ودرس على كبار علمائها ومحدثيها وفقهائها وكان من أساتذته فخر الدين بن عساكر وسيف الدين الآمدى .

وعلت مكانته العلمية وارتفعت منزلته ، وعهد إليه بالتدريس والقضاء والفتيا والخطابة ، وكثرت حلقاته العلمية ، ومن تلامذته أعلام عصره وفى مقدمتهم ابن دقيق العيد (٦٢٥ ـــ ٧٠٢ هـ) وهو الذى لقب أستاذه بسلطان العلماء .

وصار العز بن عبد السلام إمام عصره فى الشجاعة والجرأة والورع والقيام فى الحق .

وترك مؤلفات كثيرة منها : شرح الأسماء الحسنى ، وشجرة المعارف ، وتفسير مختصر ، ومختصر النهاية ، ومؤلفات أخرى عديدة قيمة ..

ولما توفى الإمام عز الدين بن عبد السلام فى التاسع من جمادى الأولى عام ٦٦٠ هـ ، خرج السلطان بيبرس والأمراء والشعب يشيعون جنازته ، وحزن عليه السلطان الملك الظاهر بيبرس حزنا شديدا ، وحمل نعشه على كتفه وهو يقول : لا إلٰه إلا الله ، إن العز بن عبد السلام لم يتفق موته إلا فى دولتى .

مواقف خالدة : وللإمام العز مواقف خالدة فى تاريخ الإسلام .

ولقد عاش الإمام العز بن عبد السلام فى عصر حافل بالأحداث ، عصر الدولة الأيوبية وأول عصر المماليك ، عصر الحروب الصليبية وغزو التتار للعالم الإسلامى ، عصر الجهاد الإسلامى من أجل حرية وتحرير التراب الوطنى الإسلامى ، ومن أجل مجد الإسلام وعزة المسلمين .

ويؤثر عن الإمام العز بن عبد السلام قبل هجرته من دمشق أن سلطان بلده الصالح إسماعيل استنجد بالصليبيين ضد سلطان مصر الملك الصالح نجم الدين أيوب ،

فغضب الشيخ غضبا شديدا وأسقط اسم سلطان بلده من الخطبة وأعلن الخصومة له ، فعزله السلطان من جميع مناصبه .

ثم أرسل إليه يغريه بإعادته إلى ما كان عليه ، وإلى أكثر مما كان عليه إن اعتذر للسلطان وقبّل يديه أمام الناس .

فقال الشيخ للرسول : يا مسكين ، أنا لا أرضى أن يقبل سلطانكم يدى ، أنت فى واد وأنا فى واد .

وخرج الشيخ مهاجرا إلى مصر عام ٦٣٩ هـ .. فاستقبله السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب استقبالا حافلا وولاه خطابة مصر وقضاءها .

بين سلطان وعالم :

وفى يوم عيد وكان السلطان فى القلعة ، صعد الشيخ إلى القلعة ليهنئه بالعيد فشاهد السلطان وقد أبطرته النعمة ، والأمراء تقبل الأرض بين يديه كأنه إلـه يعبد من دون الله .

فصاح بالسلطان : يا أيوب ما حجتك عند الله إذا قال لك : ألم أبوئ لك ملك مصر والمعاصى ترتكب علنا بجوار قصرك ، وأنت تتقلب فى نعمة هذه المملكة ؟

فوجم السلطان ولم ينبس ببنت شفة .

وعاد الإمام إلى تلاميذه فسأله أحدهم : كيف كان حالك مع السلطان ؟ قال : أردت أن أنصحه لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه .

فقال له التلميذ : يا سيدى أما خفته ؟

فقال الشيخ : والله يا بنى لقد استحضرت عظمة الله تعالى ، فصار السلطان أمامى كأنه ذرة صغيرة ..

ومن مواقفه الخالدة أيضا أن السلطان غضب عليه يوما فبعث إليه برسالة مضمونها : لا تفت فى الناس ولا تجتمع بأحد والزم بيتك .

ووصلت الرسالة مع رسول خاص إلى الشيخ ، وقرأها ، ثم التفت إلى الرسول قائلا :

ـــ الحمد لله ، إن ذلك من النعم الجزيلة علىّ الموجبة للشكر لله عز وجل على الدوام ، فأما الفتيا فإنى والله كنت متبرما منها كارها لها ، أعتقد أن المفتى على شفير جهنم،ولولا أنى أعتقد أن الله أوجبها على لما قمت بها . وأما ترك اجتماعى بالناس ولزوم

بيتى فأمرهما إلى الله تعالى ، إن شاء فعلت وإن شاء لم أفعل ، وإن من سعادتى لزوم بيتى وتفرغى لعبادة ربى ، والسعيد من لزم بيته وبكى على خطيئته واشتغل بعبادة الله تعالى ، وإن هذا لهدية من الله تعالى إلىّ أجراها على يدى السلطان وهو غضبان وأنا بها فرحان .

وفى عهد السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب زاد المماليك قوة ، وكثر نفوذهم فى الدولة واستبدادهم بالشعب .

فغضب الشيخ وقال : إن هؤلاء الأمراء الأتراك أرقاء بحسب الشرع للشعب الذى هو سيدهم ، وما زال حكم الرق مستصحبا عليهم لبيت مال المسلمين ، ولا بد من بيعهم وصرف ثمنهم فى وجه الخير ومصالح المسلمين .

بيع الأمراء :

وحاول السلطان والأمراء استرضاء الشيخ فأبى وأصر على رأيه ، وأن ينادى عليهم بالبيع ويقبض ثمنهم ، وإلا فإنه سيعزل نفسه من منصب القضاء .

ولما أغلظ السلطان عليه وأنكر صنيعه ، غضب الشيخ وخرج مهاجرا من مصر وسار قليلا والشعب من ورائه ، فركب السلطان بنفسه واسترضاه وطيّب قلبه .

فعاد وعقد مجلسا حضره السلطان والأمراء ، ونادى الشيخ عليهم بالبيع واحدا واحدا وغالى فى ثمنهم ، فدفعوا له كل ما قدره من مال ، فأخذه الشيخ وصرفه فى وجوه الخير ، وأعتق الأمراء الأرقاء ومنحهم حق الحرية .

وجاهد الشيخ ومعه أعلام عصره من العلماء ، وخاضوا غمار معركة المنصورة عام ٦٤٨ هـ ضد الصليبيين ، وانتصروا على الصليبيين انتصارا مؤزرا ، وأسر لويس التاسع وجيشه ، وحررت أرض مصر من دنس الاستعمار الصليبى .

هذا هو الإمام العز بن عبد السلام،صلابة فى الحق وكرها للباطل والمبطلين . وعندما توفى الإمام العز فى حكم الملك الظاهر « بيبرس » سلطان مصر ، قال السلطان لبعض خواصه : « اليوم استقر ملكى ، لأن هذا الشيخ لو أمر الناس بالثورة لانتزع الملك منى » .

ومات الشيخ بعد أن ترك صفحات بيضاء من العزة والكرامة والوطنية والإباء والنضال من أجل حرية الوطن وعزته ومجده .

ابن قيّم الجوزية

ابن القيم أو ابن قيم الجوزية ، شيخ الإسلام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن سعد الزرعى ، ثم الدمشقى ، من أعلام الإسلام وأئمته وكبار شيوخه .

كان أبوه قيم المدرسة الجوزية التى أنشأها الإمام ابن الجوزى ــ ٥٩٧ هـ بسوق القمح بدمشق ، فقيل له ابن القيم أو ابن قيم الجوزية .

تخرج على والده وعلى شيوخ عصره ، ودرس العلوم الإسلامية والعربية ونبغ فيها . أخذ الأصول والفقه على يد شيخه الصفى الهندى ، وعلى كمال الدين الزملكانى ٧٢٧ هـ وعلى شيخ الإسلام ابن تيمية ــ ٧٣٨ هـ ــ الذى لقيه عام ٧١٢ هـ وهى السنة التى عاد فيها الإمام ابن تيمية من مصر إلى دمشق فلازمه واتبع مذهبه وانتصر له .

وعلم ابن القيم فى الجوزية ، ودرس بالمدرسة الصدرية أيضا ونبغ فى الكلام والأصول والتفسير ، وسار على المذهب الذى كان يسير عليه شيخه ابن تيمية وهو مذهب السلف من التمسك بالكتاب والسنّة وعدم تأويل نصوصهما ، ويسمى مذهب أهل السنة والجماعة ، ويعتمد ابن القيم على الكتاب والسنة ويأخذ بظاهرهما دون تأويل أو مجاز .

حبس ابن القيم مرارا فى سبيل آرائه التى هى فى جملتها آراء أستاذه الإمام ابن تيمية ، وكان العصر ــ عصر المماليك ــ ضد مذهبه ومذهب شيخه ، وتوفى أستاذه عام ٧٢٨ هـ فظل من بعده ينتقل من حال إلى حال حتى استأثرت به رحمة الله عام ٧٥١ هـ .

وفى تلخيص آراء ابن القيم يقول هو نفسه فى كتابه « مدارج السالكين »[(١)] .

ــ ونحن ندين بالقدَر وإن سمى جبرا ، وندين بإثبات الصفات وإن سمى تجسيما ، وندين بإثبات علوّ الله على عرشه فوق سماواته وإن سمّى تحيُّزا أو جهة ، وندين بإثبات وجهه الأعلى ويديه المبسوطتين وإن سمّى تركيبا ، وندين بأنه يرى

---

(١) ص ٢٥٨ جزء ٣

بالأبصار عيانا حقيقة من لقائه وإن سمّى ذلك تشبيها ، وندين بحب أصحاب محمد وإن سمّى نصبا . وكان الإمام ابن تيمية يقول فى شعره :

إن كان نصبا حب صحب محمد فليشهد الثقلان أنى ناصبى

ففى آيات الصفات نرى أن ابن القيم يطلقها على الله تعالى بمعناها الحقيقى من غير تفويض ، بينما ذهب الصابونى فى كتابه« عقيدة السلف » وابن خلدون فى « المقدمة » والرازى فى كتابه « أساس التقديس » إلى إطلاقها على الله تعالى بمعناها الذى يليق بذاته .

ويستدل على وجود الله تعالى بقدرته فى السماء والأرض وفى أنفس الناس .

ويرى أن الله يجب أن يتصف بكل كمال ، ويتنزه عن كل نقص مستدلا على صفات الكمال بالعلم وإتقان صنعه .

ويرى أن أفعاله تعالى كلها خير لا شر فيها أصلا ، ويذهب إلى القبح والحسن العقليين ، وأن التكليف لا يكون إلا بعد البعثة .

وعلى الجملة فهو يذهب مذهب السلف .. مذهب شيخه ابن تيمية فى استدلاله على وجود الله ، وفى مسألة الصفات ، وفى مسألة وجود الشر فى العالم وحكمة وجوده فيه ، وفى مسألة الحسن والقبح ، وفى النفس الإنسانية وفى أمر المعاد ، وفى مسألة أبدية الجنة والنار ، سالكا مذهب الانتخاب الفكرى فى كل آرائه ومذاهبه ، فهو يحرص أن يقدم بين يدى دراساته ومباحثه آراء العلماء السابقين ، مناقشا لها وموجها وناقدا ، ومختارا منها مذهبه الذى يعتقده الحق ، حيث يتخذه مذهبا له وعقيدة يدافع عنها بكل ما يستطيع ويحبها ويقدمها على كل شىء ، وفى هذا يقول رحمه الله :

ــ شيخ الإسلام ــ الأنصارى ــ حبيب إلينا ، والحق أحب إلينا منه ، وكل من عدا المعصوم فمأخوذ من كلامه ومتروك[1] . ويقول : ولكن من عدا المعصوم فمأخوذ من كلامه ومتروك ، ومن ذا الذى لم تزل به القَدم ، ولم يكب به الجواد ؟[2] .

وكان الإمام مالك رضى الله عنه يقول : كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا صاحب

---

(١) ٢ : ١٩ مدارج السالكين ــ مطبعة المنار ٣ ــ ١ : ١٢٥ المرجع نفسه .

(٢) ١٤ : ١٤٠ البداية والنهاية لابن كثير ــ طبعة مطبعة السعادة بالقاهرة .

هذا القبر[1] . أى الرسول صلوات الله عليه .

كان فى ابن القيم رحمه الله شموخ وعزة نفس وسمو همَّة ، وقد انتفع به الناس والعلماء فى عصره وبعد عصره .

وقد نشر علم الإمام ابن تيمية وكان ينتصر له فى أغلب آرائه ، وهو الذى هذب كتبه وورث علمه ، وقد جمع إلى العلم الزهد والورع والصلاح ، وقد ترك كتبا مشهورة منها : مدارج السالكين ، وأعلام الموقعين عن رب العالمين ، والطرق الحكمية فى السياسة الشرعية ، وعدَّة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، وطريق الهجرتين وباب السعادتين ، وحادى الأرواح إلى بلاد الأفراح ، وزاد المعاد فى هدى خير العباد.. وهو فى السيرة النبوية ويقع فى أربعة أجزاء .

وله كتب أخرى مشهورة مثل : التبيان فى أقسام القرآن ، وتفسير المعوذتين ، وتفسير سورة الفاتحة ، ومفتاح دار السعادة ، والوابل الصيِّب من الكلم الطيب .

وكان من تلامذته : ابن رجب الحنبلى ، والذهبى ، وابن كثير، وغيرهم من جلَّة العلماء .

وكان ابن القيِّم يرى أن السلف هم أفضل الناس مذهبا وأهداهم طريقا[2] ، وكان هو وأستاذه ابن تيمية يدعوان إلى جمع الكلمة على مذهب واحد فى الأصول والفروع ، واختيار ما هو الأولى والأصوب من المذاهب المختلفة ، وما يوافق الكتاب والسنة منها[3] .

واعتزاز ابن القيم بالحق والصواب كان مضرب المثل بين الناس .

وكان ابن القيم يسلك مسلك أهل السلف فى الحجة والبرهان والاستدلال ، ويستدل على وجود الله تعالى بالطبيعة والكون ، وبدلائل قدرته فى السماء والأرض ، والماء والهواء ، من حيث كان المتكلمون والفلاسفة ممن تبعوا المنطق الأرسططاليسى يستدلون على وجوده تعالى بالأقيسة المنطقية والأدلة العقلية .

---

(١) ١٤/١٤٠ البداية والنهاية لابن كثير ــ طبعة مطبعة السعادة بالقاهرة .

(٢) ٦٤ ابن القيم تأليف د. عوض الله حجازى ــ طبعة القاهرة ١٩٦٠

(٣) ص ٤٧ المرجع نفسه .

ومن أجل ذلك كان ابن القيم كأستاذه ابن تيمية يعادى المنطق اليونانى ، ويرى أنه ليس علما صحيحا بل هو على باطل ، فساده أضعاف حقه .

ونظم قصيدة (1) فى إبطال المنطق الأرسطاليسى وفى بيان فساده ، وفيها يقول :

واعجبـا لمنطـق اليونـان   كم فيه من إفك ومن بهتان

متضارب الأصول والمبـانى   على شفا هار بناه البـانى

وهو فى ذلك قريب إلى العلماء المسلمين الأصلاء ، الذين رجعوا فى الاستدلال إلى الكتاب والسنة ومذهب السلف رضوان الله عليهم .

وعن ابن القيم ومذهبه وآرائه وأفكاره كتب الأستاذ الجليل عوض الله حجازى الأستاذ بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر الشريف كتابه القيم الممتع « ابن القيم وموقفه من التفكير الإسلامى » الذى يعد أجمل دراسة عن ابن القيم وفلسفته ومذهبه ، والذى كان رسالته للدكتوراة ناقشته فيها جماعة من فحول الأساتذة فى مصر .

وقد درس فيه عصره وحياته وجملة مذهبه ، وحلل آراءه الاعتقادية ودرسها بالتفصيل فيما يتعلق بوجود الله وصفاته وصفاته الخبرية ، وحكمة وجود الشر فى العالم ، ومسألة الحسن والقبح ، والمعاد وحقيقة النفس الإنسانية ، والنفس وهل هى قديمة أو حادثة ، ومخلوقة قبل البدن أو بعده ، والنفس هل هى والروح شىء واحد أو شيئان مختلفان ، ومسألة أبدية الجنة والنار .

وكل ذلك فى تعليل واستقصاء ودقة وعمق وأمانة علمية نادرة .

وابن القيم جدير بأن يتصدر الدراسات الإسلامية ، وبأن يكتب عنه البحوث الضافية الطويلة لعلمه وفضله ومكانته فى الفكر الإسلامى ، رحمه الله وأجزل له مثوبته .

---

(1) مفتاح دار السعادة لابن القيم .

التيارات الكبرى فى الفكر الإسلامى

١ ـــ جاء الإسلام فغير من مجرى الزمن .

ونزل القرآن فحول من اتجاه الفكر .. وكان منهج القرآن الكريم فى الحجاج والحوار ، وفى الإثارة والإقناع ، وفى التمثيل والتعليل ، وفى الحجة والبرهان ، وفى الظن والحدس ، وفى الشك والتجربة والامتحان ، وفى الصدق والحق واليقين ، وفى ضرب المثل للغائب بالشاهد ، وللبعيد بالقريب ، وللغامض بالواضح ، وفى غير ذلك كله كان هذا المنهج القرآنى الفريد الجديد المنقطع النظير هو منهج الحياة كلها ، ومنهج البشر أجمعين .

وكان هو المعلم الأكبر الذى تخرج على يديه أعلام الثقافة الإسلامية فى شتى فروع الدين والعلم من الصحابة والتابعين ، وهو النور الذى حملته العقول المسلمة الواعية الأمينة إلى كل مكان فى العالم ، فأضاء دياجير الحياة وأنار ظلمات الوجود وملأ الأرض كلها أمنا وعدلا وخيرا وسلاما .

٢ ـ وسار الزمن سيرته ودارت الأيام دورتها ومنهج القرآن فى المنطق والفكر والثقافة هو منهج المسلمين أجمعين ، ومنهج الدعاة من الصحابة والتابعين وتابعى التابعين .. وهو المنهج القريب إلى العقل ، إلى الحياة ، إلى طبيعة النفس الإنسانية ، إلى لغة الإقناع والإثارة والتأثير .

حجج القرآن فى التوحيد ، وفى الدعوة إلى إله واحد ، وإلى الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، هى حجج كل مسلم يتأملها ويرددها ويدعو بها وإليها فى كل لحظة وكل حين . وأدلة القرآن وبراهينه فى الأرض والسماء،فى الهواء والماء ، فى الشمس والقمر والنجوم ، فى الليل والصبح والضحى والأصيل والعشى ، فى كل ما خلق الله من نار ونور ، وضياء وديجور ، ومن صفو وغيم ، ومن سبات ويقظة ، ومن سكون وحركة .. هى أدلة الإقناع عند كل مسلم يدعو إلى الله وإلى الحق وإلى طريق مستقيم ، وبهذا أصبح المنهج الإسلامى يستند إلى القرآن كما يستند إلى السنة ، ويعبر عن روح الإسلام الحقيقية .

٣ ـــ وانتشر الإسلام ودخلت فيه الأمم من الشرق والغرب ، وحملت كل أمة معها زادا من ثقافاتها وعلومها ، ونقلت إليه أشياء من فكرها وثقافاتها ومعارفها وفنونها .

وحمل المثقفون بفلسفة اليونان ومنطق أرسطو ، أشياء معهم من هذا المنطق ومن تلك الفلسفة .

وكان أرسطو الفيلسوف اليونانى القديم الذى ظهر قبل الإسلام بقرون كثيرة ، قد وضع المنطق الأرسطى فى قوانين عامة يحددها العقل ويرسمها منهجا للفكر الإنسانى لتعصمه من الزلل فى التفكير ، واعتبر فلاسفة اليونان من بعده وحكماؤها هذه القوانين عامة صالحة للناس فى كل زمان ومكان لا يختص بها فريق منهم دون فريق ، ولا جماعة دون جماعة ، ولا أمة دون أمة ، وقوانين الفكر هى للفكر أينما كان وحيثما وجد وفى أية بيئة عاش .

حمل المثقفون بالثقافة اليونانية ممن دخلوا فى الإسلام معهم إذًا فلسفة اليونان وحكمتها ومنطق أرسطو أكبر فلاسفتها ، وترجمت هذه الفلسفة وذلك المنطق إلى اللغة العربية ترجمات عديدة منذ أوائل عصر الدولة العباسية ، وأقبلت مدارس المسلمين العقلية تدرس هذه الفلسفة وتدرس ذلك المنطق فى اهتمام بالغ وعناية شديدة ، وأقبل العلماء والمفكرون على تفسيرها وشرحهما ، وأقبلت جماعات أخرى على التوفيق بينهما وبين مبادئ الإسلام العظيم وأصوله ، وبدأ يظهر فى الثقافة الإسلامية تيار جديد بجوار التيار الإسلامى الخالص الذى وضع القرآن الكريم منهجه ، وأقام دعائمه وشيد أصولههذا التيار الإسلامى الجديد الذى يلبس ثيابا زاهية من منطق أرسطو ، ومن فلسفة اليونان .

لقد أراد بعض من العلماء المسلمين أن يكتبوا عقيدة التوحيد الإسلامية فى صياغة جديدة على ضوء ما عرفوا من صياغة المنطق اليونانى ، لتصبح هذه العقيدة بصياغاتها الجديدة أقوى وأقدر على إقناع العلماء والحكماء بها ، وعلى إلزام الفلاسفة والمفكرين من غير المسلمين بمنطقها .

٤ ـــ وانتقلت هذه الصياغة الجديدة إلى العقل الإسلامى عن طريق المدارس والمراكز المبثوثة فى الشرق ، والتى كانت لا تزال محافظة على صلاتها العقلية بالثقافة اليونانية كمدرسة حران وجنديسابور والإسكندرية ، ثم عن طريق المترجمين السريان والفرس ، وعن طريق الترجمات العربية العديدة لأصول الثقافة والفلسفة الإغريقية . وشجع الرشيد وشجع المأمون حركة الترجمة من اليونانية إلى العربية ، وآزروها بكل طاقاتهم ، وطلبوا كتب الفلسفة اليونانية من كل مكان ، ودعوا المترجمين لترجمتها وأنشأوا دار الحكمة للعمل من أجل ذلك .

وكانت جماعات المعتزلة قد قامت فى البصرة وبغداد ودرسوا المنطق اليونانى ، وعنوا به عناية كبيرة ، واستمدوا منه ومن الفلسفة القوة على الحجاج والجدل والدفاع عن الإسلام وعلومه وثقافاته . ومن بينهم بشر بن المعتمر « ٢١٠ هـ » والنظام « ١٨٠ ــ ٢٢١هـ » وأبو الهذيل العلاف « ١٣٤ ــ ٢٢٦هـ » ، والجاحظ « ١٥٠ ــ ٢٥٥هـ » وسواهم ، كما استخدموا المنطق الأرسطى فى الدفاع عن مذهبهم فى الاعتزال ، واتصل العلاف بالفلسفة اليونانية وقرأها مترجمة ، حتى ليقول النظام : خيل إلى أنه لم يكن متشاغلا قط إلا بها . وكان من أوائل المدرسة البصرية فى الاعتزال ، وكان قد تبحر فى الفلسفة واطلع على ما ترجم منها ، واستخدم المنطق اليونانى فى بحثه عن الحقائق . ويقول فيه الشهرستانى إنه طالع كثيرا من كتب الفلسفة ، وكان تأثر المعتزلة البغداديين بمنطق أرسطو أظهر من تأثر المعتزلة البصريين وأكثر ، وجاء الفلاسفة المسلمون من مثل الكندى الفارابى وغيرهما فاستخدموا المنطق والفلسفة فى كل شىء ودافعوا عنهما دفاعا حارا ..

٥ ــ وهكذا دخلت الفلسفة اليونانية ودخل المنطق اليونانى إلى العقل العرب وبهما تأثر ، واصطبغت بهما طريقة الجدل والبحث والتعبير والإقناع والدفاع عن الدين ، والكلام فى عقيدة الإسلام عند العلماء المتكلمين .

وأصبح ذلك التيار الجديد يفرض نفسه على الفكر الإسلامى فرضا ، بحكم التجديد ، ــ وبسبب ما أولاه إياه خلفاء بنى العباس من تأييد ، وبسبب ميل المعتزلة والفلاسفة المسلمين إلى المنطق اليونانى هذا الميل الواضح المتميز والبعيد ، إذ أيدوه وكانوا شراحا له ومدافعين عنه ، واعتبروه قانون الفكر الخالد وحاولوا صياغة العلوم الإسلامية على ضوئه ، والتوفيق بينه وبين الأصول والقواعد الموروثة عن السلف .

٦ ــ ولكن معظم مفكرى الإسلام رفضوا هذا المنطق ورفضوا هذه الفلسفة اليونانية ، ورفضوا أن يستعان بهما فى صياغة البراهين الإسلامية والأدلة الإسلامية على توحيد الله ورسالاته وأصول الدين جملة .

وقد كان للأشعرى والماتريدى وتلاميذهما أثر كبير فى ترويج المنطق اليونانى والدعوة إليه ، وصياغة القضايا الإسلامية صياغة متفقة مع أسلوبه .

---

(١) المنية والأمل للمرتضى .

ومذهب الأشاعرة والماتريدية لا يمثل العقيدة الإسلامية الأولى تمثيلا صحيحا فى نظر كثيرين من الفقهاء والعلماء المسلمين الأصلاء ، ومن بينهم ابن تيمية على الرغم مما أسبغ عليها قدم العهد من جلالة وهالة ، وعلى الرغم من تلقى الناس لها بالقبول .

من أجل ذلك وضع الإمام الشافعى منطقا جديدا بكتابته لأول مرة فى رسالته فى علم الأصول ، حتى ليقول الإمام أحمد بن حنبل : لم نكن نعرف العموم والخصوص حتى ورد الشافعى . ويقول الجوينى إمام الحرمين : « لم يسبق الشافعى أحد فى تصنيف الأصول ومعرفتها » ، وفيه يرسم المناهج وينظمها لاستخراج الأحكام من أدلتها ، ويحرر طرق الاجتهاد والاستنباط .

والشافعى يُعدّ بذلك فى العالم الإسلامى وفى الدراسات والعلوم الإسلامية وفى الفكر الإسلامى ندا لأرسطو الفيلسوف المتعمق فى الدراسات اليونانية . ويقول فيه أحمد ابن حنبل أيضا : الشافعى فيلسوف فى أربعة أشياء : فى اللغة ، واختلاف الناس ، والمعانى ، والفقه .

وإذا كان منطق القرآن والسنة يعبر عن روح الإسلام وجوهره فى أصالة وعظمة وجلال ، فإن المنطق اليونانى ــ الذى حاول فريق من علماء الإسلام الاستعانة به فى الدفاع عن دين الله وفى الدراسات العربية الإسلامية ــ هذا المنطق إنما يقوم ويعبر عن خصائص اللغة اليونانية التى تخالف لغة القرآن ولغة المسلمين . ولما طبق المنطق اليونانى على الدراسات الإسلامية أدى هذا المنطق إلى تناقضات عدة(١) .

إذا كان منطق أرسطو متصلا باللغة اليونانية وقائما على خصائصها مع مخالفة هذا للمنطق الإسلامى ، وقد ردد ذلك أبو سعيد السيرافى « ٣٦٨ هـ » فى حواره مع متى بن يونس ، هذا الحوار الذى رواه أبو حيان فى كتابه « الإمتاع والمؤانسة » ، وأصبح القياس الأصولى هو الحجة عند الشافعى وعلماء الأصول المسلمين ، الذين رفضوا الميتافيزيقيا اليونانية لأنها مخالفة لإلـٰهيات المسلمين .

٧ ــ وإذا كان هذا الخلاف بين المنطق الإسلامى ومنطق اليونان قد ظهر واضحا فى الثقافة الإسلامية وعلومها ، فقد ظهر كذلك بشكل أوضح فى الأدب وعلوم العربية .

فقد كان فى المعتزلة وفى الفلاسفة المسلمين كتاب وأدباء وشعراء أخذ منهم المنطق اليونانى مواطن الإعجاب فى نفوسهم ، واحتل شغاف القبول فى أفئدتهم وقلوبهم ،

(١) مناهج البحث عند مفكرى الإسلام . على سامى النشار ص ٣٧٨ الطبعة الثانية ــ ١٩٦٧ ــ دار المعارف بمصر .

ووجدت طوائف أخرى فى الكتاب والأدباء والشعراء وصاروا حريصين على مطالعة الفلسفة والمنطق والإفادة منهما ، كأبى نواس وأبى تمام وابن الرومى وغيرهم ، وأصبحت القصيدة العربية إما داخلة فى عمود الشعر كقصيدة البحترى ومسلم وابن المعتز ، وإما خارجة عن عمود الشعر العربى عند النقاد كقصيدة أبى تمام والمتنبى .

وحمل ابن قتيبة فى مقدمة كتابه : « أدب الكتاب » على فلسفة اليونان ومنطقها ، كما حمل عليهما البحترى فى شعره فقال :

كلفتمونا حدود منطقكم فى الـ ـشعر يغنى عن صدقه كذبه

ويقول ابن قتيبة :

« لقد شغفت بالنظر فى النجوم والمنطق والفلسفة طائفة من الكتاب ، وعرفت الكون والفساد والجوهر ، وأهملوا النظر فى اللغة وما إليها ، فوضعت لهم كتابى هذا .

والقياس الذى يشغل جزءا كبيرا من منطق أرسطو أصبح ذا دخل كبير فى كثير من العلوم .

فالقياس كما كان فى الفلسفة صار فى الفقه وفى اللغة وفى النحو ، ويقول بعض الباحثين إن قول أرسطو « الزمان والمكان كالوعاء للأشياء » أصل لتسمية النحويين المفعول فيه ظرفا أى وعاء[1] . وأقسام البيان يذكرها الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » كما ذكرها أرسطو من قبل[2] .

وقد ثار الجدل حول ما إذا كانت اصطلاحات البلاغة العربية التى ذكرها الجاحظ فى كتابه « البيان والتبين » قد اقتبسها من كتاب « الخطابة » لأرسطو الذى ترجم إلى اللغة العربية فى عصر الجاحظ نفسه ، أم لم يقتبسها منه .

وفى رأينا أن الجاحظ كان مبتكرا فى كل ما وصل إليه من قواعد وأصول وضعها للبلاغة العربية فى كتابه « البيان والتبيين » .

٨ ــ ولقد جاء فريق من العلماء المسلمين واعتمدوا على المنهج التجريبى وحده فى الحكم على الأشياء وتمييزها ، ومن بينهم جابر بن حيان « ١٩٠ هـ » ، والحسن بن الهيثم « ٤٠٠ هـ ، ١٠٢٠ م » الذى اعتمد على هذا المنطق الاستقرائى وهو المنهج الذى سارت

---

(١) ٨٥ محاضرات جويدى

(٢) ١ : ٧١ البيان ، ١ : ٣٣ ، ٤٤ الحيوان .

عليه الحضارة الأوربية الحديثة اليوم ، واعتمدت عليه اعتمادا كبيرا فى بحوثها وفى كشوفها واختراعاتها .

واعتمد ابن خلدون على المنهج التاريخى ، فكشف عن علم الاجتماع ووضع أصوله فى كتابه « المقدمة » . واعتمد علماء الحديث المنهج الاستردادى « التكوينى » وأقاموه على أسس علمية دقيقة تعرف بعلم مصطلح الحديث . وطرق تحقيق الحديث رواية ودراية هى منهج البحث التاريخى الحديث اليوم ، الذى يتوصل به إلى نقد النصوص نقدا داخليا ونقدا خارجيا .

وكل هذه المناهج عملت عملها فى مقاومة المنطق القياسى أو الاستنباطى ، منطق أرسطو ومنهجه فى التفكير .

٩ ــ وجاء فريق من الصوفية وأنكروا على المنطق الأرسطاليسى منحاه واتجاهه فى التفكير ، وهم الصوفيون الإشراقيون ، وفى مقدمتهم السهرودى الذى قام بمحاولة منطقية جديدة لاختصار منطق اليونان .

وإن كنا لا نستطيع أن ندخل نقدهم فى المناهج التى تمثل نقد علماء المسلمين لمنطق أرسطو ، لأن الصوفية أنكرت العقل كأداة ، ولا يقبل العلماء المسلمون وفلاسفتهم طرائق المعرفة لدى الصوفية ، ويرون أنها تجارب ذاتية لا تصلح قاعدة أو منهجا للحياة[١] .

وهكذا رفض العلماء والفلاسفة المسلمون فى كبرياء منطق أرسطو لأنه يقوم على المنهج القياسى ، ولأن هذا المنهج هو روح الحضارة اليونانية القائمة على النظر الفكرى والفلسفى . ولم تترك الحضارة اليونانية للتجربة مكانا فى هذا المنهج ، وهى إحدى ركائز الإسلام الكبرى ، فالمنهج التجريبى أو الاستقرائى هو المعبر عن روح الإسلام ، والإسلام هو تناسق بين النظر والعمل ، ويقيم نظرية فلسفية فى الوجود ، ويرسم أيضا طريقا ناجحا للحياة العملية . وهذا المنهج التجريبى الاستقرائى وضعه المسلمون بجميع عناصره ، وعبر من بلاد الشرق إلى الأندلس فأوروبا التى بنت حضارتها اليوم عليه .

يقول إقبال فيلسوف الإسلام وشاعره فى العصر الحديث : إن آراء بيكون عن العالم أصدق وأوضح من آراء سابقيه .. ومن أين استمد بيكون فى دراسته العلمية ؟ من

---

(١) ٣٧٩ مناهج البحث ــ النشار .

الجامعات الإسلامية فى الأندلس « والمسلمون هم مصدر هذه الحضارة الأوربية القائمة على المنهج التجريبى» .

١٠ ـــ على أن الإمام الغزالى يعتبر المفكر الإسلامى الكبير الذى مزج المنطق اليونانى بعلوم المسلمين ، وكان الغزالى يقول : إن من لا يحيط بالمنطق فلا ثقة بعلومه أصلا .

وكان الغزالى موضع تقدير الإمام ابن تيمية لأنه عرض مبادئ الأخلاق الإسلامية وشرحها فى جلال وكال ، وإن كان موضع نقده الشديد فى بقية ما عرض له من علوم . وابن تيمية غير راض عن طريقة الغزالى فى الأصول لأنه خلطه بالمنطق والجدل ، وإذا كان المنطق عند الغزالى تعصم مراعاته الذهن من الخطأ ، فهل معنى ذلك أن القدماء ممن كانوا قبل الغزالى لم يكونوا بمنجاة من الخطأ ؟ إن جميع عقلاء بنى آدم حرروا علومهم بدون المنطق اليونانى .

وممن هاجم الغزالى فى منهجه كل من الإمام الطرطوشى « ٥٢٠ هـ » والمازرى ، وابن الصلاح « ٦٤٣ هـ » وابن تيمية « ٧٢٨ هـ » والنواوى « ٩٣١ هـ » .

١١ ـــ وهنا نعرض للإمام الكبير شيخ الإسلام ابن تيمية وموقفه العظيم من الدفاع عن الإسلام وعن المنهج الإسلامى القرآنى العظيم فى البرهان والإقناع .

لقد نقد الإمام ابن تيمية « الاثنين ١٠ ربيع الأول ٦٦١ هـ : ٢٢ من يناير ١٢٦٣ م ـــ ٢٠ من شوال ٧٢٨ هـ ٢٩ من أغسطس ١٣٢٧ م » المنطق الأرسطى وهدمه هدما قويا ، فذهب إلى أن من الخير للإسلام أن لا تستعمل فى علومه هذه المصطلحات فى الفلسفة والمنطق التى لم يعرفها السلف الصالح . وينكر الإمام ابن تيمية استطاعة الحد فى المنطق الأرسطى الوصول إلى كنه الشيء أو ماهيته ، ويرى أن عمل الحد ووظيفته التمييز بين المحدود وغيره ، لما تصور المحدود فلا يستطيع الحد القيام به ، فالحد عنده مجرد شرح للفظ ، وعلى ذلك سار جمع من مناطقة إنجلترا اليوم . وكذلك نقد ابن تيمية القضايا الأرسطاليسية ، وذهب إلى التجربة والاستقراء وقياس التمثيل . ورأى أن القرآن ـــ وهو كتاب الوجود عند المسلمين هو الذى يمدنا بصور الاستدلال ، أو هو الذى يقدم لنا الميزان ، ويقدم لنا الأقيسة البرهانية كقياس الأولى ، وقياس الآية أو العلامة .

وللإمام ابن تيمية فى نقض المنطق الكتب الآتية :

١ ـــ الرد على المنطقيين ، طبع فى بومباى عام ١٣٦٨ : ١٩٤٧ ، وهو كتاب قيم من عيون التراث الفكرى الإسلامى .

٢ — كتاب موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول ، وقد طبع فى القاهرة عام ١٣٢١ هـ .

٣ — منهاج السنة ، طبع فى القاهرة أيضا عام ١٣٢١ هـ .

٤ — نقض المنطق ، وقد نشره حامد الفقى فى القاهرة .

٥ — مجموعة الرسائل الكبرى ، وقد طبعت فى القاهرة — وفيها العديد من آرائه فى المنطق .

هذا إلى فتاوى ابن تيمية وهى مشهورة . ويتابع ابن تيمية فى نقد المنطق الأرسطى تلميذه ابن القيم « ٧٥١ هـ » والصنعانى « ٨٤٠ هـ » والسيوطى ٩١١ هـ .

١٢ — ومن هنا ندرك خطر المحاولة التى كانت تريد أن تفرض بالقوة أو بالإقناع منطق اليونانى الأرسطى على الثقافة الإسلامية والعربية ، وندرك جهود علمائنا الأصلاء الأئمة فى مقاومة هذا الخطر منذ العصور الأولى للإسلام حتى العصر الحديث . ومن هنا كذلك ندرك مدى ما صنعه السكاكى حين أخذ جميع قضايا البلاغة العربية التى كشف عنها الإمام عبد القاهر الجرجانى « ٤٧١ هـ » فى كتابيه « أسرار البلاغة » و «دلائل الإعجاز » بذوقه العربى الأصيل ، فصاغها السكاكى فى كتابه المفتاح صياغة منطقية بعيدة عن الأصالة والذوق العربى السليم ، وندرك أخيرا خطر ما صنعه قدامة بن جعفر فى كتابه « نقد الشعر » . من الرجوع إلى أرسطو فى كتابه « فن الشعر » وإلى ما قرره من أحكام نقدية .

١٣ — ويجئ العصر الحديث ويأخذ الأدب الغربى يفرض نفسه على الأدب العربى فى أخيلته ومعانيه وأغراضه وأجناسه ومذاهبه الأدبية .

ثم يشرع النقد الغربى للأدب الحديث ، ويأخذ النقاد العرب المعاضرون عن النقد الغربى الكثير من بحوثه وموضوعاته دون أصالة وتمييز وذكاء وفطنة كما فعل فى آخر الشوط كثيرون .

ويفرض المستشرقون على الأدب العربى الحديث دراسة تاريخ آداب اللغة العربية دارسة تقوم على المنهج الذى وضعه لهذه الدراسة كارل بروكلمان فى كتابه المشهور « تاريخ الأدب العربى[1] وتقطع كليات اللغة والآداب فى العالم العربى والجامعات العربية صلاتها بالمنهج

---

(١) وعلى هذا المنهج كتب أحمد أمين كتابيه : فجر الإسلام وضحى الإسلام .

العربى القديم فى دراسة الأدب ، وهو منهج الجاحظ والمبرد وابن عبد ربه ، كما قطعت صلاتها بالمنهج العربى القديم فى دراسات النقد ، وهو منهج أبى هلال العسكرى فى كتابه الصناعتين وابن سنان الخفاجى فى كتابه سر الفصاحة ، ومنهج الآمدى فى كتابه الموازنة ، ومنهج القاضى الجرجانى فى كتابه « الوساطة » ، ومنهج ابن رشيق فى كتابه « العمدة » وابن الأثير فى كتابه « المثل السائر » .

ويحاول المستشرقون أن يقولوا فى كتبهم وعلى ألسنة دعاتهم فى البلاد العربية للشباب العربى : إن علم التصوف الإسلامى أخذ من الأفلاطونية الحديثة أو من المذاهب المسيحية ، وأن علم البلاغة العربية أخذ من كتاب الخطابة لأرسطو ، وأن علم الفقه الإسلامى أخذ من القانون الرومانى الذى وضعه الإمبراطور الرومانى جوستنيان .

وهكذا يريدون أن يحطموا الكبرياء العربى ، وشخصية الثقافة الإسلامية الرفيعة ، ومعنويات الشباب العربى المسلم ، وأن يبعثوا فى البلاد العربية شعورا عميقا بأن العالم الإسلامى مدين فى القديم للثقافة اليونانية ، ومدين فى الحديث للثقافات الغربية ، كما هو مدين للغرب اليوم فى مجال العلوم والصناعات والكشوف الحديثة .

١٤ — ونحن ننادى فى الشباب العربى المسلم بأن يرفضوا هذه الدعايات الغربية الممقوتة ، وبأن يرفضوا مناهج الغرب فى دراسة العلوم العربية والإسلامية ، وأن يعودوا إلى مناهج أسلافنا القدماء ففيها الأصالة والعمق والسمو والإحاطة والكبرياء والبقاء ..

غد الإسلام وحضارة المستقبل

تمهيـد :

١ ـــ لماذا نترك الأمس والحاضر ، ونتحدث عن الغد ؟

٢ ـــ الغد من نسج حاضرنا ، وسوف يكون صدى لماضينا الذى صنع مسيرة الإسلام الكبرى .

٣ ـــ تخطيط أوربا وعملها الدائب فى القديم والحديث من أجل إيقاف الزحف الإسلامى ، والقضاء على الإسلام وعلى بقائه كقوة عالمية فعالة فى الحياة .

٤ ـــ انتصارات الإسلام على مرور الأيام .

٥ ـــ حضارة الإسلام صنعها المسلمون ، وهى أضخم معجزات التاريخ الإسلامى والعالمى وأكبر منجزاته .

٦ ـــ لن يطفئ الغرب نور الله .

٧ ـــ الإسلام عقيدتنا ووسيلتنا إلى صنـع الغـد ، عن طريـق التربيـة الإسلاميـة الصالحة .

٨ ـــ الإسلام ليس بمعزل عن الحياة ، بل هو دين ودولة ، عقيدة وشريعة .

٩ ـــ غدنا سوف يحيا فى ظل الإسلام ويقوم على يد المسلم الحقيقى .

١٠ ـــ هل يعود الإسلام فى الغد قوة عالمية ثالثة ، خطأ هذه النظرية .

١١ ـــ عودة الإسلام فى الغد قوة وحيدة فى الحيــاة ، لن يكون فيه صوت أعلى من صوته بإذن الله .

١٢ ـــ حضارة الغرب فى طريقها إلى الانهيار ، وسيكون الإسلام هو الوارث الوحيد لها .

١٣ ـــ عقبات فى وجه البعث الإسلامى الجديد :

(أ) الحضارة الغربية .

(ب) الغزو الفكرى المسيحى للشرق الإسلامى ..

(جـ) الاستعمار القديم والجديد .

حضارة المستقبل : لماذا ؟

ولماذا نتحدث عن الغد ؟ نتحدث عنه :

١ ــ لأنه التاريخ المفتوح الممتد ، فلم يعد الزمان مقسوما إلى : ماض وحاضر ومستقبل ، بل هو تطور متصل ، يكمل غده حاضره وماضيه على مرور الأيام ، والحياة وحدة متصلة ، أصولها وفروعها من جذورها الضاربة فى أعماق الماضى البعيد .

٢ ــ ونتحدث عنه لأنه الزمن الذى يحياه أبناؤنا وأحفادنا من بعدنا ، ممن نريد لهم حظا أسعد من حظنا .

٣ ــ ولأن الإنسان كلما ضاقت به الهموم ، وأحاطت به الأزمات ، وأدركه الملل من واقع سيئ ، تمنى الخروج منه إلى غد أفضل ، يتمناه ، ثقة بروح الله .

٤ ــ ولأن تخطيط الإنسان المفكر للغد ــ بقدر استطاعته ــ أمر ممكن ، والأمم الكبيرة تخطط للمستقبل وترسم الصورة التى تريدها له ، وفى الحكمة المأثورة : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » ، ومن أجل ذلك قامت وزارات للتخطيط فى معظم الدول اليوم .. وعندما أصدرت الحكومة البريطانية وعد بلفور فى الثانى من نوفمبر عام ألف وتسعمائة وسبعة عشر بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين[١] ، كانت آنذاك تعنى ما تقول وتريده ، وتعرف على وجه الإجمال الصورة التى سوف تؤول إليها حال الشرق العربى بعد صدور هذا الوعد وبدء العمل من أجل تنفيذه ، وهى الصورة التى نراها اليوم ، صورة العدوان والتشريد وحياة اللاجئين والخيام السود ، صورة اضطراب أمر المسلمين المعاصرين حتى لم يعودوا يعرفون شيئا غير حاضرهم الذى يعيشونه ولا يفكرون فى سواه ، ولا يتدبرون أمر غدهم المرتقب ، وهذه شخصية عربية كبيرة يسألها صحفى غربى[٢] عن صورة الحياة التى سوف يكون عليها العرب فى نهايات القرن العشرين كما يتخيلها ، فكان الجواب : لا أعرف . فلقد عشنا

---

(١) ١٢ ــ ١٩ فلسطين فى ضوء الحق والعدل ــ هنرى كتن ــ ترجمة وديع فلسطين .

(٢) السياسة الكويتية : ــ عدد الخميس ٢٢ من أكتوبر ١٩٧٠

نحو العشرين عاما فى مشكلات وأزمات ، ومجابهة قاسية للأحداث ، مما لم نعد ننظر معه إلى شيء آخر .

٥ ـــ ونتحدث عن الغد كذلك لأننا نحلم ، ولا نزال نحلم ، باليوم الذى نرى الإسلام فيه يتولى القيادة فى عالمنا المضطرب ، ونرى المسلمين وقد عاد لهم ماضيهم المشرق العظيم ، ماضى أمة كانت تخفق أعلامها فى الشرق والغرب وتسير جيوشها المظفرة من نصر إلى نصر.. أمة كانت لها السيادة والكلمة النافذة فى الأرض ، فالشمس لا تغيب عن أرضها ، والسماء مملوءة بألويتها ، ويجلس أحد خلفائها هارون الرشيد فى قصره فى بغداد عاصمة الإسلام ودار السلام ، ويرنو إلى الأفق فيرى غمامة تسير فى السماء ، فيناجيها فى عزة المؤمن وجلال المسلم : « أمطرى أين شئت فسوق يأتينى خراجك » .

لذلك كله نتحدث عن الغد ، غد الإسلام ، وفى قلوبنا جلاله ، وحول أعيننا جماله .

والغد يمكن أن يكون شيئا أفضل من الحاضر ، لأن تبدل الحال ليس بالأمر البعيد عن حدود الإمكان ، وليس بالشيء الذى تعجز عنه قدرة الإنسان .

إن ذلك ممكن ، ممكن بإذن الله .. وأمامنا المثل من التاريخ تاريخنا المجيد العريق .

كان جهاد الرسول الأعظم وأصحابه من أجل غد الإسلام حقيقة كبرى لم يحدث مثلها فى التاريخ .. ومع أن الرسول ﷺ كان فردا وكان أصحابه قلة صغيرة مؤمنة وعزلا من السلاح ، فلقد قاوموا غرور القوة وغطرسة السيطرة وجبروت الوثنية ، وانتصروا وأسسوا للإسلام دولة فتية ، دولة صغيرة لم تكن تملك السلطان ولا المال ولا السلاح ولا سببا من أسباب الحضارة ، ولكنها أخذت تنازل أعرق وأقوى إمبراطوريتين فى العالم آنذاك الفارسية فى الشرق ، والرومانية فى الشمال والغرب .

وانتصر المسلمون فى معركتهم مع جيوش كسرى الكبيرة ، انتصارا ساحقا مذهلا .

وانتصروا كذلك فى معاركهم الضخمة مع قيصر إمبراطور الروم وهزموا جيوشه فى كل مكان .. فى الشام ومصر ، وإفريقية ، وجزر البحر الأبيض المتوسط ، أو الرومى .. ثم نازلوها فى سهول الأناضول ووقفوا فى مواجهة عاصمتهم بيزنطة أو القسطنطينية على شواطئ البوسفور ، ولم يعقهم البحر فقاد قوادهم الأساطيل إلى الدردنيل لتكمل حلقة الحصار على العاصمة الخائفة المذعورة ، ووقفت أمامهم قوة الرومان البحرية العنيدة

فكانت عاملا فعالا فى تأخير الفتح وتعويق الزحف ،وإرجاء النصر ، وظلت بيزنطة تعيش دولة بلا إمبراطورية وشعبا يتملكه القلق على مصيره يعتمد على أسطوله البحرى ويجمع حوله أوربا المسيحية المذعورة من الإسلام ، ويكيد للمسلمين ما شاء له الكيد والتعصب الذميم ، ويخطط للمؤامرات الجسام فى بلاده .. ونحن نعرف أنه كان إحدى القوى الكبرى المحركة للأحداث فى الحروب الصليبية[١] ، وكان كذلك وراء التتار يهلل لهم ويؤازرهم ويزين لهم صنع ما صنعوا من تدمير فى العالم الإسلامى[٢] ، وحسبنا دليلا على ذلك ما يرويه التاريخ من أن هبتون ملك أرمينية المسيحى كان العامل الرئيسى فى إقناع مانجوخان (٦٤٦ — ٦٥٥ هـ ١٢٤٨ — ١٢٥٧ م) بإرسال تلك الحملة التى دمرت بغداد بقيادة هولاكو[٢] (عام ٦٥٦ هـ : ١٢٥٨ م) ، وأن هولاكو التترى زوج ابنه من ابنة إمبراطور القسطنطينية المسيحى[٣] . ومع ذلك كله فقد أكمل المسلمون الحلقة ، ودخلوا أوربا من الجنوب الغربى وعاشوا فى الأندلس ثمانية قرون ، وهى أطول مدة عاشها شعب فاتح فى بلاد بعيدة ، ثم مدوا هيمنتهم إلى جنوبى إيطاليا حتى بلغوا ضواحى روما ، ولم يرجعوا عنها إلا بعد أن تعهد لهم البابا يوحنا الثامن أن يدفع الجزية[٤] . ومدوا كذلك سلطانهم إلى جنوب وغرب فرنسا ووقفوا تجاه باريس ، وعند قرية « بواتييه » هُزم القائد العربى المسلم عبد الرحمن الغافقى وجيشه ، فقُتل فى أرض المعركة وتقهقر الجيش الفاتح عائدا إلى معاقله فى أرض الأندلس ، وذلك فى السابع من شعبان عام مائة وأربعة عشر من الهجرة (الثانى من أكتوبر عام ٧٣٢ م) . وتأخر بهذه الهزيمة الفتح الإسلامى لأوربا من الغرب ، كما تأخر من الشرق أيضا .. ويعلق مفكر فرنسى معاصر على نتائج هذه المعركة ، معركة بواتييه ، أو بلاط الشهداء ، وهو مسيو كلودفارير فيقول : « كانت فاجعة من أشأم الأحداث التى نكبت بها الإنسانية فى القرون الوسطى ، وكان من آثارها أن غمرت العالم العربى موجة من التوحش لم تبدأ بالتبدد إلا فى عهد النهضة ، هذه الفاجعة التى أريد أن أمقت

---

(١) راجع : الحركة الصليبية — سعيد عبد الفتاح عاشور — فى جزءين .

(٢) ٢٥٢ الدعوة إلى الإسلام — أرنولد وتوماس — ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وراجع : المغول بين المسيحية والإسلام ، ومغول إيران وهما لمصطفى بدر .

(٣) ٢٦٠ المرجع نفسه .

(٤) حضارة العرب غوستاف لوبون ، وكتاب المسلمون فى صقلية وجنوبى إيطاليا لأحمد توفيق المدنى ، والمسلمون فى صقلية تأليف ماريو مورينو طبع بيروت .

ذكراها — هى هذا الانتصار البغيض الذى ظفر به أولئك البرابرة من الإفرنج بقيادة شارل مارتل .. ففى ذلك اليوم المشئوم تراجعت المدنية ثمانية قرون إلى الوراء . ويكفى المرء أن يطوف بفكره فى الأندلس وحضارتها الخالدة ليعرف : ماذا عسى تكون قد بلغته فرنسا منذ ذلك العهد السحيق ، لو أنقذها الإسلام ..

ويقول الفيلسوف الألمانى نيتشة : « حرمتنا المسيحية من ميراث العبقرية القديمة ، ثم حرمتنا بعد ذلك من الإسلام ، لقد ديست بالأقدام تلك المدنية العظيمة ، مدنية الأندلس العربية ، ولماذا ؟ لأنها نشأت من أصول رفيعة . إن تلك المدنية الإسلامية لم تنكر الحياة ، ولقد قاتلها الصليبيون وكان أولى بهم أن يسجدوا لها ، وما مدنيتنا فى هذا القرن إلا وانية « بجانب مدنية الإسلام » .

ولم يستأنف الإسلام بعد ذلك مسيرته الكبرى فى قلب أوربا إلا على يدى السلطان المسلم محمد الفاتح العثمانى ، الذى احتل القسطنطينية ودك حصونها فى اليوم الثلاثين من مايو عام ألف وأربعمائة وثلاثة وخمسين للميلاد (٨٥٧ هـ) . ودخلها من باب القديس رومانس ممتطيا صهوة جواده فى موكب جليل ، وسار إلى كنيسة سانت صوفيا فأذن من فوق قبابها للصلاة ، وصارت مسجدا جامعا من أعظم مساجد الإسلام ، وقتل يومئذ الإمبراطور قسطنطين ، وحاول البابا بيوس الثانى أن يجمع شمل أوربا لقتال المسلمين وطردهم من المدينة ولكنه فشل فى ذلك ، وساد الذعر يومئذ شعوب المسيحية جميعها ، ووقفت أمام الإسلام وجها لوجه تعمل بكل طاقاتها لتحسر موجته العالية عنها دون جدوى ..

لم يكن إذاً من المحال تبدل الحال ، حال العرب بالإسلام ، على يدى صاحب الرسالة الأعظم وأيدى خلفائه من بعده .

وكذلك لن يكون تبدل حال المسلمين المعاصرين بالإسلام أمرا عسير الإمكان مرة أخرى .

ولقد يهيمن علينا اليأس ، ونسرف فى القنوط والتشاؤم ، ونخلد إلى الكسل والراحة ، قائلين ومرددين : إن ما حدث بالأمس لا يمكن أن يحدث مثله فى يوم من الأيام .

وأقول : كلا سوف يعلمون ثم كلا سوف يعلمون ، فما حدث كان معجزة للإسلام ، والإسلام باق أبدا إلى قيام الساعة ، وليس من المحال أن ينتفض ويستيقظ المؤمنون به مرة أخرى ، غدا أو بعد غد بإذن الله .

يقول سارتون[1] المستشرق الأمريكى : إن شعوب الشرق الأوسط — وهو اصطلاح للأوربيين يريدون بهم الشعوب العربية المسلمة ، ويفضلونه حتى لا يجرى ذكر الإسلام ولا المسلمين على ألسنتهم لأنهم لا يحبون ذكرهما أبدا — قد قادت (هذه الشعوب) العالم فى حقبتين طويلتين : أولاهما قبل أيام اليونان وذلك طيلة ألفى سنة ، وثانيتهما فى العصور الوسطى — وهو كذلك اصطلاح غربى يريدون به عصر حضارة الإسلام وسيادة المسلمين — مدة أربعة قرون على الأقل ، وانظروا إلى سارتون يقلل ما أمكن من هذا الزمن ، وهو على الحقيقة نحو تسعة قرون ، ويتابع سارتون كلامه فيقول : وليس ثمة ما يمنع تلك الشعوب من أن تقود العالم مرة ثانية فى المستقبل القريب أو البعيد .

على أنه لا يصح لنا بحال من الأحوال أن نتناسى أهداف أوربا التى تعمل لها فى كل وقت وكل مكان ، وتتركز هذه الأهداف فى أمر واحد هو العمل من أجل القضاء على الإسلام والمسلمين فى العالم ما أمكنها العمل من أجل ذلك الهدف .

إن بقاء الإسلام والمسلمين أمر تكرهه أوربا كل الكراهية ، وكذلك قيام بعث إسلامى جديد لأنه شيء ترهبه كل الرهبة ، شرقها وغربها ، وامتداد الشرق والغرب فى ذلك سواء .

إنها تقدم الخوف من الإسلام والحذر من انطلاقه ، على كل خوف وكل حذر .

وهى — كما يقول العقاد[2] — مشغولة بأمر الإسلام مشغولية من يشعر بيقظته ، ويترقب ما وراء هذه اليقظة فلا يخرجها لحظة من حسابه .

ومن أجل ذلك تجمعت أوربا فى الماضى كما تتجمع اليوم ، وتحالفت شعوبها المتناقضة المختلفة كما تتحالف اليوم ، فى سبيل إيقاف هذه اليقظة ومقاومتها بكل ما تستطيع .

ومن هنا نرى الشرق والغرب الأوربى ، وامتداد الشرق والغرب فى كل مكان ، يخططون للمستقبل القريب والبعيد تخطيطا يحول دون قيام تلك اليقظة مرة أخرى ..

وهذه سلسلة التاريخ القديم والحديث مما هو معروف لنا جميعا ..

الحروب الصليبية التى امتدت نحو قرنين من الزمان .

---

(١) ٦٩ الثقافة الغربية فى رعاية الشرق الأوسط لسارتون ، ترجمة عمر فروخ ، بيروت ١٩٥٢ .

(٢) ١٧٠ الإسلام فى القرن العشرين — العقاد — طبعة ١٩٥٤ .

التخطيط لغزو التتار للعالم الإسلامى ، ولتدمير مراكز الحضارة الإسلامية فى العالم بأيدى التتار ، مما نجم عنه سقوط بغداد فى يوم الأحد الرابع من صفر عام ستة وخمسين وستمائة من الهجرة (العاشر من فبراير عام ١٢٥٨ م) بتحريض العالم المسيحى[1] .

سقوط الأندلس فى الحادى والعشرين من المحرم عام سبعة وتسعين وثمانمائة (١٤٩٢ م).

كشف البرتغال لطريق رأس الرجاء الصالح عام - ـمائة وأربعة من الهجرة (١٤٩٨ م) بإرشاد ابن ماجد الربان البحرى العربى المسلم ، وتحول التجارة العالمية مع الهند إلى هذا الطريق ، وإقفار شعوب العالم العربى ، وهى شعوب الشرق الأوسط التى كانوا يجبونها من هذه التجارة أثناء مرورها من قبل ببلدانهم من أيديهم .

ثم الحملة الفرنسية على الشرق العربى (١٢١٣ هـ — ١٧٨٩ م) .

ظهور المسألة الشرقية ، وتخطيط الغرب لنهاية الخلافة العثمانية والإمبراطورية العثمانية التركية .

قيام عصر الاستعمار الأوربى ، هذا الاستعمار الذى دمر العالم الإسلامى واحتل أراضيه ، واستولى على أملاكه ودولته الممتدة فى كل مكان ، ووضع يديه على كنوزه وثرواته وتراثه وحضارته ، وفرض عليه الحضارة الغربية فرضا ، وأجبره على اتباعها إجبارا بحكم القوة والسيادة ، وأخذ يزيل معالم الحضارة الإسلامية ومنهجها وأسلوبها من كل بلاد الإسلام شيئا فشيئا .

وما قيام إسرائيل فى قلب العالم العربى وعلى رقعة جليلة من أعز بلاد المسلمين إلا عمل آخر من هذه السلسلة الضخمة من سلسلة الأحداث والمؤامرات التى صنعها الغرب وأحلافه من أجل القضاء على الإسلام والمسلمين — على امتداد التاريخ .. وهى محاولات جديدة قديمة ، محاولات مستمرة من أجل الوقوف فى وجه التيار الإسلامى وفى وجه شعوبه والمؤمنين به .

ولكن ربك لهم بالمرصاد ، فعلى مرور الأيام والأجيال لم يخلد الإسلام وأهله إلى الهوان ولا إلى مشيئة الوثنية والوثنيين وحلفائهم أبدا ، لقد سار شامخ الرأس وضاح الجبين يبنى الحياة ويصنعها ، يبدل الهزيمة نصرا ، يطلع من ظلام الليل البهيم فجرا وفجرا ..

---

(١) ٢٥٢٠ الدعوة إلى الإسلام — أرنولد وتوماس ترجمة حسن إبراهيم وعبد المجيد عابدين .

انتصر فى معركة حطين الخالدة على جيوش الصليبيين القوية العتيدة (فى السبت الخامس والعشرين من ربيع الثانى ٥٣٨ هـ ــ الخامس من يوليو ١١٨٧ م) ، واستعاد بعدها بيت المقدس من أيديهم بعد احتلالهم الغاشم لها احتلالا دام نحو نصف قرن من الزمان (٤٩٢ ــ ٥٣٨ هـ : ١٠٩٩ ــ ١١١٤ م) .

وانتصر فى معركة المنصورة الكبيرة (٦٤٨ هـ ــ ١٢٥٠ م) ، وهى التى أسر فيها لويس التاسع ملك فرنسا وهزم جيشه هزيمة مروعة .

وانتصر فى معركة عين جالوت العظيمة على التتار (فى يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان عام ٦٥٩ هـ ــ ١٢٦٠ م) .

وفتحت القسطنطينية فى الثلاثين من مايو عام ثلاثة وخمسين وأربعمائة وألف للميلاد (٨٥٧ هـ) .

وانتشر الإسلام فى كل مكان ، فى الهند والصين وجزر المحيط الهادى ، وفى إفريقية وأوربا نفسها انتشارا هائلا كبيرا .. وأخذت الشعوب تدخل فيه بطريقة جماعية غير مألوفة .

ففى عام ٣٠٩ هـ (ثلاثمائة وتسع للهجرة) : ٩٢١ م اتصل ملك الفولجا بالخليفة العباسى المعتذر بالله ، وبعث إليه المقتدر من يرشده إلى الإسلام ، وأسلم هو وشعبه .

وفى عام ثمانية وثمانين وثلاثمائة للهجرة (٩٩٨ م) عرض أهل البلغار على الخلافة العباسية رغبتهم فى دراسة الإسلام ليدخلوا فيه ، ولكن ياباوات أوربا سبقوا المسلمين إليهم فاعتنقوا المسيحية .

وفى عام ستمائة وواحد وثمانين (١٢٨٢ م) أسلم أحد سلاطين المغول بأرض فارس ، وهو تكودار خان (٦٨١ ــ ٦٨٣ هـ : ١٢٨٢ ــ ١٢٨٤ م) وذلك فى عهد السلطان قلاوون بمصر (٦٧٨ ــ ٦٨٩ هـ : ١٢٩٠ م) ، كما ذكر القلقشندى[1] .

وفى الرابع من شعبان من عام ستمائة وأربعة وتسعين (التاسع عشر من يونيو ١٢٩٥ م) اعتنقت الإسلام شعوب المغول فى عهد ملكهم غازان خان ، وصار هو الدين الرسمى

---

(١) ٦٥٦١ ٦٨ ، ٧ : ٢٣٧ ــ ٢٤٢ صبح الأعشى ، وراجع : المغول بين المسيحية والإسلام والمغول فى إيران وهما لمصطفى طه بدر .

لدولتهم ، ودخل فيه في يوم واحد من وجوههم مائة ألف أو يزيدون ، وبإسلامهم أخذ العالم الإسلامى يسترد جانبا من أمنه وطمأنينته على حاضره ، وبدأ العلماء المسلمون يبنون من جديد مراكز الحضارة الإسلامية التى سبق تدميرها ، وأخذ ملوك المغول يرفعون المظالم عن كاهل الرعية يكفرون بذلك عمَّا قدموا من سيئات فى حق الإسلام وشعوبه ، وباسم الإسلام ضم تيمورلنك بعد ذلك البلاد الإسلامية إلى ملكه ، وإن كانت حروبه قد دمرت مرة أخرى المراكز الجديدة للثقافة الإسلامية ، كما دمر الأتراك فى فتوحاتهم ما نشأ من مراكز أخرى ، ولكنهم حملوا مشاعل الإسلام إلى قلب أوربا وبلغوا رسالته إلى العالم المسيحى كما حملها الفرنسيون من قبل إلى الهند والصين ، وفى عام ألف وثمانمائة وثلاثة وستين كانت معركة تركيا الفاصلة مع الغرب أمام أسوار فينا ، حيث ارتدت جيوشها مهزومة بعد الحصار الطويل الذى كانت قد فرضته على المدينة .

ومع ما أصابها من قبل ومن بعد من هزائم ، فقد بقيت حصنا للإسلام ، ودرعا يحمى حوزة المسلمين ، وما موقف السلطان عبد الحميد من الصهيونية — وحسبه ذلك فخرا — عنا ببعيد ..

ذهب إليه وفد يهودى من جمعية أحباء صهيون وعرضوا عليه بواسطة رئيس وزرائه تحسين باشا — عروضا كثيرة مغرية ، هى :

١ — يتعهدون بسداد جميع ديون الخلافة ، البالغة مائة وثلاثة وثلاثين مليون ليرة إنكليزية .

٢ — وبتأسيس أسطول بحرى تجارى للدولة يتكلف مائة وعشرين مليون فرنك فرنسى .

٣ — وبتقديم قرض للخلافة بمبلغ خمسة وثلاثين مليون ليرة ذهبية دون فائدة .

على أن يسمح الخليفة لليهود بإنشاء مستعمرة لهم بالقرب من بيت المقدس ، وبدخول فلسطين فى أى يوم من أيام السنة .

وكان جواب الخليفة المسلم هو ما نصه : يا تحسين ، قل لهؤلاء اليهود الوقحين ما يلى :

١ — ديون الدولة ليست عارا عليها ، فغيرها من الدول مثل فرنسا مدينة ، وذلك لا يضيرها .

٢ — ليحتفظ اليهود بأموالهم فالدولة العلية لا يمكن أن تحتمى وراء حصون بنيت بأموال أعداء الإسلام .

٣ — بيت المقدس افتتحها للإسلام عمر بن الخطاب ، ولست مستعدا لأن أتحمل فى

التاريخ وصمة بيعها لليهود ، ولا لخيانة الأمانة التى كلفنى المسلمون بحملها .

٤ ــ وأخيرا ، مرهم فليخرجوا من عندى ولا يحاولوا بعدها مقابلتى أو الدخول إلى هذا المكان أبدا .

وخرج اليهود ليأتمروا مع الاستعمار على السلطان عبد الحميد ، فقامت الثورة عليه وأقصى عن عرش الخلافة ، وكانت الأموال التى أنفقوها فى هذا المضمار هى السبب الرئيسى لكل ما حدث ، ولكنه لقى ربه راضيا مرضيا .

وما أكثر ما صادف الإسلام من انتصارات وهزائم ، من آمال وآلام ، من أفراح وأحزان ، ومع المحن التى نزلت بشعوب الإسلام فلا تزال أوربا خائفة من يقظة المسلمين ، ومن قيام انطلاقة جديدة فى بلاد الإسلام . يقول غوستاف لوبون : « الحق أن أتباع محمد ظلوا أشد من عرفتهم أوربا من الأعداء إرهابا عدة قرون ، وعندما كانوا لا يرهبوننا بأسلحتهم كانوا يذلوننا بأفضلية حضارتهم العربية السامقة ، ونحن لم نتحرر من نفوذهم إلا بالأمس » .

- وهذا بترارك الشاعر الإيطالى فى القرن الرابع عشر الميلادى يصيح فى قومه قائلا : ياعجبًا » !! لقد استطاع شيشرون أن يكون خطيبا بعد ديموستين (٣٨١ ــ ٣٣٢٥ ق.م) واستطاع فرجيل أن يكون شاعرا بعد هوميروس (عاش فى القرن التاسع ق م) ، فهل قدر علينا ألا نؤلف بعد العرب ؟ لقد تساوينا نحن والإغريق وجميع الشعوب ، بل سبقناها أحيانا ، إلا العرب .. فيالعبقرية إيطاليا الخاملة الخامدة .. » .

وهذا بروتز مؤرخ الحروب الصليبية يقول :

ليس فى وسع الأدب الأوربى لذلك العهد ــ عهد حضارة الإسلام ــ أن يقدم مثالا يفضل مؤلفات العرب ، ويكفى فى هذا تصفح ما خلفه المؤرخون العرب ، ومقارنة ذلك بأحسن ما أنتجه فى التاريخ فى أوربا[1] .

وهذا فيكتور هوجو شاعر فرنسا فى القرن التاسع عشر الميلادى يقف مذهولا مبهورا أمام حضارة الإسلام فى الأندلس ، ممثلة فى أثر من آثارها وهو قصر الحمراء الذى ظل مأخوذا بعظمته ، مما صوره فى إحدى قصائده الخالدة .

ويقف إقبال شاعر الإسلام على أطلال الحضارة الإسلامية فى جزيرة صقلية ، ويغلبه

---

(١) ٢١ تاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشوفسكى ــ ترجمة ونشر جامعة الدول العربية .

التأثر فيبكى ويقول من قصيدة له :

« .. ابك أيها الشاعر دما لا دمعا فهذا هو مدفن الحضارة العربية » . » .

وتدمير أوربا لمعالم الحضارة الإسلامية فى داخل وخارج بلادها رغبة منها فى القضاء على التراث الإسلامى العريق ، أمر واضح معروف .

وهذه هى نفسية أوربا وحقدها على الإسلام وشعوبه ، وفزعها وقلقها الدائم خوفا من قيام بعث جديد فى العالم الإسلامى .

إنها ترهب الأسد مكبلا بالأغلال ، ومع ذلك تعمل بكل طاقاتها لمنع يقظته وليبقى راضيا بأغلاله التى صنعتها هى بيديها له ..

﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ◌ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾[1] .

وأعجب العجب أن يمد الغرب المسيحى يديه إلى الوثنية المادية وإلى الوثنيات الأخرى ، يستعين بها فى محاربة الإسلام وفى القضاء عليه فى بلاده وفى بلاد كانت إسلامية آمنة ، مثل القرم والقوقاز وبخارى وسمرقند وخوارزم ، ومثل الفلبيين وزنجبار وموزمبيق وغيرها ، ثم يمد يديه كذلك إلى الصهيونية يؤازرها ، ويؤازرها معه كل معاد للعرب وحاقد على الإسلام[2] من اليساريين وغير اليساريين على السواء . وهذا كاسترو ينصح السفير الإسرائيلى فى بلاده ، كما ذكرته صحف كوبا وإذاعتها ، وترجمته عنها صحفنا العربية ، فيقول له :

---

(١) ٣٢ و٣٣ سورة التوبة .

(٢) غرض الصهيونية العالمية هو تمييع التراث العربى والإسلامى فى منطقة الشرق الأوسط على الرغم من تمسكها هى بتراثها الدينى الإسرائيلى (الصفحة الثالثة من جريدة الحياة البيروتية عدد ١٥ / ١١ / ١٩٧٠) .

وليس فى العالم كله دولة تخشى التحركات الإسلامية بمثل ما تخشاه روسيا لأنها بدون المناطق الإسلامية فيها لا تستطيع اقتصاديا أن تظل دولة كبرى (٣ الحياة ــ ١٥ / ١١/ ١٩٧٠) .. وغرض أمريكا من نشاطها السياسى والثقافى والعلمى فى منطقة الشرق الأوسط طيلة المائة عام الأخيرة هو تمييع المبادئ والعقائد الروحية والدينية التى يؤمن بها سكان المنطقة (٣ الحياة ــ ٢٥ / ١١ / ١٩٧٠) ويقول ايدن فى مذاكراته ص ٣٤٣ الطبعة الإنجليزية : إن أمريكا راحت تنفق أموالها بسخاء فى الخمسينات على نطاق مسرف لإعانة الشيوعية فى منطقة الشرق الأوسط .

« .. على إسرائيل ألا تترك الحركة الفدائية تتخذ طابعا إسلاميا دينيا حتى لا يجعل من حركتهم شعلة من نار الحماس الدينى ، مما يجعل من المستحيل على إسرائيل أن تصون كيانها ، لأن الفداء إذا تملكته عقيدة دينية ، وبخاصة فى المجتمعات الإسلامية ، تلاشى أمامه كل العقائد الأخرى بما فيها الماركسية .. »

وسيعلم الناصح غير الأمين كاسترو أنه هو ومن ينصحهم سوف يبوءان بالخسران والذل المقيم بإذن الله .

وهكذا تقف جميع القوى العالمية فى مواجهة الإسلام ترصد حركاته وتتعرف خطواته وتتسمع همساته خوفا وفرقا ، وجبنا وحذرا . وتحرص جميع وسائل الإعلام الصهيونية وغير الصهيونية على تسقط أخباره وعلى تجسيم خطواته وكل خطوة يخطوها المسلمون ليلفتوا الأنظار فى العالم الصليبى والشيوعى والصهيونى إلى حركاته وخطواته . ويجتمع القادة بين الحين والحين للتخطيط لمستقبل الشرق الأوسط فى غياب الأسد الهصور عن عرينه ، ولكنهم سوف يفاجأون فى يوم من الأيام بإذن الله بما لم يكن لهم فى الحسبان وبما لم يدر فى خلدهم وتفكيرهم على طول الزمان . وصدق الله العظيم .

﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله أولـٰئك فى الأذلين ، كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾(١) — ﴿ قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب ، قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد ﴾(٢) .

إذن كيف تصل إلى الغد الذى نريده ونحلم به ؟

نقول :

كان ماضى الإسلام يتركز فى العقيدة الإلـٰهية المحمدية التى حملها فى جوانحهم مسلمون يصنعون المعجزات بإيمانهم .

أما حاضره اليوم فلا يعتمد على أساس ، مسلمون ولكن أين العقيدة ، وعرب ولكن أين الإيمان ؟

حاضرنا كحاضر العرب حين بدء نزول الرسالة مما ينطق به قول الله عز وجل(٣) : ﴿ قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى

---

(١) ٢٠ ، ٢١ سورة المجادلة .
(٢) ٤٨ ، ٤٩ سورة سبأ .
(٣) ٦٤ سورة الحجرات .

قلوبكم ﴾ .. وقول رسول الله ﷺ : (بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء)*.

إن الغد الذى نريده لن يكون لنا إلا بالإسلام ، ولن نصل إليه إلا إذا كنا مؤمنين بعد أن نكون مسلمين ، إنه لا يمكن أن يكون غدا آخر مقطوع الصلة بماضينا لأن ذلك محال يأباه ديننا وتراثنا وتاريخنا وفكرنا من جانب ، ومحال الوصول به إلى غاياتنا وأهدافنا من جانب آخر ، وفيه ما فيه من تفريق جهود المسلمين ودخولهم فى دائرة التبدد بالصراع الطبقى والحرب الاجتماعية بين الناس من جانب ثالث . وقد فشلت وتفشل كل المحاولات لبناء غد للإسلام يرتكز على أصول غير إسلامية ، من وثنية ومادية إلحادية ووجودية وعلمانية وغيرها من المذاهب السائدة اليوم ..

ولا يوصى مفكرو الإسلام وعلماؤه شعوبهم اليوم وقبل اليوم وبعد اليوم إلا بشىء واحد فى مقدورهم ، وفى مقدورهم أن يفعلوه ، وهو سبيلهم الوحيد إلى النجاح والنجاة لو فعلوه ، ذلك هو عودة اليقظة الإسلامية من جديد ، نسير بها على ضوء البعث الإسلامى الكبير الذى صنعناه من قبل ، صنعنا به أعظم حضارة فى أعظم حقب التاريخ ، إلى ما ننشده من غايات كريمة فى الحياة .

وذلك كان محور دعوات أئمة الإسلام وأعلامه فى العصر الحديث فى كل مكان ، وهو يكمن فى أساسه فى القيام بتربية إسلامية حقة.. يقوم عليها جيل جديد يسير على بصيرة من الأمر إلى فجر النور ، إلى عهد الحقيقة ، إلى سنا الأمل إلى مشرق البعث الذى يود نحو سبعمائة مليون مسلم فى شتى أنحاء العالم أن يبصروا فى ضـــوئه طريقهم إلى السلام والرفاهية والمجد والعزة والسيادة فى الأرض ، فالبعث الروحى هو منطقنا إلى الجد والمجد ، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما صلح به أولها .

كان الإمام محمد عبده فى ظلمات اليأس القاتلة وهو يرى بلاده المسلمة تحتلها أعظم دولة فى عصره ، يقول لجمال الدين الأفغانى :

أيها السيد ، أرى أن نترك السياسة ونذهب إلى مجهل من مجاهل الأرض لا يعرفنا فيه أحد ، ونختار من هذه الأمة عشرة غلمان — أى فتيان أو طلاب فنربيهم على منهجنا ، ونوجه وجوههم بمقصدنا : فإذا أتيح لكل واحد منهم تربية عشرة آخرين لا يمضى بضع سنين إلا ولدينا مائة قائد من قواد الجهاد فى سبيل الإصلاح ، ومن هؤلاء يرجى الفلاح ..

ومغزى كلامه أن للتربية الإسلامية طاقتها الكبرى على العمل من أجل استعادة هذا المجد العريق ، من أجل الغد المشرق والمستقبل المأمول ، وهو ما كرر الدعوة إليه كاتب إسلامى مشهور هو محمد فريد وجدى فى كتابه « الإسلام فى عصر العلم »

عن طريق التربية الإسلامية الحقة يصبح بلوغ هذا الهدف ممكنا ، ويصير تبدل الحال ــ حالنا اليوم ــ إلى حال أفضل أمرا جائزا ، ولن يتم ذلك إلا بالإسلام .. الإسلام وحده ، وتقرير اليقين بإمكان الوصول إلى ذلك فى نفس كل مسلم واجب شرعا ، واليأس من بلوغ هذه الغاية قنوط من رحمة الله .

وما أحب إلى نفس كل مسلم أن يعود المسلمون بالإسلام إلى قيادة العالم ، وإلى استعادة مجدهم القديم ، وإلى الحياة فى ظلال حضارة إسلامية جديدة .

والإسلام تلقيناه عن الرسول عن الروح الأمين ، عن رب العزة والخالق المهيمن على ملكوت السمٰوات والأرض ، ولقد نطق به كتاب كريم ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾(١) .

وهو فى أصوله الكبرى دين الأنبياء من قبل ، وشريعة التوحيد التى وصى الله بها أنبياءه ورسله : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحا والذين أوحينا إليك وما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرَّقوا فيه ﴾(٢) ، ﴿ ووصَّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنىَّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ۞ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلٰهك وإلٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلٰها واحدا ونحن له مسلمون ﴾(٣) .

الإسلام شريعة الله التى ارتضاها لخلقه واصطفاها لعباده .

﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ (٤) .

﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾(٥) .

﴿ أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السمٰوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون ﴾(٦) .

---

(١) ٤٢ فصِّلت .
(٢) ١٣ الجاثية .
(٣) ١٣٢ و ١٣٣ البقرة
(٤) ١٩ آل عمران .
(٥) ٨٥ آل عمران
(٦) ٨٢ آل عمران .

هذه الشريعة هى أساس سعادة العباد وسبب أمنهم وطمأنينتهم فى الدنيا والآخرة ...
﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون﴾(١) ــ واستقاموا : أى على الطريق وهى دين الإسلام .

والشريعة فى الأصل مورد الماء العذب النمير ، وهى كذلك الطريق اللاحب والدين الحق الذى يجب التزامه والعمل به والسير عليه بالقلب أو بالجوارح ، وهو شامل لكل ما يتصل بالعقيدة أو بالسلوك أو بالعمل ، فلا يعد الإنسان مسلما إلا إذا امتثل أمور الله فى هذه النواحى الثلاث ، فهو الدين والدولة ، والآخرة والدنيا ، والعقيدة والشريعة جميعا .

ويخطئ المبطلون المدفوعون بأيدى الاستعمار والتبشير والعلمانية الغربية ، من يزعمون أن الشريعة قاصرة على العقيدة وحدها ، أو أنها الأحكام التى تنظم العلاقة بين العبد وربه فحسب ، وهم يقولون زورا وإفكا إن الأحكام التى شرعت لبيان علاقة الإنسان بالإنسان ليست من الشريعة فى شىء ،ومردها إلى ولى الأمر الشرعى . ويريدون بذلك عزل الإسلام عن الحياة وتحويله إلى دين رهبنة كالمسيحية حتى لا يبقى عليهم منه خوف .

وهم فى ذلك وفى ضلالهم العجيب يهرفون بما لا يعرفون .. ولو عقلوا لعرفوا أن الإسلام يجمع كل شىء : يدخل فى باب العقيدة وفى باب السلوك وفى باب العقل مما يؤديه المسلم تقربا إلى الله كالصلاة والصيام ، أو تبادلا للمنافع بينه وبين الناس كالبيع والشراء والشركة والرهن والمزارعة والمغارسة .

إن هؤلاء الذين يدعون إلى عزلة الإسلام عن الحياة والدولة وواقع الناس إنما يعبرون عن رأى الغرب وعما يتمنى الغربيون أن يصير إليه الإسلام ، وهم يريدون أن يؤول أمره إلى ما آلت إليه المسيحية إذ أصبحت أمرا يخص الإنسان وحده ، ولا صلة لها بشئون المجتمع أو الدولة أو الحياة .

إنهم ــ ولا ريب ــ مدفوعون إلى شعاراتهم الباطلة بأيدى أعداء الإسلام من الصليبيين والصهيونيين والشيوعيين . ولهم الخسران والضلال المبين .. وبئس شعارهم الذى يرددونه والذى نقلوه عن خصوم الإسلام نقلا ، وهو وصية المسيح المشهورة « دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله» ، لأنه أكثر الشعارات بهتانا وزورا وافتراء وتآمرا على الإسلام .

ليس الإسلام كالمسيحية ولا غيرها من الأديان دين رهبنة وأديرة فحسب . إنه حركة

---

(١) ٣٠ فصّلت .

اجتماعية دائبة تشمل الاعتقاد والأخلاق والدولة والنظم الاجتماعية ، يقول العقاد[1] : « لم يذهب الإسلام مذهب المتفرقة بين مالله وما لقيصر ، لأن الأمر كله فى الإسلام لله ﴿ بل لله الأمر جميعا ﴾ .

وأقول :

« إنه على شعارهم الباطل لا يكون هناك معنى لأن يأمر الله عباده بالأمانة وتحمل المسئولية وأداء الواجب ، وبالصدق فى المعاملة ، وبالحفاظ على أعراض الناس وأموالهم ودمائهم ، ولا لأن يبيح الله البيع ويحرم الربا ، ولا لأن يلزمنا بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » ..

وإن كانت العقيدة والتوحيد هى الدعامة الكبرى للإسلام .

وكيف يصح قولهم والله عز وجل يقول[2] :

﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ۞ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ۞ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ۞ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ۞ لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ .. وفى حقيقة التوحيد يقول محمد فريد وجدى [3] : « الإسلام أن تسلم وجهك لله مجردا نفسك من علمك وعقلك وحولك وقوتك وتقاليدك كلها ، الفقر شعارك ، والخشوع دثارك ، والتقوى والرجاء والضراعة صفاتك ، متجردا له كيوم ولدتك أمك على الفطرة لتتحقق عبوديتك » ، ويقول باحث : « معنى الإسلام أن تستسلم لله سبحانه ، أن توطد نفسك على أن تكون فى إطار التربية الإلٰهية[4] .

هذه هى حقائق الإسلام الدين الذى عاش فى ظلاله أجدادنا وسارت تحت لوائه أيامنا وأجيالنا ، وشهدت حضاراته وانتصاراته أرضنا وسماؤنا ، وكان منه ماضينا ، ومن خيوطه نسج حاضرنا ، وفى ظلاله سوف يعيش غدنا ، ولا غد لنا إلا فى ظله ، ولن نحيا إلا بالعودة

---

(١) ٢٧ الإسلام فى القرن العشرين (٢) ١٥٩ ــ ١٦٢ الأنعام .
(٣) ٢ : ٣٥٦ الإسلام فى عصر العلم .
(٤) ٢٠ مجلة الوعى الإسلامى ــ رمضان ١٣٩٠ ــ عبد الحليم محمود .

كل العودة إليه ، ويصبغ حياتنا فى كل جوانبها بصبغته[1] .

ولسوف يصنع هذا الغد الوضاء المسلم الحقيقى ، المسلم الذى وصفه إقبال بأنه مطلع فجر السعادة فى العالم ، ومؤذن الصباح فى الليل المظلم ، ومصدر التطور الصالح فى التاريخ ، حتى يشرق العالم بالنور ، ويستيقظ الكون من سباته بالبعث .

المسلم الحقيقى الذى هو معجزة الله فى الكون وصورة الكمال فى الوجود ، والذى وعده الله بأن يستخلفه فى الأرض لأنه زكى نفسه وقلبه وروحه بالإيمان ، وطهر جوارحه وبدنه بالعمل الصالح ، .. ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ﴾[2] ، ﴿ قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد ﴾ .

والمسلم الحقيقى هو وحده الذى سينتصر فى الحياة وسيملك وحده زمام القيادة فى العالم ، وصدق الله العظيم : ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾[3] .. يقول إقبال : « إنك أيها المسلم فى العالم كله حق وحدك ، وما عداك سراب خادع ، ووهم باطل . إن إيمان المسلم هو نقطة دائرة الحق ، وكل ما سواه فى هذا العالم المادى وهم وظلم ومجاز .. » .

ويقول العقاد[4] : إذا بقى للإسلام إيمانه والمؤمنون به فلا خطر عليه من أقوياء اليوم ، ولا من أقوياء الغد المجهول .

ويقول : لن يكون هناك فى يوم من الأيام خطر على الإسلام ، حتى فى عصر سيطرة الغرب وسيادة حضارته فى العالم .

ونقول له كذلك : إنه إذا بقى للإسلام إيمانه والمؤمنون به فإن الصورة التى سوف نراها فى الحياة يومئذ لن تكون هى انتفاء الخطر عنه بل هى عودة الإسلام إلى قيادة العالم

---

(١) يقول شيكسبير فى مسرحية العاصفة : إذا عشت فى ماضيك جعلت منه مقدمة لمستقبلك .
ويقول الفيلسوف الأمريكى سانتيانا فى كتابه « حياة العقل » : لقد حكم على الذين ينسون الماضى أن يتابعوا العيش بين أحضانه » .

(٢) ٥٥ النور . (٣) ١٧ الرعد .

(٤) ١٧٩ الإسلام فى القرن العشرين ، ط ١٩٥٤

وتملك زمام البشرية والحضارة مرة أخرى ، لأنه حينئذ لن يكون هناك صوت أعلى من صوته . ولا قوة أشد بأسا من قوته . وهذا مرهون بعودة المؤمن الحقيقى إلى ساحة النضال من أجل رسالة الإسلام ، المؤمن الذى سوف ينهض ويتقدم ويحيا العالم على يديه .

ولا علاج إلا فى الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ، وأن يقدم كل مسلم ما يستطيع لتحقيق هذه الغاية[1] .

ولن ينهض الإسلام إلا برسالته والإيمان بها والاستماتة فى سبيلها ، وهى رسالة واضحة لم يعرف العالم رسالة أعدل منها ، ولا أفضل ولا أيسر للبشرية[2] .

إن الذى وقف فى معارك الإسلام الكبرى مؤمنا صامدا صابرا صادقا مناضلا من أجل الحق ودين القيّمة ورسالة السماء ، إنما هو هذا المسلم الحقيقى الذى كان هو ومن ماثله النماذج البشرية الرفيعة فى تاريخ الإسلام والحضارة ، فهم الذين روعوا هرقل وفزعوه فى حروبهم فى الشام ، فلما خرج منها مهزوما مدحورا ووصل أنطاكية وأقبلت فلول جيوشه الجريحة الذليلة المحطمة إليه ، بكى وأمر بعقد مجلس حربى أعلى وصاح فى كبار قواده :

ــ ويلكم ، أخبرونى عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم ، أليسوا بشرا مثلكم ؟

وردوا جميعا عليه : بلى نحن أكثر منهم أضعافا مضاعفة فى كل موطن .

وهنا سألهم : فما بالكم تنهزمون ؟

فسكتوا ، ولكن قائدا كبيرا قال له : أيها الملك ، لقد انتصروا وهزمنا من أجل أنهم يقومون الليل ، ويصومون النهار ، ويوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويتناصفون بينهم .

ومن أجل أننا نشرب الخمر ، ونزنى ، ونركب الحرام ، وننقض العهد ، ونغضب ، ونظلم ونأمر بالسخط ، وننهى عما يرضى الله ، ونفسد فى الأرض .

هكذا روى ابن الأثير ، وبالحق نطق هذا القائد المحنّك الحكيم .. وفى غزو المسلمين لبلاد فارس جلس رسول المسلمين فى مجلس إمبراطور الفرس يزدجرد ، وأقبل عليه الإمبراطور يسأله : من تكونون وماذا تريدون ؟

---

(١) ٩ واجب المسلمين فى نشر الإسلام ــ للعلامة زيد بن فياض .

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟

وجاء الجواب واضحا قويا جليلا : « إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل السماء » .

هذه هي عظمته وسموه وإنسانيته ونبل مقصده وشرف غاياته ، ومن أجل ذلك كان دين الحياة وعقيدة الزمن وشريعة البشرية فى كل زمان ومكان ، وكان معتقدوه أقدر على أن يصنعوا للعالم مستقبله المتألق النبيل المنشود .

وفلاح الإنسانية وصلاحها فى المستقبل يتوقفان على أن تؤمن بالإسلام ونكفر بكل ما اخترعت من نظريات باطلة(١) ومن وثنيات كافرة جاحدة . وكان الأفغانى يردد : الدين قوام الأمم ، وفيه سعادتها وفلاحها .

إنه لو قدر لهذا الكون أن يشهد قيام أمة إنسانية على الأرض فلن تكون هذه الأمة إلا مسلمة ، ولن يكون قائدها إلا القرآن الكريم الذى يطبع كل مؤمن به على أخلاق سماوية شريفة طاهرة مُثلى ، لأنها أخلاق القرآن .

وقد سئلت عائشة عن النبى ﷺ فقالت : كان خلقه القرآن(٢) .

وإنى لأعجب أشد العجب حين أرى الكثير من المفكرين والكتّاب الإسلاميين يقفون حائرين فى أمر غد الإسلام ، وفيما سوف يكون عليه هذه الغد المرتقب وفيما يشهده فجر المستقبل المنشود .. وموقفهم يدل على عدم وضوح الرؤية أمامهم وعلى سذاجة تفكيرهم وسطحيته ، وهم ومن ينحون منحاهم واقعون فى خطأ جسيم .

كتّابنا الإسلاميون المعاصرون :

١ ــ إما جاهلون بالإسلام ، ولا أقول متجاهلون له .

٢ ــ وإما جازمون بأن الإسلام اليوم فى غربة وغدا سيكون فى أشد منها . وما أشد خطأهم هذا لأن غربة الإسلام التى جاء بها الحديث الشريف هى غربته اليوم بيننا التى سيعقبها انطلاق وبعث ،وهى كغربته الأولى يوم نزلت الرسالة من السماء إلى الأرض،

---

(١) حاجة الإنسانية إلى نظرية صالحة .

(٢) سأل سعيد بن هشام أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها عن خُلُق رسول الله ﷺ ، فقالت : كان خلقه القرآن ، ألست تقرأ القرآن ، ﴿ قد أفلح المؤمنون • ... ﴾ إلى آخر هذه الآيات الشريفة .. وقد أخرج هذا الحديث مسلم عن رواية زرارة بن أبى أوفى عن سعيد بن هشام .. وأخرجه الحاكم . والقرآن ــ كما يقول الشاطبى فى الموافقات ــ أصل الأصول، وكلية الشريعة ، وعمدة الملة ، ونبوغ الحكمة ، ونور الأبصار والبصائر ، وأنه لا طريق إلى الله سواه .

وقد أعقبها البعث الأكبر والانطلاقة العظمى التى لم يشهد التاريخ ولا الحياة ولا العالم لها مثيلا .

٣ — وفريق منهم حائرون مترددون لا يدرون عن الغد شيئا ولا يوقنون بأمر فى شأنه ، وحيرتهم كما قلت دليل عدم وضوح الرؤية أمامهم .

٤ — وهناك من يقولون : إن الإسلام سوف يعود فى الغد إلى الظهور على مسرح الحياة ، قوة عالمية ثالثة بين قوتى الشرق والغرب ، قوة بين العديد من القوى التى تسيطر على أقدار الناس والحياة .

ويردد العقاد ذلك الرأى أيضا فى كتابه : « الإسلام فى القرن العشرين » المطبوع منذ ستة عشر عاما فيقول[1] : « إن الإسلام مجموعة من مجاميع الأمم الكبرى فى القرن العشرين » .

ولذلك أيضا ذهب الدكتور محمد البهى فى كتابه : « الفكر الإسلامى ، مشكلات الأسرة والتكافل » ، المطبوع منذ سنوات قلائل .

ولكنى أقول لكم اليوم الحقيقة ناصعة :

نقول فى يقين قوى إن الغد وحده للإسلام ، وأن الغد للإسلام وحده .

لن يكون الإسلام القوة الثالثة بين قوتى الشرق والغرب لأنه لن يكون هناك شرق وغرب ولا قوة للشرق ولا للغرب ، بل سيكون الإسلام فى الغد القوة الوحيدة فى العالم ، ولسوف تندثر حضارة الشرق والغرب جميعا .

إن الإسلام هو النموذج الكامل الشامل ، ولا بد أن تعود جميع النماذج إليه القريبة منه والبعيدة عنه على السواء ، أما أن الإسلام هو الذى رجع أو يرجع إليها فهو ولا ريب خطأ وأى خطأ ..

ونعود فنتساءل :

ما العقبات التى تقف فى وجه البعث الذى ننتظره ، وما الحواجز التى وضعت لتحول دون بلوغ المسلمين غاياتهم الجسام ؟[2] .

---

(١) ١٨١ الإسلام فى القرن العشرين .

(٢) راجع : الإسلام والتيارات المعاصرة للأميرى .

وأجيب على هذا السؤال :

إنها عقبات كثيرة أقامتها الصليبية والاستعمار والماركسية والصهيونية ، بعضها ظاهرة وبعضها خفية ، وهى تعمل متعاونة على إضعاف الإيمان من أنفسنا بأنفسناوبديننا وبمقوماتنا ، وعلى ترك اليأس يدب إلى قلوبنا ، وعلى الاستسلام الكامل لمدية عدونا وهو يجهز علينا ، فلا نتحرك ولا نتململ ، ولا ندع سمعه يتأذى بأنين المذبوح ، بل يجب أن نقول له : فديناك فديناك بالنفس والروح .

عقبات وما أشدها وأشد صلابتها وشراستها وضخامة إمكانياتها وقدرتها على محاربتنا ، بل ما أشد استسلامنا لها ومعاونتنا إياها فيما تصنعه بنا .. ومع ذلك فمن الإيمان ألا يحسب لها مسلم قوى العقيدة حسابا ، وألا يفتح لها ولا للقنوط فى أعماق نفسه وعقله بابا ، أما غير المؤمن بنفسه ودينه وكتابه وبماضيه وبحتمية انتصار هذا الدين فى معارك الحياة فشأنه وما يريد ،وإن كنا نتمنى أن يعود الإيمان والأمل والثقة إلى روحه من جديد . وأولى تلك العقبات :

هذه الحضارة الغربية بكل طاقاتها ومادياتها ووسائلها وابتكاراتها ، وبكل فلسفاتها وأيديولوجيتها ومذاهبها ، من الرصاصة إلى القنبلة الذرية والهيدروجينية والفلكية أخيرا ، إلى الصواريخ الجبارة التى تنتظر التحليق فى السماء ، ثم بكل ما ينشأ من أجل نموها وبقائها من جامعات ومصانع وشركات ومؤسسات ، وما يرصد لها من أموال واستثمارات وثروات وكنوز منهوبة .

هذه الحضارة هى أمر هائل ضخم مفزع يحسب حسابه فى لغة الأعداد ولغة القوة ، ولكنها مع ذلك ، وكما نؤكد ، أوهى من بيت العسل ، وأوهن من نسج العنكبوت .

ذلك أنها بناء بلا أساس ، وجسم من غير روح ، ومادة دون عقل ، وسلوك خاص بلا عقيدة . هى لا تنطوى على نزعة إنسانية أو خلقية حتى لنراها يدمر بعضها بعضا ، ويحطم جانب منها جانبا آخر ، وهى تقف كل لحظة على أبواب الفناء الذرى الذى لا يُطمأن معه إلى شىء ، فلقد أصبحت الحرب النووية تهدد هذه الحضارة وما يسندها من قوة بالفناء ، وتهديدها قائم مستمر لا ينقطع أبدا ، ولو أرادت الدول العظمى اليوم السلام ما وجدت السبيل إليه ، ومع ذلك فإن حضارة اليوم تقوم على دعائم منهارة ، وإذا كانت هذه الحضارة قد يسَّرت الحياة أمام الإنسان فإنها قد رجعت به القهقرى إلى حياة الغاب

والوحشية ، وأحدث صورة لها هي صورة الهيبيز التي تعد ولا ريب انتكاسة في حياة الإنسانية .

وهكذا عادت حضارة الغرب بالإنسان إلى ساحة الرق ، وألقت به في هوة الظلم والظلام والخضوع المطلق لحكم الاستغلال والقوة .

وعلى أن رأس المال الضخم الذي يدعم هذه الحضارة لا يرهبنا ، ففي الإمكان أن يكون لنا مثله ، وخيرات بلادنا وكنوزها تمثل قسما منه ، وقسم آخر هو ثمرة العقل واستغلال نعم الله في الأرض ، ولا يعجزنا المسير مع الغرب في هذا الميدان فلنا من العقل مثل ما لغيرنا سواء بسواء ، أما القسم الثالث من رأس المال هذا فهو من صنع الربا والاحتكار ، وبسببه يسلط الله الحروب على الأرض لتبتلع هذه الأموال الحرام ، ويرسل عليها شواظا من الخوف فهي في السلام في خوف من الحرب كخوفها من الحرب ذاتها ، وما ينفق في صنع مركبة قمرية مثلا من أموال طائلة كان يمكن أن تكون وسيلة سعادة ورفاهية للملايين المحرومة.

ومع ذلك فنحن لا يغيب عن تفكيرنا أن هذه الحضارة الغربية قد نال منها الهرم ودبت فيها الشيخوخة وأخذت تقترب من حافة الفناء .

يقول بول فاليري الشاعر الفرنسي الكبير(1) : فرنسا ، إنجلترا ، روسيا ، ألمانيا ويا لها من أسماء كانت جميلة ، كما كانت أسماء عيلام ونينوى وبابل جد جميلة ،ولحاق هذه الأسماء الراهنة بأسماء الأمس الغابر لم يعد شيئا مستعصيا على الإدراك .

ويقول فولني من كبار رجال الفكر الأوربي :

ماذا أصاب تلك البدائع الراهنة التي حققتها يد الإنسان ؟ أين هي حصون نينوى وجدران بابل ؟ ومن يدري ؟ لعل مسافرا في المستقبل يجد نفسه عند شواطئ السين والتايمز يجلس باكيا فوق بقايا الفتات الذي تحولت إليه معالم الحضارة حول هذه الأنهار .

ويعجب دنيس دورجمون من العدد الذي يتضاعف بصورة مستمرة من الأوربيين القائلين بانهيار الحضارة الغربية ، ومن المتنبئين الذين يفضلون الحديث عن كشوفها .

ويقول إقبال :

---

(1) المتنبئون بالسقوط ـــ مقال لرمضان لاوندى ـــ البلاغ الكويتية عدد ٢٧ رمضان ١٩٧٠/١١/٢٥ .

مثّلت حضارة الغرب دورها ، وقد شاخت وهرمت ، أينعت كالفاكهة وحان قطافها ، وسوف ينهار العالم الذى حوّله مقامرو الغرب إلى حانة للفساد عما قريب ، ولقد رأت أوربا بعينها النتائج المخيفة لمثلها الاقتصادية والأخلاقية والعلمية ، ولسوف تتمخض الإنسانية عن عالم جديد ، وهذا العالم لا يحسن تصميمه إلا من بنى للبشرية البيت الحرام ، وورث محمد وإبراهيم قيادة العالم .

ورأى إقبال هذا يكاد يكون تفسيرا للآية الكريمة : ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازيّنت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس ﴾[1] . فالمعنى على هذا هو فناء حضارة عجيبة من حضارات الحياة الدنيا كانت قد بلغت غاية نمائها وازدهارها ، بأمر الله وقدرته فى لحظة من ليل أو نهار .

وما يقوله إقبال وغيره يقوله كذلك مفكرو العالم وفلاسفته كل يوم فى كل مكان . ونحن نعلم أن ميزان القوة فى العالم متغير أبدا وعلى امتداد التاريخ ، ومن ذا الذى كان يتصور إمكان تصفية قوة ألمانيا العسكرية أو الإمبراطورية البريطانية العتيدة ؟

ويقول كذلك : إننا لا أعتقد أن نسبة ما يملكه العالم الإسلامى اليوم إلى حضارة الغرب الراهنة أقل من نسبة ما كان فى أيدى أسلافنا إلى ما كانت تملكه الحضارتان الفارسية والرومية بعد ظهور الإسلام[2] .

ولننظر إلى هذه الحضارة الغربية ، أليست هى حضارة القمار والربا والمكيافيلية الشريرة والأيديولوجيات العفنة ، والتفرقة العنصرية البغيضة ، والاستعمار المتخلف الوحشى ؟ أليست هى حضارة الإباحية والشهوات والجنس والمادية الملحدة ، والعلمانية الكافرة ، والصهيونية الخبيثة ؟

وأين هذا كله من القيم الروحية والإنسانية الرفيعة التى قامت ونادت بها حضارة الإسلام ، التى حررت الإنسان من العبودية والخضوع للفرد وللمجتمع[3] ؟ ، ولن تجد الإنسانية يوم تتهاوى حضارة الغرب عقيدة تؤمن بها ، وتؤمّن بها مصيرها إلا الإسلام. فالإسلام وحده والإيمان به سوف يكون ضرورة بشرية ، لأن ذلك هو مسيرة التاريخ وحتمية انتصار الحضارة ، وهو العلاج الوحيد لكل مشكلات الحياة ، وهو النتيجة الأخيرة لقدرة الإنسان على مواجهة التحديات التى يتحداه بها عصره وقدره .

---

(١) ٢٤ يونس .

(٢) راجع : الحضارة الإسلامية ، والإسلام والمدنية والغربية ، وهما للمودودى .

(٣) راجع : المثل الأعلى للحضارة العربية لمحمد البهى .

على أن حضارة الغرب إنما هى فى أصولها العلمية والفكرية صدى كبير لحضارة الإسلام وللفكر الإسلامى ، فلقد سرقت أوربا على غفلة منا كنوزنا ومواريثنا العلمية والفكرية والحضارية مثلما سُرقت كذلك إمبراطورية المسلمين الكبرى الممتدة فى كل مكان ، وأقامت على كل هذه الأسس حضارتها الماثلة اليوم(١) .

يقول غوستاف لوبون فى كتابه « حضارة العرب » :

« أوربا مدينة للعرب بحضارتهم ، فالعرب هم الذين فتحوا لها ما كانت تجهله من المعارف الفلسفية والعلمية والأدبية ، فكانوا ممدنين للغرب وأئمة له فى ستة قرون ، وعن طريقهم اهتدى الغرب إلى تراث الإغريق ، وكشف ماضيه فأخذ يبحث عنه ..

وتقول المستشرقة الألمانية : كل موجة لعلم أو معرفة قدمت لأوربا كان مصدرها البلدان الإسلامية(٢) .

ويجب أن تلحظ أن الغرب لا يطيق ذكر كلمة الإسلام أبدا ، فهى لا تجرى له على لسان حقدا وحسدا ، وكأن كلمة الإسلام ثقيلة على فمه ، يقولون حضارة العرب ، وثقافة العرب ، والتراث العلمى للعرب ، ولا يقولون الإسلام ولا المسلمين بحال من الأحوال . ونحن لا نؤاخذهم بل نكشف طويتهم ، أما المؤاخذة فهى لكتابنا العرب الذين يتابعونهم فى كل شيء .

فهذا هو كتاب حضارة العرب لمحمد كرد على ، وكتاب الحضارة للكعاك ، وأثر العرب فى الحضارة الأوربية للعقاد ، والعلوم عند العرب لطوقان ، وسوى ذلك .

وما أكثر ما نسمع كلمتى « الحضارة العربية » ، يقول أحد كتابنا المعاصرين وهو محمود عزمى : « الثقافة العربية إسلامية فى أصلها ولم توجد إلا بالإسلام ، والمخلصون من مسيحيى الغرب يعلمون حق العلم أن ثقافتهم فى أصولها إسلامية « وكذلك الحضارة العربية » .. إن الإسلام هو الذى منح حضارته طابعها الأصيل من الجمع بين العلم والدين لأول مرة فى التاريخ .

ونذكر هنا تقريرا سريا رفعه إلى جونسون منذ ستة أعوام مستشاره الأول روستو ، وجاء فيه :

---

(١) راجع : شمس العرب تسطع على الغرب ، ونحن والحضارة الغربية للمودودى ، والحضارة الغربية لمحمد محمد حسين .

(٢) ٥٤١ شمس العرب تسطع على الغرب .

« لقد كان الحوار بين المسيحية والإسلام محتدما على الدوام منذ القرون الوسطى، ومنذ قرن ونصف خضع الإسلام لسيطرة الغرب ، أى خضعت الحضارة الإسلامية للحضارة الغربية والتراث الإسلامى للتراث المسيحى ، وتركت هذه السيطرة آثارها البعيدة فى المجتمعات الإسلامية حتى بعد انتهاء أشكالها السياسية ، بحيث جعلت المواطن العربى يواجه معضلات ومشكلات هائلة وخطيرة فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والعلم لا يدرى كيف يتفاعل معها فى علاقاتها الداخلية والخارجية على السواء ، فقد تحرر من سيطرة الغرب السياسية لكنه لم يستطع التحرر من سيطرته الحضارية . وغلبة الحضارة الغربية فى الشرق — وهى هى العدو القديم للحضارة الإسلامية — قد أورثت العربى المسلم الشعور بالضعة والمهانة والصغار أمام طغيان تلك الحضارة . ولقد استطاعت تركيا وإيران تطوير علاقاتهما بالغرب على أساس مصالحهما القومية ، لكن السياسات العربية ما تزال تعيش على أحلام وأمجاد الإمبراطورية الإسلامية .. »

وخطورة التقرير واضحة ، وفى مضمونه تصوير لخوف الإنسان الأمريكى أو الغربى ولذعره من أن تقوم انبعاثة « جديدة » للإسلام والمسلمين .

وثانية هذه العقبات :

الغزو الفكرى[1] الصليبى للشرق الإسلامى العربى ، ونشوء طبقات جديدة من أبنائه أصبحت لا ترى الحياة إلا بمنظار الغرب وثقافاته وفلسفاته وفكره .. وترى أن فكر بلادها وتراثها بل دينها عبء يجب طرحه والتحرر منه . ومن هذا المنطلق الغريب ، وهو خضوعنا الكامل للثقافة الغربية وغزوها الفكرى لنا ، أصبحنا نجد من يقول : إنه لا يقرأ كتابا عربيا أو مقالا لكاتب عربى . وكان طه حسين يقول : « إننى أفكر بالفرنسية وأكتب بالعربية » . وأصبحنا نجد كذلك من يصف — مع أعداء الدين — الإسلام العظيم بأنه دين رجعى ، ومن يتحدث عن قطع يد السارق بأنه عمل « بربرى » ، ومن يقول من المبعوثين العرب إلى جامعات العالم : إنه لم يستطع الدفاع عن قضية الحدود الإسلامية وعدالة تشريعها أمام الشباب فى الغرب وفى أمريكا ممن يتصورون ذلك عملا منافيا للإنسانية ، كأن الإنسانية وحدها عندهم إنما هى فى مثل فلسفة التفرقة العنصرية وفلسفة الجنس ، وفلسفة التهديد الذرى للحضارة والحياة .

ما أكثر الكتاب العرب اليوم الذين يرددون كالببغاوات أن الثقافة الإسلامية تراث

---

(١) راجع : تجديد الفكر الإسلامى لإقبال ، والغزو الفكرى .

متخلف وفكر غريب يجب أن ترمى كتبه الصفراء فى النار ، ومن يقترح للتخلص من هذا التراث الكتابة بالحروف اللاتينية مثل صنع تركيا ، أو اتخاذ العامية لغة لنا .. وهدفهم وهدف من يوحون إليهم بذلك هو قطع صلتنا بماضينا وحاضرنا جملة ، والارتماء فى أحضان أعدائنا ليكملوا الإجهاز علينا ، وقطع صلتنا بالإسلام جملة .

ومن ينادى بأن العرب تلاميذ الإغريق وعلمهم امتداد للعلم الإغريقى ، وأن الثقافة الإسلامية لا يمكن تصورها بغير الثقافة اليونانية الرومانية .

إن الذين يزعمون بالباطل من المستعمرين والمستغربين أن الإسلام خصم للعلم والعقل وأنه دين الغيبيات وأن سبب ضعف المسلمين اليوم ، هم طوائف كثيرة من أعداء الإسلام من صليبيين وماركسيين وصهيونيين ومن أذنابهم من أبنائنا وشبابنا الذين ألقينا بهم فى أحضان خصومنا باسم العلم والثقافة ، وفاتنا أن العلم فى الغرب موجه ، وأنه فى كل مجالاته يقف نفسه أولا لحرب الإسلام وشعوبه .

ونود أن نسأل مع العقاد : هل يؤمن عقل الإنسان بالدين فى هذا العصر ، ويرى دينا أحق بالإيمان به من الإسلام ؟

طوائف وطبقات كثيرة من كتابنا تنطق اليوم بيننا بلسان الثقافة الغربية ، وتعبر عنها تعبيرا كاملا ، وهى لذلك تعادى الإسلام والفكر الإسلامى والثقافة الإسلامية التى تقف فى مواجهة طغيان الغزو الفكرى المسيحى لعقولنا . وصارت هذه الطبقات تؤمن مع الأوربيين بأن بدء النهضة الحديثة فى العالم العربى بالحملة الفرنسية إلى مصر والشرق العربى ، كأن العرب لم يعرفوا التقدم إلا فى ظلال الغرب وبعد اتصالهم بثقافته وحضارته .

ويضاعف من خطر هذا الغزو الفكرى عمل الجامعات والكليات والمدارس الأجنبية فى بلادنا ، وتأثر المبعوثين من شبابنا إلى الغرب بالفكر الأوربى المسيحى المعادى للإسلام وللعرب ، وذلك طيلة قرن ونصف من الزمان ، ثم جهل شبابنا بالثقافة الإسلامية ومصادرها وتراثها جهلا تاما ، إلا ما يعرفونه عنها من مطالعاتهم لكتب المستشرقين .

ونجد مثل هذه الآراء الغربية مبثوثة فى كتابات كتابنا المعاصرين وفى مؤلفاتهم .. ودع عنك كتابات الشعوبيين المنتسبين إلى العرب بالباطل ، ومن بينهم أمين الريحانى وجبران ، وكذلك سلامة موسى وساطع الحصرى ولويس عوض والقصيمى وسواهم ممن تذيع بيئات المبشرين آراءهم فى كل مكان وبكل قدراتها .

ولقد صارت مذاهبنا الأوربية والنقدية والفنية والفكرية والعلمية صدى للعقل الغربى

وحده ، وصقلت جامعاتنا هذه المناهج الأوربية الفكر بالأسلوب العربى واحتفظت بها ، وتبعتها فى الاحتفاء جامعاتنا الإسلامية كذلك ، وخضعت مناهجنا التربوية والتعليمية لهذا الطابع الأوربى خضوعا تاما ، وأصبحت محتاجة إلى الترقيع يوما بعد يوم حتى قرأنا مؤخرا على لسان عربى كبير أنها صارت مستعصية على الترقيع ، ومن عجب أن صحفنا ومجلاتنا العربية اليوم لا تختص برأى أو فكر أو كاتب إلا إذا كان تعبيرا كاملا عن الثقافة الغربية .

والمنصفون من المستشرقين يعدون ذلك منا طرحا لشخصيتنا الفكرية ذات الطابع العربى . وحينما زار المستشرق شارل بيلا الفرنسى هذه البلاد سأله صحفى عربى :

ـــ ماذا تقرأ ؟ الأدب العربى القديم أم الحديث ؟

ـــ فأجابه : القديم وحده .

ـــ فقال له الصحفى : ولماذا لا تقرأ الأدب العربى الحديث ؟

ـــ فأجابه : لأنه أدب غربى مكتوب بحروف عربية ..

وصدق حقا فى ذكر الحقيقة ، وما أقل من يذكر الحقيقة وحدها من المستشرقين . فإن كثيرا من أدبنا المعاصر ما هو إلا ترجمة حرفية لآداب غربية منشورة فى كتب أو مجلات مختلفة ، ومنذ سنوات ثارت قضية أدبية هنا ، فقد اتهم كاتب كتب مقالا فى النقد بأن مقاله ترجمة حرفية لفكرة من كتاب غربى .

وألفت النظر هنا إلى أن أكثر كتابنا الكبار ممن تأثروا بالثقافة الغربية بدأوا حياتهم خصوما للإسلام والثقافة الإسلامية ، ولما قرأوا ما قرأوا عنهما فى كتب المستشرقين عجبوا وعادوا إلى المصادر الإسلامية يقرأونها ويتأثرونها ، وكتبوا بعد ذلك عن الإسلام والسيرة كتبا خوالد ، ومن هؤلاء : هيكل والعقاد وطه حسين ومنصور فهمى وسواهم .

وفى هذا المقام أذكر أن المؤتمرات الإسلامية التى تعقد فى بلادنا كثيرة اليوم ، كروسيا ، وكندا ، والولايات المتحدة ، وكينيا ، واليابان ، وسواها ، ليس لها من هدف إلا تزييف المفاهيم الإسلامية ، وتضليل الفكر الإسلامى المعاصر ، وتفسير الإسلام تفسيرا خاطئا يجنح به إلى الخضوع التام للفكر الغربى وللمذاهب الغربية .

وهذه صحيفة عربية يومية تخصص صفحة كاملة لمؤتمر سمته مؤتمر الدين الإسلامى المعقود فى اليابان ، وقد بحث هذا المؤتمر ـــ كما تقول الصحيفة ـــ فى تعاون الأديان لخدمة السلام ، ومثل المسلمين فيه لبنانى لعله أحد أساتذة الجامعة الأمريكية فى بيروت

وهو الدكتور حسن صعب ، حسن حسن ، ولكن اسمعوا ما يقوله ممثلنا صعب أو الدكتور حسن ..

لقد ركزت الجهد على **التوعية** ، **وربطتها بحقائق الوضع الحضارى الإنسانى ، وتفادى التعويل على تفوق الشرق الروحى كبديل للتفوق المادى ، والسعى لتطوير القيم الروحية .**

وهذا كلام واضح فى مغزاه كل الوضوح فهناك توعية، وهى مربوطة بحقائق الوضع الحضارى الإنسانى، وهناك تطوير للقيم الروحية، أى قيم الإسلام الذى يمثله الدكتور صعب وهناك كذلك إنكار لنظرية تفوق الشرق الروحى ؟ أى ليس الشرق اليوم أستاذا فى مسائل الدين وفهمه ، بل إن الغرب صار هو معلمنا فى هذا الجانب من جوانب حياتنا أيضا ، فله أن يفسر وأن يوجه الأديان وعلينا الامتثال والطاعة والخضوع ، إذ أن الهدف من ذلك سام ونبيل وهو خدمة السلام .. ويقول بيان الدكتور صعب أيضا ، وهو البيان الذى نشرته صحفنا العربية بحسن نية : « لقد أوجد المؤتمر فرصة انفتاح جديد بين أديان الشرق الأوسط وأديان الشرق الأقصى الحلولية . ومعنى ذلك أن الإسلام يجب أن يصافح البوذية مثلا ويقر بها دينا من الأديان وإن كانت دين وثنية ، أى أن يقترب الإسلام فى مفهومه التوحيدى من البوذية فى مفهومها الوثنى الحلولى باسم التعاون بين الأديان . وبمثل هذا الروح أيضا دارت مناقشات مؤتمر النهضة العربية الذى دعت إليه جامعة لوفان البلجيكية حول مستلزمات التكيف مع العصر الحديث ، ودارت كذلك مناقشات المؤتمر الإسلامى المعقود فى روسيا ، والمؤتمر الذى عقد فى كينيا وكندا وغيرها .

ومن العجب أن هذه المؤتمرات يدعى إليها أناس معروفون يستخدمون بين الحين والحين لمثل هذا التوجيه الروحى الجديد ، ولكن الله من ورائهم محيط . إن علينا التبشير بالمحتوى الفكرى والتشريعى للرسالة الإسلامية — على صعيد الفرد والجماعة ، واستعادة وجودنا الحضارى مرة أخرى .

أما ثالثة العقبات التى يظن أنها تقف فى سبيل بعث إسلامى جديد فهى الاستعمار القديم والجديد ، وما صنعه بنفسه وبوساطة أذنابه بيننا من تدمير لكل جوانب الحياة الإسلامية النقية فى مختلف بلاد الإسلام .

فلقد أخضعنا لماديته ولإلحاده ولفلسفاته فى السلوك والأخلاق والعادات والطعام والشراب واللباس ، وذاعت فينا أفكار الجنس ، وخرجت المرأة المسلمة من البيت وقيل لها

إن لك حقوقا سياسية ، وكثر الاختلاط والرقص والأزياء الفاضحة والاصطياف على الشواطئ الخليعة والتحلل من أعباء الأسرة والتردد على النوادى الليلية والانطلاق مع الشهوات العارمة ، وفتحت بيوت للبغاء وحانات للخمور وشاعت المخدرات بكل أنواعها ، ولسان الحال مع أبى نواس وبيته المشهور :

وكنت فتى من جند إبليس فارتمى بى الحال حتى صار إبليس من جندي

وذاع وباء الجنس والعرى فى السينما والمسرح العالميين وفى الإعلانات الصحفية .

وقد انتقل إلينا الاقتصاد الغربى الربوى وطبق وحده فى بلادنا بدلا من المذاهب الإسلامية فى الاقتصاد ، وأصبح متغلغلا فى جميع نواحى حياتنا ، وتردد الناس فى موقف الدين من ذلك كله ، وأخذ بعض علمائنا يفتون بحل الاقتصاد الربوى بحجة الضرورة والمصالح المرسلة . وهذا خطأ وأى خطأ فالإسلام كل لا يتجزأ ، ولا بد أن يتمسك المسلم بنصوص دينه كلها كاملة غير منقوصة . وهذا عالم فرنسى « جاك أوستروى » يقول فى كتابه « الإسلام أمام التطور الاقتصادى » المنشور فى باريس عام ١٩٦١ ، وذلك فى الصفحة الثانية عشرة بعد المائة : « إن الإسلام يتمتع بإمكانيات هائلة ، وإذا ما وجد الطريق الصحيح فإن كثيرا من الصعوبات الاقتصادية سوف يحلها هو وحده ، فهو أقدر على ذلك من غيره من مذاهب الاقتصاد الروسية والغربية » .

وإننا نقف فى جهل تام بعظمة الأفكار الاقتصادية فى الإسلام ، ويا ليتنا ندرس ونبدأ مرة جديدة فى تطبيقها ، ليتنا نجد ولا نهزل فالحياة للجادين المثابرين .

مفاسد الغرب فى بلادنا اليوم أكبر من أن تحصى أو تعالج على أساس من التلفيق والترقيع .. لا بد من الرجوع إلى الإسلام جملة وتفصيلا لنبدأ صفحة جديدة فى حياتنا فى سبيل بعث إسلامى أكبر .. ينقذنا من الغرب ومن أفكار الغرب ومن أساليبه ومناهجه التى دخلت فى كل شىء ، وطبقناها فى كل جانب من حياتنا ، وصار لها أثرها فى إضعاف قدرة الجيل الجديد المسلم على العمل وتحمل المسئولية.ولقد تغيرت الموازين التى يوزن بها الإنسان العربى ، وبعد أن كان التزامنا بالدين هو المقياس الأول ، أصبح هذا المقياس الآن هو الالتزام بالحياة والحضارة الغربية . وقد كان اللورد كرومر الحاكم الإنجليزى فى مصر فى أوائل القرن العشرين يردد ذلك ويقول : « إن المسلم غير المتخلق بالأخلاق الأوربية

لا يصلح لحكم بلاده » . ومعنى ذلك أنه لا بد أن يفكر بأفكار الإنجليز وينتقل إلى أسلوبهم فى كل شىء ، وأن يصبح مسلما بالاسم وغربيا أوربيا بالفكر والسلوك والعمل ، يمنحه هؤلاء الغربيون الاستقلال والحرية . ولذلك عمد كرومر آنذاك إلى إبعاد علماء الأزهر عن جميع وظائف الدولة ، وقصر مجالهم على التدريس فى الأزهر ، والإمامة فى المساجد .

ولقد فرض الاستعمار الغربى حكما مسيحيا محضا على شعوب إسلامية كثيرة ، فالمسلمون فى قبرص وغانا ونيجيريا والسنغال وأوغندا وتشاد هم الغالبية الكبرى للسكان ، ولا بد لهم مع ذلك من أن يحكموا بحاكم مسيحى ووزراء مسيحيين . وسياسة اضطهاد المسلمين فى كل مكان يقف من ورائها الاستعمار سواء فى زنجبار أم الهند أم الفيلبيين أم الحبشة ، بل سياسة إبادتهم فى روسيا والصين وتوابعهما هى من صنع يديه وفكره وتدبيره . ولم تأمن تركيا مكر الاستعمار الغربى إلا بعد أن سارت على السياسة التى فرضها عليها ، وهى قطع صلتها بالإسلام والمسلمين جملة من حيث قوانين الدولة والتزاماتها ..

وكانت الخلافة العثمانية آخر معقل إسلامى يستند على القاعدة الفكرية للإسلام كأساس للتقنين ومصدر للتشريع وأيديولوجية إسلامية كاملة مستقلة الطابع . كما كانت مظهرا للوجود الدولى للإسلام كرسالة وللمسلمين كأمة . وأصبح تاريخ المسلمين منذ سقوط الخلافة معروفا بالتبعية والضياع والتخلف ، فقد أقصى الإسلام القاعدة للتربية وللتقنين عن مناهج التعليم ، وعن دنيا الإنسان المسلم فى مختلف المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وكان آخر خطوة فى ذلك إلغاء نظام الأسرة الإسلامى واستبداله بقانون للأحوال الشخصية فى كثير من بلدان العالم الإسلامى . وهكذا حجر المسلمون على دينهم ورسالة ربهم حتى لا يكون للإسلام شىء من التطبيق فى مختلف مجالات حياتهم .

ورابعة هذه العقبات :

هى نشاط مراكز التخريب فى بلادنا وفى مقدمتها الصهيونية ، والماركسية ، وحركة الاستشراق والتبشير، وقيام مذاهب جديدة بيننا باسم الإسلام :

١ ـــ فالصهيونية أمرها وخطرها وعداؤها للعرب وللإسلام ، الأمس واليوم وغدا ، مما لا يحتاج إلى مزيد من البيان ، وأمامنا مأساة فلسطين العربية الشهيدة أو الجريحة .

وغايتها ــ الصهيونية ــ إقامة إمبراطورية يهودية تكون قلب العالم ولو على حساب العرب والإسلام وبلاد المسلمين ، ويكون مركزها القدس ، وتتحكم فى أقدار العالم الاقتصادية والسياسية بعد أن تسيطر على الشرق الأوسط وعلى موارده الاقتصادية الهائلة ، وكان هذا حلمهم من قديم وعملوا له بجد منذ مؤتمر بال اليهودى عام ١٨٩٦ م ، وهذا مناحيم بيجن اليهودى المتطرف يقول : مهمتنا هى محق الحضارة الإسلامية وإحلال الحضارة العبرية مكانها .

٢ ــ والماركسية ومحاولتها التسلل إلى عقول المسلمين من أشد الأخطار التى تجابه الإسلام اليوم ، وبخاصة أن الغرب المسيحى يفسح لها المجال فى بلاد الإسلام لتعيث فيها اليوم فسادا ، بعد أن واجهه صمود الإسلام حيال طغيان الاستعمار والصهيونية وحركات الاستشراق والتبشير .

وعمل الماركسية فى إعلان الحرب على الإسلام وفى تدمير حصونه فى بلادها وخارج بلادها ، وفى تحطيم معنويات المسلمين ، معروف مشهور .

عداؤها للدين جملة ينطق به أقوال زعمائها وقادتها ، فالدين عند لينين أفيون الشعوب وهو خطر على الحضارة . وشعار ماركس أن فكرة الإلٰه من بقايا القرون الوسطى المظلمة . ويردد ستالين أن فكرة الله خرافة . وتكرر برافدا فى عددها الصادر فى ٢٦ أبريل من عام ١٩٤٩ قولها : نحن نؤمن بثلاثة : ماركس ولينين وستالين ، ونكفر بثلاثة : الله والدين والملكية الخاصة . هذا كله مع أن أعظم رجال البحث العلمى فى أوربا كانت نفوسهم مشربة بالشعور الدينى العميق .

أما عداء الشيوعية للإسلام خاصة فهو مشهور ، فالإسلام عند كليموفتش فى كتابه « الإسلام » المطبوع فى موسكو عام ١٩٥٦ هو فى جوهره مازال ولا يزال عدوا للعلم ، والفتح الإسلامى فى رأى كتابها ليس أكثر من غزوات بدوية لاقتناء كنوز المتمدنين من الشعوب ، والقرآن صورة لهذا التراث البدوى فى الفكر والحياة . وقد ركزت وسائل الإعلام هجومها على الإسلام لأنه أكثر الأديان صمودا فى وجه الطغيان ، وافترت الماركسية الأكاذيب تلصقها به ، واضطهدت أتباعه اضطهادا شديدا ، وفى البيان الذى أصدره أحد مؤتمراتهم عام ١٩٢٣ قالوا : إن بداخل روسيا ثلاثين مليونا من المسلمين يحافظون على عقائد باطلة ، وخرافات من العصور الوسطى لها صلة بالدين ، وعلينا القيام بالخطط والتدابير الواجب عملها لإزالة هذه العقائد الباطلة .

إن الماركسية هذا المصطلح الغربى الذى ينتسب إلى ماركس ، نجد لها اشتقاقا لغويا

عربيا يفسر معناها أوضح تفسير ، وكأنها من قولنا « أركسوا فى الضلالة » أى سقطوا فيها وترددوا فى هوتها السحيقة التى لا نجاة منها أبدا ، والله عز وجل يقول : ﴿ فما لكم من المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ﴾[1] .

هذا هو منهج الماركسية التى تقوم اليوم بغزو جديد مذهبى للعالم الإسلامى ، ومآل هذا الغزو كغيره الفشل والهزيمة لأنها لا سبيل لها فى مجتمع الإسلام الحريص على القيم والدين والحضارة حرصه على أعز ما تملكه الإنسانية من مقتنيات ، فكل المشاعر الإنسانية السامية لا يمكن أن توجد فى ظلال الإلحاد ، وكل القيم والفضائل ورفاهية الإنسان وسلامه لا يمكن الحصول عليها إلا من طريق الدين . إنه ليس فى العالم كله دولة تخشى التحركات الإسلامية بمثل ما تخشاها روسيا ، لأنها بدون المناطق الإسلامية فيها لا تستطيع اقتصاديا أن تظل دولة كبرى[2] .

ولكن الإسلام أقوى مما تظن روسيا ، وانبعاثه قريب قريب بإذن الله .

٣ — وأما الاستشراق فحركة أوربية جديدة قامت للعمل ضد الإسلام ، وجميع المستشرقين يعملون فى دوائر المخابرات الخارجية فى كل بلاد الغرب هم وتلاميذهم ، وحركتهم تهدف إلى نقل كنوزنا العلمية والثقافية والحضارية إلى الغرب أولا ، وإلى إعطاء تفسيرات جديدة للإسلام وحركته التاريخية وفق أهواء الصهيونية والصليبية .

ثانيا : وإلى مراقبة العالم الغربى مراقبة شديدة ، وملاحظة تطور الفكر الإسلامى وكتابة التقارير عنه بأولا بأول لدوائر الاستعمار والمخابرات .

ثالثا : وإلى تربية جيل من المثقفين العرب وفق أذواقهم ومناهجهم وأفكارهم أخيرا .

ومن ثم فالافتراء على الإسلام وتاريخه وحضارته وأئمته وعلومه وثقافته ليس بالشىء الجديد على الحركة الاستشراقية .

ومناهج المستشرقين فى البحث صارت هى أساس مناهج جامعاتنا ومشاهير كتابنا والمثقفين فينا ، وكأنها ضربة لازب لا بد أن تقع على رءوسنا .

---

(١) ٨٨ النساء .

(٢) ٣ الحياة البيروتية عدد ١٥/١١/١٩٧٠

وقد قام كثير من علمائنا بترجمة كتب المستشرقين بما فيها من أباطيل تتسم بشعار العلم ، ومن افتراءات على الإسلام والمسلمين .

وقد صارت أقسام الدراسات الإسلامية والعربية التى يشرف عليها المستشرقون فى جامعات أوربا وكندا وأمريكا ذات طابع هجومى على الإسلام ومراكز التجسس عليه ، وأساتذتها أكثرهم من الصهيونيين وللأسف أن يندب إليها بعض الباحثين من المسلمين فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى ، وفى مقدمة الموضوعات التى يُطلب إليهم المحاضرة والكتابة حولها الحركات الإسلامية المعاصرة فى مختلف بلدان الإسلام ، وذلك بقصد الكشف عنها ليسهل على الغرب فهمها ومتابعتها وخنقها فى مهدها .

وعن طريق مراكز المستشرقين اقتبس الغرب كل عظيم ومفيد من الحضارة والثقافة الإسلامية . وهذا هو السير وليم جونز من مشاهير القرن الثامن عشر ، والمؤسس لعلم الاستشراق ، والذى ترجم المعلقات إلى اللغة الإنكليزية ، كان يقول كما ذكر فى مقدمة كتابه « قصائد من اللغات الآسيوية » : « يخيل إلى أن الشعر الأوربى قد عاش طويلا على تكرار نفس الصور والتشبيهات ، والإشارة إلى نفس القصص والأساطير ، وقد حاولت أن ألفت النظر إلى هذه الحقيقة المهمة ، فلو أننا عنينا بطبع عيون الآداب الشرقية ، مما تحفل مكتباتنا منه بمخطوطات كثيرة ، ودرست لغات المشرق فى معاهد العلم عندنا ، لنتج عن كل هذا تجديد شامل فى صور الشعر وتشبيهاته ، ولفتحنا الباب لمعرفة آداب عظيمة يجد فيها شعراؤنا أمثلة للمحاكاة » .

وهذا هو ما حدث فى الغرب . كان الأدب العربى مصدر نهضة أدبية عامة شاملة فى جميع بلدان أوربا ، وحين ترجم جونز المعلّقات أثارت الاهتمام والعجب بين كثير من مشاهير أدباء القرن الثامن عشر وشعرائه ، وأخذ الشاعر الإنكليزى تنيسون يقلد امرا القيس فى بكاء الأطلال فبكاها بأسلوب شاعرنا الجاهلى القديم ، ولا ينسى أن يوجه الخطاب إلى صديق له وهما يمران بأطلال قصر محبوبته ، وكان جونز يحب العربية ويقول عنها إنها لغة جميلة الجرس بديعة النغم .

ولا يغيب عنا أن اللغة العربية — كما يقول سارتون فى كتابه « مقدمة تاريخ العلوم » (١٦) : كانت من منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى لغة التطور العلمى للجنس البشرى عامة ، وكان ينبغى لكل من أراد أن يلم بثقافة عصره على أرقى صورها أن يتعلم اللغة العربية .

ولما ترجمت « ألف ليلة وليلة » إلى اللغات الأوربية نهضت بالآداب القصصية والمسرحية وأدب الملاحم نهضة شاملة ، وصار الكتاب فى أوربا حريصون على قراءتها واستيعابها ، ودع عنك تأثير القرآن الكريم وتأثير العلوم الإسلامية فى كل جوانب الفكر فى بلاد الغرب .

٤ — وننتقل إلى التبشير ، وهو من الأسلحة الهجومية الموجهة إلى الإسلام أيضا ، ويقف من وراء حركته العالم المسيحى بتوجيه ومساندة من الهيئات الدينية العليا فى أوربا .

وهذه الحركة ند لحركة الاستشراق فى الأهداف ، وفى خدمة الاستعمار القديم والجديد ، وفى التجسس على الإسلام والحركات الإسلامية المعاصرة .. إنها حملة صليبية جديدة على العالم الإسلامى ، ومحالفة أكيدة مع الاستعمار لخنق الفكر الإسلامى وصرف المؤمنين به عنه بكل وسيلة .

والإسلام هو أقوى ما صادف المبشرين من عقبات ، وقد فشلوا فى مواجهته وفى تحديه ، وهو الخطر كل الخطر عليهم . يقول المبشر لورانس براون : الخطر الحقيقى يكمن فى نظام الإسلام وفى قدرته على التوسع وفى حيويته . إنه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوربى .

والهدف من التبشير كما يقول زويمر المبشر المعروف (١٩٥٢) : ليس هو إدخال المسلمين فى المسيحية ، لأن ذلك فى رأيه الكاذب هداية « وتكريم » ، لهم ، إنما هو عنده فى إخراج المسلم عن الإسلام ليسهل تحطيمه وافتراسه حينما يصبح مخلوقا لا صلة له بالله .

ومن مخططات التبشير غزو الإسلام فى عقر داره ، وتشويه تاريخه وأبطاله وقادته ، والطعن فى العقيدة الإسلامية .

ويقول المبشر جون تاكلى : يجب أن نستخدم القرآن — وهو أقصى سلاح فى الإسلام — ضد الإسلام نفسه ، بأن نعلم المسلمين أن الصحيح فى القرآن غير جديد ، وأن الجديد فيه غير صحيح .

ووهكذا أصبح المبشرون نقادا بالزور والبهتان للقرآن وشارحون له ، ووضعت الإمكانيات الهائلة تحت أيديهم ، ولهم أكثر من خمسمائة جامعة وكلية ومعهد فى العالم فضلا عن المستشفيات والمستوصفات الطبية ، وعندما وضع النظام الأساسى للجامعة الأمريكية فى بيروت منذ أكثر من مائة عام أصر واضعوه على تأكيد الطابع التبشيرى لها ، وعلى أن يكون كل أستاذ فيها مبشرا مسيحيا(١) .

---

(١) ١٩ واجب المسلمين فى نشر الإسلام — زيد بن فياض .

وأعمال المبشرون ومحاولاتهم من أجل هدم الإسلام وتدمير العالم الإسلامى وزعزعة الشعور الدينى فى نفوس الإسلام ، مما لا يخفى على أحد ..

وبعد فإننا نسائل أنفسنا أخيرا : هل يمكن أن تقف هذه العقبات وغيرهامما يبتكره الغرب كل حين من أساليب جديدة فى حربه المستمرة للإسلام، وما دأب على صنعه من إقامة حركات تتسم بطابع الإسلام وهى فى جوهرها من صنع الصليبية والصهيونية والاستعمار . أقول هل يمكن أن يقف كل ذلك فى طريق الإسلام أو أن يحول دون قيام بعث إسلامى جديد .

والجواب على ذلك : لا بكل تأكيد .

نعم ، لا لن تستطيع شياطين الأرض كلها مجتمعة أن تصدنا عن الإسلام ولا أن تصد الإسلام عن بلوغ أهدافه فى يوم من الأيام ، ولا يمكنها أن تقف أبدا فى وجه تياره القوى الكاسح الذى تدفق ولا يزال يتدفق على مرور الأجيال والأعوام ..

لا ، لن ينطفئ نور الإسلام أبدا ، وذلك وعد الله الصادق لعباده المؤمنين :

﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمّ نوره ولو كره الكافرون ٭ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾(١) .

ويقول الله تعالى فى كتابه الحكيم على سبيل الجزم والتأكيد والتعميم : ﴿ كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون فى الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين ﴾ .

سيبقى الإسلام دينا خالدا ، ونورا هاديا ، وكوكبا وضّاءا ، وقمة سامقة ، معجزة السماء إلى الأرض ، صانعا للتاريخ والزمن والحضارة والحياة ، عاملا فعالا فى مستقبل العرب والمسلمين والإنسانية قاطبة .

يقول مؤلف كتاب « الشرق الأوسط المعاصر » : « أول ركائز الاجتماع والثقافة فى الشرق الأوسط هو الدين » .

ويقول بعض الباحثين العرب المعاصرين : « الدين جزء من تكوين الأمة العربية ، بحكم أنها تكونت فى ظلال الحضارة الإسلامية ، والإسلام لها أكثر من مجرد دين إذ هو جزء من نسيج قوميتها » ..

---

(١) ٨ و ٩ الصف وفى معناها آيتا التوبة ٣٢ و ٣٣ .

ويقول ولز « الدين الحق الذى يساير المدنية هو الإسلام ، وحسبك القرآن وما فيه من نظريات علمية وقوانين وأنظمة لربط المجتمع » .

ويقول غوستاف لوبون : « سبب انحطاط الشرق هو تركه روح الدين » ،

ويقول الأفغانى : « الدين هو قوام الأمم ، وفيه سعادتها وفلاحها » .

وصدق الخليفة عمر بن الخطاب حين قال لأصحابه : « لقد أعزكم الله بالإسلام فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله » .

وقال الهرمزان الفارسى لعمر وقواده: « إنما غلبتمونا بالإسلام » .

وهذا هو ما كان يؤكده رسولنا العظيم صلوات الله عليه لزعماء قريش فى مكة بعد نزول الرسالة حيث قال لهم :

(ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل علّى كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربى ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر حتى يحكم الله بينى وبينكم)[1] .

وفى الحديث الشريف عن العباس بن عبد المطلب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

(ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد رسولا) .

وأقول : لا بد أن ينتهى الطريق بنا ــ نحن المسلمين ــ إلى يقظة إسلامية جديدة بإذن الله ، ولكى تنطلق هذه اليقظة من مكمنها لا بد لنا من عمل جديد يمكن أن ألخصه فيما يلى :

أولا : قيام ثقافة إسلامية قوية ، وحركة تربوية دينية مثمرة تسير علمها مناهج جامعاتنا ومدارسنا ، فإن للتربية والثقافة دورهما الجليل فى التوجيه ، وجميع المذاهب القديمة والحديثة والمعاصرة اليمينية منها واليسارية ترتكز على دعامة قوية من التربية والتثقيف وحدهما .

ثانيا : قيام المذاهب والحركات والمجامع والهيئات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية فى بلادنا على أسس إسلامية خالصة .

ثالثا : صياغة علومنا الإسلامية واللغوية صياغة جديدة تقربها إلى أذهان العصر والشباب .

رابعا : قيام حركات الشباب فى العالم العربى على أسس إسلامية .

---

(١) ١ : ٣١٦ سيرة ابن هشام ــ تحقيق محيى الدين عبد الحميد .

خامسا : صبغ وسائل الإعلام كافة فى أنحاء الوطن الإسلامى بصبغة إسلامية .

سادسا : نشر نفائس تراثنا الإسلامى المخطوط محققة تحقيقا علميا ودقيقا ، بالتعاون مع الجامعات والمجامع العربية .

سابعا : صبغ حياتنا فى شتى نواحيها بالصبغة الإسلامية ، وتطبيق التشريع الإسلامى تطبيقا كاملا فى جميع بلاد الإسلام .

ثامنا : إنشاء صندوق للدعاية للإسلام بأسلوب العصر وعلى ضوء أفكاره ومتطلعاته .

تاسعا : إنشاء مجمع إسلامى عالمى يمثل الفكر الإسلامى ويخطط له .

عاشرا : إنشاء هيئة أمم إسلامية تتولى التخطيط الكامل لحاضر ومستقبل المسلمين ، وتعد منظمة الدول الإسلامية القائمة اليوم نواة لها .

إن فى ذلك وغيره من مقومات العمل الإسلامى ما يسير بنا إلى الغد المنتظر ، إلى الفجر الجديد ، إلى المستقبل المنشود ، وصدق الله ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ .

وهنا نقول ، بل نردد : إن الإسلام وحده هو عقيدة الغد ، والغد وحده هو لعقيدة الإسلام .

الإسلام نظام الكون ، والكون كله صائر إليه فى يوم من الأيام ، وليس هذا حلما من الأحلام بل إنه الحقيقة الثابتة المشرقة كإشراق الشمس فى ريعان النهار .

ولسوف يتألف من الغد والإسلام طاقة جديدة تعيد الحياة الحرة المبدعة إلى الإنسانية والإنسان ، وتبنى السعادة والرفاهية للمجتمع البشرى المفزع . وفلاح الإنسانية وصلاحها فى الغد إنما هما فى أن تؤمن بالإسلام وتكفر بكل ما اخترعت من نظريات باطلة ، فليكن شعارنا الجديد « إلى الإسلام إلى الإسلام » .

إن ذلك ضرورة ملحة للبشرية لتعيد بناء نفسها من جديد ، ولترتفع بالإسلام الذى ارتفع على المحن ، وسما على الزمن ، ورفع إلى مستواه الأعلى المؤمنين به فى كل دار ووطن ، وكان فيه دائما الحياة للروح والقوة للعقل والنفس والبدن .

ذلك ليس حنينا إلى الماضى ، ولا أملا فى انبعاث مجد قديم تليد . لا بل هو مسيرة التاريخ وحتميته وحركة تطوره ، وهو الانتخاب الطبيعى الذى تقوم به الحياة العاقلة .. الانتخاب والتخير لأسمى القيم والمثل التى نثق فى قدرتها على الوصول بنا إلى شاطئ الأمان

ومرفأ السلام.لا بل هو وعد الله الصادق بانتصار رسالته ، وغلبة وحيه ، وعزة كتابه ، وسيادة دينه فى الأرض .

إنه الاستجابة الفطرية لنداء العقيدة الصالحة لكل عصر ، الصانعة لكل فجر ، الهادية لكل خير ، والقائدة إلى كل نصر .

العقيدة التى تشرق كما يشرق الفجر ، وتتدفق كما يتدفق الماء على صفحة النهر ، وتمنحنا ــ بحقها وصدقها ــ الأمل والهدى والنور والحياة .

العقيدة التى سمت أبدا على كل الآلام ، وعلى أحداث التاريخ والأيام ، وعلى شتى المحن والخطوب الجسام .

لسوف يظل الإسلام كما كان على كل الدهور منارة الشعوب والحضارات طول الأجيال والعصور .

ولسوف يبنى للبشرية من جديد فى ظلال انبعاث أكبر ، صروحا من التقدم والإبداع والتجديد ، ومن الحق والعدل والحرية والسلام والمساواة ، ومن طمأنينة الإنسان وسعادته ورفاهيته فى الحياة .

وحقا ما يقول شاعر معاصر :

أرونا بنى الأوطان عزما مجسما	أرونا بنى الأوطان عزا مشيدا
أرونا نهوضا واتركوا اللهو واكتبوا	على صفحات العصر ذكرا مخلدا
وما هو إلا الجد إن حاك خيطه	تناول عن بعد سماكا وفرقدا

أقول لشاعرنا : ولا والله ، لقد كان الأولى أن تقول :

أرونا بنى الإسلام عزما مجسما	أرونا بنى الأوطان عزا مشيدا
وما هو إلا الدين إن حاك خيطه	تناول عن بعد سماكا وفرقدا

خلود الإسـلام

سقطت ألمانيا الهتلرية مهزومة مضرجة بدمائها أمام جيوش الحلفاء الظافرة فى الحرب العالمية الثانية ، وتجمع قواد الحلفاء فى موكب حربى لم يشهد التاريخ له مثيلا .. الجيوش المدججة بالسلاح ، والطائرات المحملة بالقنابل ، والدبابات تهز الأرض هزا ، وعلى جماجم القتلى وأشلاء الجرحى سار المنتصرون يملوا على قواد ألمانيا شروط الاستسلام ، وحول مائدة مستديرة وقف ممثلوا الجيش الألمانى يحيون فى ذلة وخشوع موكب النصر والقواد الذين صنعوه ، وسلم المهزومون كل شيء دون أن يكون لهم شيء ، ودون أن يسمعوا كلمة ولو كانت رثاء أو عزاء ، وانتهى الأمر ، الحرية كل الحرية للظافرين والعبودية كل العبودية للمهزومين .

لقد فعلوا ما يفعله ضمير القائد المسيحى المنتصر حيال قواد مسيحيين ، أورثتهم الهزيمة الذل .

فأين هذا من الإسلام وجلاله وعظمته وسماحته ، وخلفاؤه وقواده يسيرون فى مواكب المنتصرين ؟

أمامنا المثل من الإسلام .

عمر بن الخطاب ،

عمر الفاروق ،

عمر العظيم ،

عمر محطم ملك الساسانيّين ،

عمر الذى هزم هرقل إمبراطور الروم فى سهول الشام ، والذى بلغت جيوشه المظفرة أبواب بيت المقدس حيث فرضت الحصار على المدينة المنهوكة ، وفر القائد الرومانى منها ، وأعلن رئيس أساقفة بيت المقدس التسليم على أن يتولى عمر أمير المؤمنين نفسه مفاوضات الاستسلام .

وسار عمر إلى المدينة المحاصرة ، إلى بيت المقدس .

سار بلا مواكب ومهرجانات ، بلا جيش يحميه .

سار فى موكب نبيل .

عمر على جمل غليظ ، فى ملابس خشنة وتكاد تكون ممزقة .

ويقال له : لو لبست شيئا غير هذا وركبت برذونا ، لكان هذا أعظم فى عين الروم .

ويسير عمر .

وإذا هو أمام مستنقع ماء ويقف وينزل من على ظهر الجمل ويخلع خفيه ويمسكهما بيد ، وزمام البعير باليد الأخرى ويخوض الماء . ويبهر أبو عبيدة بما صنع عمر فيقول له : لقد صنعت اليوم صنيعا عظيما عند أهل الأرض ، فيضرب عمر بيده فى صدره ويقول له : أو لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة ؟ إنكم كنتم أذل الناس فأعزكم الله بالإسلام ، فمهما تطلبوا العزة بغير الله يذلكم الله .

ويدخل عمر بيت المقدس ويعطى لأهلها العهود والمواثيق ، ويؤمنهم على أموالهم ودمائهم وأعراضهم وحرياتهم الدينية كاملة غير منقوصة .

ويجد المسيحيون المهزومون من الخليفة المسلم عمر بن الخطاب ما لم يكونوا يجدونه من حكامهم المسيحيين فى إبان السلام ، من العدل والحرية والكرامة الإنسانية ، ومن الأمان والتسامح وحسن المعاملة والرفق .

وهذا هو الإسلام فى وجدان المسلمين .

وهذا هو الإيمان فى ضمير المؤمنين .

وهذه هى الإنسانية .

إنسانية الدين ، إنسانية أمير المؤمنين ، إنسانية المبادئ والمثل والفضائل والأخلاق والآداب .

الصغير يوقر الكبير .

القوى يحترم الضعيف .

الحاكم يحنو على المحكوم .

الغنى فى مساعدة الفقير .

الصحيح يعود المريض .

الرجل يرعى المرأة والطفل والخادم .. الحنان حتى على الهرة والكلب والجمل الهرم .

إنسانية يغذيها الإيمان بالله والدين ، وبالحب والإخاء ، وبالرحمة والشفقة ، الإيمان بوجود الله فى كل مكان ومع كل إنسان .

إنسانية تملأ قلب المسلم بالعطف على اليتامى والمساكين والأرامل والغريب والأجير والأسير .

وهذه الإنسانية هى أجل مقومات خلود الإسلام وبقائه واستمراره فى الأرض إلى يوم الدين ، يوم يبعث الخلق أجمعون.

إنسانية تتمثل فى كل عمل ، ويستشعرها المسلم وهو يسعى إلى كل أمل ..

يبدأ بالسلام كل من يلقاه ، الصغير يسلم على الكبير ، والراكب على الماشى ، والكثير على القليل ، والسليم على المريض .

يبدأ كل عمل ببسم الله ، اسم الله الحاضر الموجود ، والخالق القادر المعبود ، وكأن البدء ببسم الله إعلان بأن الإنسانية فى الإنسان المسلم تضع نفسها فى موضعها الصحيح ، وتعرف أنها مهما أوتيت من أسباب القوة عاجزة إلا بالله ، وحيدة تستمد العون من الله ، فقيرة تطلب كل غنى من لدن الله .

هذا الجانب الإنسانى فى الإسلام لا يحتاج إلى بيان ، نهى رسول الله صلوات الله عليه خالدا فى غزوة حنين عن قتل الأطفال والنساء والأجراء[1] ، وقال لأصحابه : (دخلت امرأة النار فى هرة فحبستها ، فلا هى أطعمتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش[2] الأرض) .

وقال لعائشة وقد قست على بعير ركبته : (من يحرم الرفق يحرم الخير كله) .

ونهى أبو بكر قواده عن تتبع المنهزمين ، والإجهاز على الجرحى والتمثيل بالقتلى .

ومن أجل ذلك دخلت الملايين فى الإسلام لتجد فى ظله السلام والرفاهية والعدل ، وكل مثل الحياة الكريمة .

فأين مثل الإسلام فى إنسانيته ؟ وكما يقول مهيار : أين فى الناس أب مثل أبى ؟

وأصبح الإسلام أمل الدنيا ، حلمها الأكبر ، ملاذها الأمين ، لأنه الدين الذى يؤمن بالإنسانية ويدعو إليها قانونا وتشريعا ، عملا وتطبيقا ، ضميرا وسلوكا ، قولا وعقيدة .

وسوف يظل الإسلام حلم الإنسانية ، سوف يبقى خالدا أبدا ، له كل فعالية فى الحياة ، فى كل مكان ، وكل زمان ، وكل بيئة ، وكل عصر .

---

(١) ٤ : ٩٠ سيرة ابن هشام .

(٢) بكسر الخاء وفتحها : حشرات الأرض .

قد يقول أعداء الرسالة : وأين إنسانية الدين فى تشريعه للرق ؟ وأين إنسانية محمد فى زواجه من زينب امرأة زيد بن حارثة ؟

ونقول لهم :

(أ) أما الرقيق فمظاهر الإسلام فى تحريره واضحة وضوح الشمس فى السماء ، فبينما أقرت الديانات والشرائع والنظم السياسية قبل الإسلام الرق وفتحت منافذه ووسعت أسبابه ، جاء الإسلام وشرع العتق وأمر به ولم يشرع الرق[1] أبدا بحال من الأحوال ، وضروب تشريعه للعتق كثيرة معروفة فى الفقه الإسلامى ، والباب الذى بقى فى الإسلام من أبوابه هو أسرى الحروب الإسلامية ، وقد أوصى الإسلام بمعاملة الرقيق معاملة طيبة ، وحسبك أن عليا خليفة المسلمين ينزع ثوبه الجديد من على جسده ويعطيه لخادمه الرقيق ويقول له : « أنت أحق به فى العيد منى » . ولقد تعلمت دول الغرب من الإسلام نظام تبادل الأسرى وتحرير الأرقاء . والقوانين الدولية اليوم لا تلزم أمة منتصرة بمعاملة الأسرى معاملة خاصة . ولقد ذهب أغلب أسرى الحرب العالمية الثانية ما بين قتيل ومفقود ومسخر فى أشق الأعمال فى سهول سيبيريا وغيرها ، ولم تدع أوربا من قبل إلى تحرير الأرقاء إلا استجابة لمصالحها الاقتصادية حينما وجدت صناعاتها مرتفعة الثمن لغلاء الأجور ، ووجدت صناعات الشرق رخيصة الأسعار لرخص الأيدى العاملة التى تديرها من الأرقاء .

(ب) أما زينب فإن قصتها تدل على الإنسانية الرفيعة فى الرسول ، وليس كما يصورها المبشرون أعداء الإسلام .

كان زيد بن حارثة (سيد وس) أسيرا عتيقا فى بيت رسول الله ﷺ ، رباه النبى وأسلم وأخلص الدين لله ، وآثر المقام فى بيت النبوة على الرجوع إلى أهله ، وتبناه الرسول وزوّجه من بنت عمته زينب بنت السيدة أميمة بنت عبد المطلب عمة النبى ، وأطاعت الزوجة أمر رسول الله وعاشت مع زوجها راضية وإن كانت تشعر فى أعماق نفسها بالمهانة ، لأن العرب كانوا يأنفون أن يزوجوا بناتهم لمواليهم ، وكان زيد يشعر بجراحها النفسية العميقة وتساؤلاتها لنفسها : أتكون بنت عمة رسول الله أقل منزلة من لداتها وصديقاتها من عامة الناس ؟ ويهم زيد بطلاقها ، والرسول يقول له : ﴿ أمسك عليك زوجك ﴾ انتظارا لتبدل الحال ، ولكن الأمر ظل كما كان فطلقها ، ورأى الرسول أن أحدا لن يتقدم إليها فعوضها خيرا بزواجه إياها لتعلم ويعلم الناس أنها كفؤ لصاحب الرسالة ، وأن زواجها من

---

(١) ١٤٥ ما يقال عن الإسلام — العقاد — كتاب الهلال — ١٨٩ نوفمبر ١٩٦٦ .

زيد لم يكن مهانة لها بحال من الأحوال ، بل كان من أجل التشريع ، وصار تشريعا سماويا أن يتزوج السيد من زوجة مولاه ومتبناه ، وبصنيع الرسول شعر زيد بالكرامة الإنسانية فى نفسه ، وشعر بالعزة تملأ جوانح قلبه الذى ملأه الدين نورا وهدى وخشوعا لله رب العالمين .

وسبب ثان من أسباب خلود الإسلام ، سبب ثان له كبير معناه ، وجليل مغزاه ، وهو أمر تفرد به الإسلام ديننا الخالد العظيم ، وهو عقيدة الإسلام نفسها .

عقيدة الإسلام التى رفعت منزلة الإنسان فى الحياة .. فتحت أمامه منافذ الفكر ، دعته إلى تدبر كل شىء وتفهمه ، ولم تحجر على عقله ولم تحبسه فى محابس التقليد أو الأوهام أو الأساطير .

عقيدة الإسلام التى كرمت العقل الإنسانى وجعلته مسئولا مطالبا بالإبداع والتجديد والابتكار ، وارتفع الإسلام بضمير الإنسان ، وبفكره ، حتى صار فى مستوى الإدراك العميق لفكرة الألوهية ولفكرة النبوة .

هذه العقيدة عقيدة الإسلام أعظم العقائد الدينية اتفاقا مع المنطق ، وأشدها صرامة فى التوحيد ، وأكثرها تقريرا لمبدأ الوحدانية والألوهية ، وما أعظم رسالة الإسلام وضوحا فى إدراك الاستشراف الإلٰهى وتسامى الذات الإلٰهية ! تكمن روح العقيدة الإسلامية فى الخضوع لإرادة الله ، وحجر الزاوية فيها هو العبودية لله ، وديننا من بين الأديان كلها أبسطها وأقدرها على السمو بالبشرية كما يقول بعض الذين دخلوا فى دين الإسلام من مفكرى الغرب[1] .

إن الإسلام ينفرد وحده بالدعوة إلى التوحيد المطلق من بين جميع أديان العالم السماوية وغير السماوية على الإطلاق .

فالعقيدة السماوية يرتفع بها الإسلام فيجعلها توحيدا خالصا ، كما ارتفع بعقيدة النبوة التى كان الناس من قبله يحسبونها ضربا من التنجيم والشعوذة ، فقرر القرآن أن النبى بشر يبلّغ عن الله إلى العباد رسالة إلٰهية ، كما ارتقى ديننا الكريم بالمسئولية الإنسانية التى جعلوها لونا من المحسوبية والأهواء والمحاباة والإيثار للقربى ، أو العصبية للدين واللون والجنس .

---

(١) محمد إسكندر راسل الأمريكى ـــ الندوة ١٣٨٩/١/١٣هـ .

وما من دين استطاع أن يغرس فى نفوس المؤمنين به الحب ، أو أن يوحى إلى معتنقيه شعورا بالعزة والكرامة مثل الإسلام ، الذى حمل الإنسان مسئولية الحياة نفسها وجعله خليفة لله فى الأرض .

الله فى ديننا أعظم وأجل من أن ندركه بعقولنا ، وهو جل جلاله رب العالمين ، وخالق السموات والأرضين ، ﴿ بيده الملك وهو على كل شىء قدير * الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ﴾ .

والرسول فى الإسلام هو المبشر النذير ، والداعى إلى الله بإذنه ، والمبلغ عنه جلّت حكمته ، ليس هو بالذى يكشف الطوالع والأسرار ، ولا بصاحب الخوارق والهينمات والطلاسم والأعاجيب ، التى تشل العقول وتهول المشاعر ، وليس النبى بالذى يخاطب الناس من حيث يخافون ويفزعون ، ولكنه الذى يخاطبهم من حيث يعقلون ويتفكرون .

والإنسان فى الإسلام حيوان مفكر لأنه مؤمن ، وهو يحمل المسئولية وعبء الأمانة .. الأمانة التى شرحها الله عز وجل فى قوله تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ﴾ ، فإباء السموات والأرض حمل الأمانة لأنها لم تخلق لحملها ولم تعط الأسباب التى تؤهلها لهذا الشرف الكبير ، وحمل الإنسان لها لأن معه العقل الذى منحه الله إياه ، ولأن معه الدين الذى أضاء الله له به كل مغالق الكون وأسرار الوجود .

وعظمة محمد النبى عظمة إنسانية ، عميقة الجذور فى الأرض رفيعة الذرى فى السماء ، تملك إعجاب كل مفكر ، وكل إنسان مهما كانت منزلته فى الحياة ، ولو كان فى عزة الصدّيق وجلال عمر وتقوى عثمان وبطولة على .. عظمة جاوزت حدّ المألوف المعروف من شئون الناس .

ولقد كان ﷺ خُلُقه القرآن كما روى عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها حين سألها سعيد بن هشام عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : « كان خلقه القرآن ، ألست تقرأ القرآن : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ » ، أخرجه مسلم من رواية زرارة بن أبى أوفى عن سعيد بن هشام وأخرجه الحاكم .

ولقد ربى النبى أصحابه على العزة والشمم والنبل ، وعلى العفة والطهر والبطولة ، فكانوا حملة الرسالة ودعاة الحضارة والمستمسكين بعروة الله الوثقى التى لا انفصام لها .

وحين نرى الرؤساء والقادة اليوم كثيرا ما يحاولون إطفاء الأنوار من حولهم ، فلا يظهرون نبوغ أحد بجوار ما زعموه لأنفسهم من نبوغ . ونرى الرسول الأعظم هو وحده الذى برئت نفسه من كل أثرة ونزهت عن كل أنانية إنسانية ، ولقد أوقد الأنوار كلها من حوله فظهرت مواهب أصحابه جميعا ظهور الشمس فى رائعة النهار ، فكان منهم كل من صلح لتأسيس دولة ، وسياسة أمة ، وقيادة جيوش ، وتدبير أمر ، وإبداع حضارة ، وتحويل مجرى التاريخ ، رضى الله عنهم أجمعين . ولقد بقيت سيرتهم عطرة خالدة فى فم الزمن وفى صحف الأجيال ، من حيث لم يبق لصحابة موسى كليم الله ولا لحواريى عيسى نبى الله سيرة تدل على عظمة خارقة .. لقد كانت الذات المحمدية بجلالها وكمالها وعظمتها أروع فكرة مضيئة فى الحياة ، باقية فى ضمير الأيام ، مذكرة بالله وبعظمة الدين وبخلود الإسلام .

يقرر المؤرخ كريستوفر دارسون فى كتابه « قواعد الحركة فى تاريخ العالم (ص ٢٥٧) أن الأوضاع العالمية تغيرت تغيرا مفاجئا بفعل فرد واحد ظهر فى التاريخ وهو محمد .

ويقرر المؤرخ توينبى فى كتابه « مدخل تاريخى للدين » أن سيرة الرسول السياسية كانت عاملا من أهم العوامل وأبرزها فى تاريخ الحضارات وفى بناء الإمبراطورية الإسلامية ، والذين يريدون أن يدرسوا هذه السيرة العطرة المليحة يستطيعون أن يجدوا أمامهم مئات الأسفار التى كتبت عن السيرة المحمدية ، وسجلت كل ما خفى وعلن فى شئون حياته فى جميع أطوارها وملابساتها مما لا يتوافر مثله للباحثين فى حياة نبى من أنبياء الله ولا رسول من رسله الكرام .

ويتصل بعقيدة الإسلام ما شرعه الله من عبادات جعلها ركنا من أركان الدين وفرضها على كل مسلم ومسلمة ، وفى مقدمتها الصلاة . الصلاة التى يرفع فيها وبها الإنسان فى مصاف الإنسانية إلى حيث يتصل بالخالق الأعظم اتصالا روحيا ، يغرس فيه عز المؤمن ، وكرامة المسلم ، وشرف العابد ، وجلال الزاهد ، وعبودية الراكع الساجد . فالصلاة جزء من عقيدة الوحدانية وشريعة التوحيد . إنها أساس العقيدة وحجر الزاوية فيها . وانظروا إلى ضلال العقل الإنسانى البعيد عن الله وعن إشراق الدين فى نفوس المتدينين . نيتشة المفكر الألمانى يتبجح فيقول : إنه لشىء مخجل أن يبتهل الإنسان بالصلاة .

والإنسانية كلها تكذبه ، ويكفى أن نرد عليه بأن الصلاة إنما هى نتيجة لترقى الإنسان فى فهم وحدة الكون ووحدة القدرة الإلٰهية التى تقوم بتدبيره ، والصلاة فى الأديان العلياعلامة من علامات التقدم الإنسانى فى فهم حقائق الكون ، وفهم الصفات

الإلٰهية ، وهى مظهر لوجود الله الماثل فى ضمائرنا ، ولا يمكن أن تغنى النواميس الطبيعية وحدها الإنسان عن الاتصال الروحى بخالقه وخالقها .

والصيام — وهو موجود فى جميع الشرائع القديمة — قد ارتفع به الإسلام فجعله علامة من دلائل الصحة والقوة ، والتضحية والإيثار ، والإنسانية فى الإنسان المسلم ، ومظهرا لقوة الإرادة ، ووسيلة إلى منعة الشخصية ، وكمال الذاتية ، وإلى القدرة على الصمود فى وجه الشدائد والمحن التى تنزل بساحة المؤمن .. وكأنها على قلبه برد وسلام .

هذه العقيدة الإسلامية الجليلة هى العقيدة الصالحة ، عقيدة الفطرة الصادقة ، عقيدة النفس الإنسانية الواعية ، عقيدة تمتاز ببساطتها وحريتها وجلالها ، عقيدة صالحة لكل زمان ومكان ، لا تجافى العقل ، ولا تتنكر لطبيعة الحياة ، ولا تثير الرعب والفزع بين الناس . عقيدة ترى العمل ما كان خالصا لوجهه الكريم ، وتأمر المسلم أن يولّى وجهه دائما شطر الله يذكره فى كل لحظة ، عند كل خاطرة ، يسبح بحمده وقدرته ، يخشع لجبروته وعظمته ، يعنو لقوته وإرادته وحكمته . إنها عقيدة الإيمان والتوحيد ، عقيدة الدين الكامل ، عقيدة تكرم الإنسان فتهبه الحرية وتمنحه شرف العبودية ، وتقرر المساواة والإخاء بين الناس أجمعين ، وتهب المستضعفين فى الأرض كل حقوقهم ، حرية وعدل ، عمل وقول ، تضحية وبذل .

وستظل هذه العقيدة دائما منار الحرية للمستعبدين ، ونبراس العزة للخائفين ، ومشعل النور والمعرفة للحائرين .. ستبقى حية فى الأرض ، خالدة على الأيام ، كريمة مضيئة فى ضمير الحياة ووجدان الأجيال والعصور والأحقاب . وبها كان للإسلام الخلود والبقاء والدوام إلى أبد الآباد ، حتى تقوم الساعة .

وأمر ثالث ، هو مصدر خلود الإسلام وبقائه ما بقيت الأرض والسماء ، ألا وهو قوة مبادئ الإسلام السياسية والاقتصادية والعالمية ، هذه المبادئ التى بقيت صلبة منيعة فى الأرض على امتداد أربعة عشر قرنا من الزمان لم تلن لها قناة ، ولم يهن لها عود . ولم تذل لها شوكة ، ولم تسكن لها حركة ، ولم تبطل لها ألفة .

شموخ الإسلام ومنعته وكبرياؤه ، قوته وعزته وعظمته وإباؤه ، طموحه ووثوبه واقتداره وتجدده .. هى كلها مضرب الأمثال فى صفحات الخلود ، وفى تاريخ الأديان والعالم والشعوب .

لقد بقى الإسلام وبقيت مبادئه كالطود الشامخ ، وكالنجم الثاقب ، وكالموج الهادر ،

وكالأمل الباهر ، كالربيع المتجدد الزهر والعطر والسحر والجمال والنضارة ، قرونا وأحقابا ، عصورا وأجيالا مديدة ، لم تؤثر فيه الأحداث ، لم تنل منه الأيام ، لم تخدش صفحته المتألقة عاديات العواصف والخطوب .

تهاوت أمام عظمته أمم وحضارات وعقائد وثقافات ، وبادت من حوله مدنيات ومجتمعات ، وبقيت دعوته وحدها مرفوعة اللواء ، شامخة البناء ، قوية الأركان ، منيعة البنيان يأوى إليها المحرومون ، ويلوذ بها المعذبون فى الأرض ، وتهتدى بهداها الجماعات والأمم والناس أجمعون .

وسبحان الله ارتضى الإسلام دينا ، وأنزله شريعة ، وأوحى به كتابا حكيما ، جمع خير الدنيا والآخرة .

(أ) أما قوة الإسلام ومبادئه ونظرياته السياسية :

فلقد خشع لها المفكرون والمشرِّعون والسياسيون ، ووقفوا حيالها حائرين مشدوهين مذهولين لما انطوت عليه هذه المبادئ من عظمة نادرة وحكمة باهرة .

أقام الإسلام على رأس الجماعة الإسلامية إماما يحكم بالعدل والشورى ، وهو صاحب السلطان وولىّ الأمر فى الأمة ومن حوله أولو الذكر من الحكماء والخبراء والمصلحين والمخلصين .

وجعل الفرد حرا مسئولا .

وجعل أحكام الشريعة نافذة مهيمنة ، فى كل جيل وكل بيئة ، وهى أساس مصلحة الأمة وسعادتها ورفاهيتها وتقدمها وازدهارها وأساس الأمن والشرف والعزة لها .

وجعل الأمة الإسلامية موصولة الرحم والأخوة ، مشمولة بالرعاية والتعهد والعدالة الاجتماعية ، تقوم أمورها على الحب بين الناس ، وعلى النصيحة لله ورسوله ، ولأولى الأمر ولعامة المسلمين ، وعلى احترام الحدود والقصاص العادل لمن تسول له نفسه ارتكاب ما حرم الله ، قصاصا لا تأخذ الحاكم فيه ولا فى الله من أجله لومة لائم ..

مبادئ تؤمن بحرية الإنسان وخلافته لله فى الأرض ، ومنها تنبعث الرفاهية والحضارة فى العالم ، وبها يلتحم الدين والسياسة فى مجتمع الإسلام التحاما وثيقا ، فلا ينفصل الدين عن الملك ، ولا الملك عن الدين . فالجانب الدينى والسياسى يلتئمان فى الأمة الإسلامية فى وحدة قوية باهرة ، والتحام الدين بالدولة هو أعظم ظاهرة فى الإسلام ، وبه صارت القيم

الأخلاقية فى التشريع والنظام السياسى وتكوين الأمة الاجتماعى منهجا أصيلا ملتزما . وكان الإسلام بهذا المنهج على مر العصور المثل الأعلى للعالم ، ولبابوات المسيحية الغربية الذين حاولوا تطبيق مناهجه فى مجتمعاتهم ففشلوا ، لأن طبيعة الإسلام تخالف طبيعة المسيحية التى لا تتصل شرائعها بالمجتمع والدولة اتصالا ما من حيث ظل الإسلام قوة دينية وسياسية معا ، فالعبادات والمعاملات القانونية المدنية والدستورية والجنائية ونظم الحكم والسياسة ، كل ذلك هو فى صلب مواده ، وقد احتواها كلها كتاب الله الحكيم ودستوره الخالد ، القرآن الكريم .

ولقد أثبتت قوة الإسلام السياسية فعاليته الكاملة وسمو نظامه السياسى على كل نظام سياسى عالمى ظل حتى اليوم فى الأرض .

وحسبنا أن فكرة الأمة الإسلامية كما جاء بها الإسلام هى أروع فكرة شهدتها الإنسانية إلى الآن ، ولم يسبق الإسلام إليها دين من الأديان ولا نظام من النظم السياسية فى العالم ، ولم تزل ينبوعا لكل فيض من فيوض الإيمان ودافعا يدفع المسلمين إلى الأخوة الكاملة فى الله ، أخوة اختفت فيها كل عوامل الفرقة بين الناس من الجنس واللغة وعصبية النسب والسلالة ، وانفرد الإسلام وحده بهذه الظاهرة الفذة العجيبة ، ظاهرة الوحدة الإسلامية بين المؤمنين به ، واشتملت أمة الإسلام على العرب والفرس وأقوام من البيض والسود والهنود والصينيين والروم جميعا ، على تباعد الديار وتنائى الأقطار وتفاوت المصالح ، ولم يخرج عن هذه الأمة ولا عن دائرة الضوء فيها أحد بمحض إرادته لينشق عليها أو يقطع الصلة بينه وبينها ، أجيالا طوالا .

وقد نجح الإسلام فى تكوين المجتمع الدولى المتحد ، أو ما نسميه « الولايات الإسلامية العالمية المتحدة » ، نجاحا لم يشاهد العالم حتى اليوم مثله لا نظيرا له ، ولا تزال أوربا تحاول الوصول إلى ما وصل إليه الإسلام فى ذلك المجال دون أية بارقة من أمل فى تحقيق أمنيتها المنشودة .

يقول مونتجمرى وات رئيس قسم الدراسات العربية بجامعة أدنبرة بأيرلندافى كتابه « الإسلام والجماعة المتحدة » : « إن هذه الفكرة منحت المسلم مقياسا للحياة أرفع وأسلم من مقياس العصبية والوطنية ، وهو مقياس الضمير المستقل عن أصحاب السيادة وربقة الوراثة والمصالح الشخصية » .

(ب) وأما قوة مبادئ ونظريات الإسلام الاقتصادية :

فلقد أثبت الزمن صلابتها وصلاحيتها للتطبيق فى كل زمان ومكان ، وهى عامل من عوامل خلوده فى الأرض .

لقد عرف القرن التاسع عشر نظام رأس المال وجعل الربا قاعدته الأولى ، وعاب كذبا وزورا على الإسلام أنه يقف حجر عثرة فى سبيل التقدم الاقتصادى بتحريمه للربا ، ولم يلبث هذا النظام أن شهد نظاما آخر يرميه بالسفه والاستغلال ويحاول أن يصرعه ، وهو نظام المادية الاقتصادية الذى ينكر الربا وينكر معه رأس المال .

ويقف النظامان اليوم يتصارعان على سيادة العالم والاستحواذ على اقتصاديات الأمم .

وهذا دليل ما بعده من دليل على أن نظرية الإسلام فى الاقتصاد التى مر على تطبيقها بنجاح كبير عظيم أربعة عشر قرنا ، هى من المنعة والقوة والعظمة والخلود والدوام بمكان لا تحلم به نظرية اقتصادية أخرى .

ومن أهم مقومات هذه النظرية ما يلى :

أولا : الحرية الاقتصادية بأقوى مدلولاتها وأوسع مفهوماتها ، حرية فى المبدأ وفى التطبيق ، فى الأصول وفى الفروع .

ثانيا : رأس المال ليس مجردا من الوازع الدينى ولا من النوازع الخلقية ، فهو يسير ويعمل ومعه الشرف والخلق والأمانة والضمير الدينى ، وهو يهدف أكثر ما يهدف إلى أداء الواجب لا إلى تحقيق الربح وحده ، وغايته المنشودة خدمة المجتمع الإسلامى ورفاهيته ،والقضاء على العوز .

ثالثا : رأس المال فى الإسلام يبنى ولا يهدم ، ينفع ولا يضر ، يسعد ولا يشقى — لأنه لم يمكن له ليوقع ضررا بالجماعة المسلمة ، ومن ثم حرم الإسلام الربا والاستغلال والاحتكار ، كما حرم كنز المال ، وكذلك حرم إنفاقه سفها فى غير فائدة. ومن هنا شرع الإسلام الحجر على الإنسان للسفه والجنون وغيرهما .

رابعا : للمال فى الإسلام وظيفة « اجتماعية » ، ومن هنا شرعت الصدقة والإحسان والزكاة والهبة والوصية والقرض والوديعة والوقف والميراث وغيرها . وكذلك له وظيفة اقتصادية ، ولهذا شرع البيع والإجارة والمزارعة والمساقاة والشركة والمضاربة .. ليتداول المجتمع المسلم الثروة لخيره ورفاهيته ، كى لا تكون دولة بين الأغنياء ، نظاماً إلـٰهيًّا عادلا

يكفل لكل إنسان الأمن من العوز ، والحق فى العمل ، وفى الحصول على الأجر وعلى تكافل اجتماعى سليم وعلى الأجر العادل المناسب ، ويضمن له كذلك المنافسة الشريفة الهادفة إلى ازدهار الاقتصاد الإسلامى الحر .

(جـ) وأما قوة الإسلام العالمية : فهى مضرب المثل فى التاريخ والحياة وعند المفكرين المعاصرين ، كما أنها موضع العجب العجاب عند جميع المؤرخين العالميين المنصفين .

وحسبك أن الإسلام أمد أتباعه بقوة عالية حطمت دولتا الأكاسرة والقياصرة ، وقضت على دول الحروب الصليبية والمغول ، ووقفت أمام دول الاستعمار والتبشير والدعاية المذهبية منذ القرن الثامن عشر ، فى صمود وشموخ وعزة وإباء وأنفـة لا مثيل لها .

ويؤكد المؤرخ الإنجليزى توينبى معجزة الإسلام الكبرى فى انبعاثه ، وفى استيلائه على الإمبراطورية الساسانية ، ثم على الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وفى فوزه بولاء مئات الملايين من أبناء الشعوب ، لتسامحه وعدله .

ويقرر المؤرخ كرويرفى كتابه « طبيعة الثقافة » (ص ٣٨٨) أن الإسلام لم يخضع لما خضع له غيره من الظواهر الروحية والاجتماعية ، إذ لم تكن له طفولة أو شباب ، بل انبعث ظاهرة متكاملة غاية التكامل . وحقا لقد انتشر الإسلام فى العالم كله فى زمن يسير كما ينتشر شعاع الشمس فى لحظات ، وكان انتشاره دون مساندة قوته له فى هذا المضمار معجزة من معجزاته ، ودليلا على سمو مبادئه وغاياته ، وعقائده وتشريعاته ، هذه المبادئ التى لا تزال — كما كانت — مصدر إشعاع ونور وهداية وعلم ومعرفة .

وهكذا أصبح للإسلام كيان دولى عالمى منذ ظهوره ، فلقد أحدث آثاره العظيمة المدوية منذ حياة الرسول نفسه ، وأثرت مبادئه فى السياسة العالمية ولا تزال تؤثر فيها حتى اليوم . وهذا بينما لم يصبح للمسيحية تأثير سياسى ودينى فى العالم إلا بعد وفاة المسيح بثلاثمائة عام ، وبفضل اعتناق الإمبراطور قسطنطين لها .

وإذا كان الاستعمار قد حاول طويلا أن يبعد الإسلام عن مراكز القوة والتأثير فى العالم ، وجاء التبشير ليحارب الإسلام وتأثيره فى إفريقيا وآسيا تارة باسم الدين وأخرى باسم العلم أو المدنية أو الوطنية ، فإن ديننا الخالد بقى صامدا عزيزا ، وهو اليوم يقف مبتسما واثقا من قدرته وقوته فى معركة الدعاية المذهبية ، وفى جميع معاركه مع الصهيونية العالمية فى أرض فلسطين العربية المسلمة .

الإسلام قوة أجل وأعظم ، وأسمى وأكرم ، وأبقى على الزمن مما يظن كل أولئك ، وهو

شعلة تزداد وهجا وحيوية وضياء بمرور الأيام ، وتقدم العلم ، ووقوف المفكرين فى صفة ، وصلابة المسلمين الحقيقيين فى الدفاع عنه .

وأولى بمن يجعلون رسالتهم محاربة الإسلام أن ينصرفوا إلى حرب الوثنية فى جميع صورها ، وإلى حل مشكلات الإنسان المعاصر ، وإلى غير ذلك من أعمال تعين على تقدم البشر ورفاهيتهم ، ولو قد فعلوا ذلك لأصبحت الحياة غير الحياة ، ولصار الحاضر أكثر إشراقا وبهجة ، ولغدا الإنسان المعاصر أكثر ثقة بالمستقبل واطمئنانا إليه وأملا فيه .

ويجئ سبب رابع من أسباب خلود الإسلام وأكبر مقوماته ، وهو القرآن الكريم هذه المعجزة الإلٰهية الكبرى ، هذا الناموس السماوى الأعظم ، هذا القانون الإنسانى الحكيم .

فالقرآن بما تضمنه من القيم والمثل ، وبما احتوت عليه سوره وآياته من الحق والصدق ، وبما اشتملت عليه من العلم والحكمة وأخبار الأولين ، وبدء الحياة على الأرض ، وتطور الإنسانية ونهايتها ، هو هو معجزة الدهور وآية الأحقاب والعصور .

إعجازه البيانى ، وإعجازه العلمى والكونى ، وإعجازه الاجتماعى والروحى والتشريعى ، هو آية الآيات ، والدليل الناصع على خلوده فى الأرض وبقائه فيها ما بقيت الأرض والسماوات .

لقد كشف القرآن فى عصر الجهل كل طلاسم العلم ، وحل فى عهد البداوة كل ألغاز الحياة ، وأتى بحقائق مذهلة لم تتأت للإنسانية وسائل العلم بها أو فهم بعضها حتى زمننا الراهن .

فقد فسر القرآن نشأة الحياة والكون والإنسان تفسيرا علميا جليلا عظيما .

والعلماء يختلفون فى نشأة المجموعة الشمسية : أنشأت من انفجار الشمس ، أم من اصطدامها بشمس أخرى ، أو بمذنب عابر فى الفضاء ؟

وفى قوله تعالى : ﴿ أولم ير الذين كفروا أن السمٰوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حى أفلا يؤمنون ﴾[1] ، شرح صادق دقيق وواضح للقدرة الإلٰهية الباهرة فى هذا المضمار .

والروح لا تزال سرا محجبا على العلم ، وقد أجمل القرآن نظريتها وسرها فى أبلغ كلمات فقال تعالى :

---

(١) ٣٠ الأنبياء .

﴿ ويسألونك عن الروح
قل الروح من أمر ربى
وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾[1] .

وما برح العلم إلى اليوم عاجزا عن فهم كثير من حقائق الحياة التى جاء القرآن بأحدث تفسير لها ، وفى نظرية هيزنبرج أن العلم لا يزال عاجزا عن معرفة كيف يتصرف كهرب واحد من كهارب الأجسام المادية ، وإنما الذى يعرفه من ذلك هو حكم الجملة ، مما يستحيل تطبيقه على الأجزاء المتفرقة .

وهذا ليس بالشىء الوحيد الذى يعجز أمامه العلم ، بل إن النواميس الكونية غير معروفة حتى اليوم عند العلماء ، يقول بيرس : إن المصادفات قد تكون اليوم قوانين فى دور التكوين ، والقوانين قد تكون مصادفات تكرر على وتيرة واحدة ولكنها لا يرتبط بعضها ببعض ارتباط الأسباب بالمسببات . وفى سورة يس وصف لحركات الليل والنهار والشمس والقمر فى الكون الكبير يدل على إلٰه حق قادر موجود ، وفيه ما فيه من معجزات علمية باهرة هى دليل وحدانية الله وقدرته ، وتسخيره لهذا الكون العجيب .

وقصص النبوات الأولى فى القرآن الكريم أمدت الإنسان بما كان يجهله تمام الجهل من أحداث وتاريخ العصور الإنسانية الأولى التى لم تذكر فى كتب العهد القديم ، ومن بينها قصص عاد وثمود وذى الكفل وغيرهم .

فهل هناك سبب أقوى من هذا السبب فى فهم إعجاز القرآن الحكيم ، وعظمة المعجزة الإلٰهية فيه ؟

وهاكم مثلا بسيطا لعظمة كتاب الله ولإعجازه الذى هو سر من أسرار الخلود فيه .

النحل ، هذا الطائر الصغير الذى يقطف الأزهار ، ويلقح الأشجار ، ويخرج الشهد المصفى . من عجب أن تسمى سورة من سور القرآن الكريم باسمه دليلا على صنيع القدرة الإلٰهية فيه ، ومصداقا لقوله تعالى :

﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ۝ ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾[2] .

---

(١) ٨٥ الإسراء .
(٢) ٦٨ و ٦٩ النحل

وانظر كيف قدم الله عز وجل ذكر الجبال فى الآية ، وذلك دليل على القيمة الطبية الكبيرة للشهد المستخرج من الجبال .

وقد رأينا « رأس الهلال » فى ليبيا ، وهو جبل شاهق فيها على البحر الأبيض المتوسط بين سوسة ودرنة ، ويبلغ ارتفاعه نحو ألفى متر ، وعسل النحل الذى يستخرج منه من أجود أصناف الشهد التى يعرفها العالم .

وفى تفسير ﴿ شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾ يقول الإمام الطبرى[1] :

شراب : هو العسل .

مختلف ألوانه : لأن فيه أبيض وأحمر وأسمر ، أى ذا لون مكون من عدة ألوان .

فيه : أى فى القرآن فى رأى ، أو فى الشهد فى رأى آخرين .

شفاء للناس : أى من الأدواء ، ولم يأت الإمام الطبرى بجديد فى تفسير الآية الكريمة .

ما فائدة النص على أن العسل مختلف ألوانه ؟

ولماذا كان فيه شفاء للناس ؟

الله ، ما أشد جهل الإنسان بعظمه كتاب الله .

لقد كتب مبشر مغرور يقول متهكما بالقرآن : إن عسل النحل هو العلاج الوحيد الذى وصفه القرآن . وصدق القرآن الكريم فيما وصف به الشهد من أن فيه شفاء للناس . وكذب هذا الكذاب المأفون ، فليس الشهد هو العلاج الوحيد الذى وصفه القرآن ، ولفظة « الوحيد » جاءت فى كلام هذا المبشر مبنية على المغالطة والكذب والافتراء . وهذا المبشر هو زويمر مؤلف كتاب « بلاد العرب مهد الإسلام » .

وجاء عالم « إنجليزى » فألف كتابا بعنوان « الطب الطبيعى » تحدث فيه عن أهمية الشهد الطبية العجيبة ، إذ قرر أن البكتريا لا تعيش فى الشهد لاحتوائه على مادة البوتاس ، التى تقضى على الرطوبة اللازمة لحياة البكتريا التى تتولد منها جراثيم الأمراض . وللتأكد من هذه الحقيقة أجرى أحد أساتذة البكتريا فى أوربا تجارب على أنواع مختلفة من الجراثيم لمعرفة مدى تحملها للحياة فى الشهد بأن وضع أنواعا من الجراثيم فى قوارير مملوءة بعسل النحل الصرف ، فكانت النتيجة كما يلى :

ماتت جراثيم بعض الأمراض بعد خمس ساعات .

---

(١) ٩٤ / ١٤ تفسير الإمام الطبرى

وماتت جراثيم الدوسنتاريا بعد عشر ساعات .

وماتت جراثيم التيفويد بعد يومين .

وماتت جراثيم النزلات الصدرية فى اليوم الرابع .

وشهد الكيمائيون للمادة السكرية فى الشهد بفوائد طبية جليلة مما يضاعف من قيمته الطبية ، فهى مهدئة وملطفة ، وسريعة التمثيل فى البنية الحية ، وتتحول سريعا إلى طاقة بدنية ، وهى مساعدة طبيعية لعملية الهضم ، وأوفق للكليتين دون سائر المواد السكرية ، وهى كذلك مناسبة للمشتغلين بالألعاب الرياضية لتعويض الطاقة المفقودة .

وأكد عالم فى البكتريا كذلك توفر الأغذية المعدنية فى الشهد ، وتبلغ أكثر من عشرة معادن ، فالنحاس والحديد والمنجنيز أوفر فى الشهد الضارب إلى السواد .. وهذا يفسر لنا تفسيرا علميا جديدا سر قوله تعالى : ﴿ شراب مختلف ألوانه ﴾ .

ونحن نتعجب للمضمون العلمى الذى سجلته هاتان الآيتان منذ عهد بعيد قبل تقدم وسائل العلم بزمن طويل ، ونقف فى خشوع وإجلال مبهورين بما احتواه الكتاب العظيم من أسرار العلم ودقائقه .

وسبب آخر أو أخير أوفى لخلود الإسلام ، هو وعد الله الصادق الكريم فى قوله تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[1] .

ويؤكد ما قرره القرآن هنا أن الإسلام وقد مضى عليه أربعة عشر قرنا جابهه فيها آلاف الدعوات والمذاهب والطغاة والأحداث ، ومع ذلك لم يستطع شىء منها أن يخدع المسلمين عن حقهم بالباطل الذى يفتريه الكاذبون ، وظل وسيظل الإسلام وكتابه الحكيم خالدا محفوظا إلى يوم الدين بإذن الله .

ومع ما تشهده اليوم من غربة الإسلام الروحية فى عقول بعض المسلمين من أبواق المبشرين والماديين والجاحدين ، فإن الله عز وجل ناصر دينه ، ومظهر نوره ، ومتمم كلمته ولو كره الكافرون .

وفى الحديث الشريف ، يقول رسول الله ﷺ : (بدأ الإسلام غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء[1]) .

---

(١) ٩ سورة الحجر

(٢) وهذه رواية البخارى فى كتاب الحجج ، ومسلم ، وابن ماجه ـــ وهى رواية أبى هريرة . ويروى الحديث بروايات مختلفة :

وغربة للإسلام فى آخر الزمان المشبهة بغربته فى أول ظهوره يمكننا أن نجمل الآراء فيها فيما يلى :

أولا : قلة المسلمين فى آخر الزمان ، أو ضعفهم وهوانهم مما أشبهوا فيه حالة المسلمين فى بدء ظهور الإسلام التى عبر عنها الرسول صلوات الله عليه فى قوله المأثور : (اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس) . يقول ابن الأثير : كان الإسلام فى بدء أمره كالغريب الوحيد الذى لا أهل له لقلة المسلمين يومئذ .

ثانيا : ضعف الدين فى نفوس المسلمين فى آخر الزمان ، حتى لا يكاد يوجد بين القائمين به إلا الأفراد القلائل : كما يذهب إليه المناوى فى « فيض القدير »[1] .

ثالثا : قلة ما فرضه القرآن على المسلمين من أحكام الدين فى بدء ظهور الإسلام ، وقلة ما يعملون به من أحكام الدين فى آخر الزمان كما ذكر المناوى أيضا .

رابعا : ذهب الشيخ المراغى فى مقدمته لكتاب « حياة محمد » إلى أن غربة الإسلام فى بدئه هى حياته وظهوره وقوته فى المدينة التى لم تكن دار الإسلام الأولى بل هى دار غربة له بالنسبة إلى مكة . وغربة فى آخر الزمان معناها أنه يعتريه ضعف بعد ظهور أمره ، ثم يعود إلى الظهور بين أقوام غرباء عنه من غير أهله فيقيض الله له أمة قوية جديدة تبين به وتحميه ويعود بها إلى الظهور .

خامسا : ويرى الشيخ عبد الحليم قادوم رحمه الله أن المعنى على غرابة مبادئ الإسلام على النفوس أولا وأخيرا .

= ١ ــ عن سعد بن أبى وقاص قال ، سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول : (إن الإيمان بدأ غريبا وسيعود كما بدأ ، فطوبى يومئذ للغرباء إذا فسد الناس) (الجزء الثالث ــ مسند الإمام أحمد ــ دار المعارف بمصر) .

٢ ــ وعن ابن عمر : أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ) أى فيقل المسلمون فى آخر الزمان فيصيرون كالغرباء .

ويروى عن ثوبان عن رسول الله ﷺ : (إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء) ، أى بدأ غريبا فى قلة من الناس ثم انتشر ، وسيعود غريبا لا يكاد يوجد من القائمين به إلا الأفراد (فيض القدير للمناوى (٢ / ٣٢١) .

(١) ٣٢١ / ٢ فيض القدير للمناوى . وقد جمع الطرطوشى بين التعليل الأول والثانى فقال فى تفسير الحديث : « كان الرجل إذا أسلم غريبا مستخفيا بإسلامه قد جفاه الأهل والعشير ، فهو بينهم ذليل خائف ، ثم يعود غريبا لكثرة الأهواء المضلة حتى يبقى أهل الحق غرباء » (٢٩ كتاب الحوادث والبدع للطرطوشى ــ ط دار الاصفهانى بجدة) .

سادسا : ومهما كان الرأى فى معنى الحديث فأنا لا أخرج به عن معنى غربة الإسلام الروحية والفكرية فى نفوس بعض المسلمين فى آخر الزمان مما نشاهد بعضا منه اليوم ، كتنكر البعض لمبادئ الإسلام ونظمه وأحكامه كما كان الأمر كذلك فى أول الزمان ، ولكن الحديث لا يدل على شيء مما حمل عليه بالباطل من ذهاب شوكة الإسلام وأهله ، لأنه سيظل عزيزا أبدا ، قويا أبدا ، فى نفوس مئات الملايين من المسلمين الذين آمنوا به ، وفى نفوس الآلاف التى تدخل فيه كل يوم فى شتى أنحاء العالم مؤمنة بأنه خاتم الشرائع ودين الله الخالد ، وصدق الله العظيم ﴿ وإنه لكتاب ، عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾(1) .

وما نقوله مبنى على أن المشبه لا يعطى حكم المشبه به من كل وجه بل يعطى حكمه العام المتميز به ، أما لوازم هذا الحكم العام فليس من الضرورى أن يثبت للمشبه على أية حال من الأحوال .

وليس أدل على خلود الإسلام من قوله تعالى :

﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾(2) .

وبعد :

فإننا — بإذن الله ومشيئته — لسوف نشهد ازدهار الإسلام وقوته وعظمته رضى أم كره الجاحدون .

والعمل من أجل الإسلام ونصره وتقدم المسلمين ورفاهيتهم ، فرض محتوم على كل مسلم فى الأرض .

وهنا نقول :

إن على شباب الجامعات العربية بعامة ، وشباب الجامعات الإسلامية بخاصة ، أن يعملوا من أجل الإسلام وتقدم المسلمين .

عليهم أن يحاربوا الغربة الروحية لمبادئ الإسلام فى نفوس بعض المسلمين .

عليهم أن يدرسوا الحضارة الإسلامية وأثرها فى العالم .

أن يدرسوا الفكر الإسلامى وأعلامه .

---

(1) ٤٢ فصلت .　　(2) ٣٢ و ٣٣ التوبة

أن يدرسوا الثقافة الإسلامية فى تراثها العظيم الخالد .

أن يدرسوا المسيرة النبوية والفتوحات الإسلامية ومعارك الإسلام الكبرى .

أن يدرسوا حركة الإسلام ومجتمعاته فى الماضى ، والحركات الإسلامية اليوم فى الشرق والغرب .

أن يدرسوا مبادئ الإسلام وأصوله الخالدة فى كل جوانب الحياة ، وما أجلها وأعظمها . على أن ينشروها فى دراسات حديثة بلغة العصر الذى نعيشه .. عليهم أن يبنوا الكيان الإسلامى بالأعمال والحقائق .

أن يبنوا المراكز الإسلامية فى كل مكان منارات علم وهداية إلى الإسلام .

أن ينشئوا المجلات الإسلامية المتخصصة الرفيعة .

إنه ليجب أن نعلم أن التخطيط فى الشرق والغرب قائم على قدم وساق لمحاربة الإسلام ، وأن وسائل هذه الحرب ما خفى منها وما علن كثيرة ، تدعهما القوة والمال والعلم والخبرة .

ومن هنا كانت التبعة كبيرة ، والمسئولية فادحة ، والأمانة ثقيلة .

وهذا مما يحفزنا على العمل ، فلنعمل دائما ، ولنعمل أبدا ، من أجل الإسلام وكتابه العظيم .

لتكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين (كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى) .

فإن الله وعد المؤمنين ، المؤمنين حقا وصدقا ، بالنصرة ، وأكد أن دين الإسلام خالد إلى يوم يبعثون .

* *

وبعد فما أجل مفاخر الإسلام ومآثره وعظائمه التى لا ينتهى الحديث فيها ، ولا يمل الكلام عنها ، وتقف كل بلاغة خاشعة أمام جلالها وعظمتها .

وهنا نعترف بالعجز مهما قلنا ، وبالقصور مهما أطلنا وحدثنا .

وحسبنا أن نتمثل بقول هوميروس شاعر اليونان القديم فى ملحمته المشهورة « الإلياذة »

نشيد الزمان ،

وقصيدة الماضى ،

وغناء السلف ،

وحداء القافلة لاتفتأ
تخب فى بيداء الأزل ، إلى الواحة المفقودة فى متاهة الأبد .
أنشد أيها الشاعر ،
واملأ الأحقاب موسيقى ،
واللانهاية جمالا وسحرا ،
فالأرواح ظامئة ،
والقلوب متعبة ،
والإنسانية واجفة ،
والآذان مكدودة من دوى العصر ،
فهى أبدا تحن إلى سكون الماضى وجلاله .

لن تصمت أيها الشاعر
فالقيثارة الخالدة لا تزال فى يديك ،
والقلوب هى القلوب ،
فدع أوتارها تملأ الدنيا رنينا ،
فرنينك العذب أذهب لأنين
الشاكين ، ولوعة الباكين .

رمضان فى الحياة الإسلامية

رمضان شهر التاريخ والذكريات فى حياة الإسلام والمسلمين .

ففى شهر رمضان نزل القرآن دستور الرسالة المحمدية الخالدة ، حيث نزل به جبريل عليه السلام إلى السماء الدنيا ، ثم كان ينزل به على رسول الله صلوات الله عليه منجما حسب الوقائع والأحداث .

وفضل رمضان والعبادة فيه إنما كان بسبب هذه الذكرى المجيدة فى تاريخ الإنسانية ، ذكرى نزول القرآن الكريم .. « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » من الآية ١٨٥ من سورة البقرة .

ولذلك فرض فيه الصوم يوم الاثنين لليلتين خلتا من شعبان من السنة الثانية للهجرة ، وسن فيه العبادة والذكر والتلاوة والقيام والاعتكاف .

وفى رمضان ليلة خير من ألف شهر ، وهى ليلة القدر التى نزل فيها القرآن على محمد « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » الآية ١ من سورة القدر .

وقد سمى رمضان بهذا الاسم لأنه يحرق الذنوب ، وشريعة الصيام فيه هى الركن الثانى للإسلام ، وفى الحديث النبوى :

(بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان) .

وفى الحديث الشريف :

(من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه) .

وفى الحديث أيضا :

(ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حين يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام وتفتح لها أبواب السماء) .

وكان رسول الله ﷺ يبشر أصحابه بقدوم شهر رمضان ، ويقول لهم (جاء شهر رمضان بالبركات فمرحبا به من زائر) ..

ويقول كذلك صلوات الله عليه : (لقد جاءكم شهر رمضان ، شهر مبارك ، كتب عليكم صيامه فيه ليلة خير من ألف شهر) .

ويقول أيضا ﷺ :

(لو علمت أمتى ما فى رمضان من الخير لتمنت أن يكون رمضان السنة كلها) .

وقد وقعت أحداث كثيرة فى العالم الإسلامى فى رمضان .

ففى العاشر من رمضان للعام العاشر من البعثة النبوية توفيت خديجة ـــ زوج رسول الله ـــ وتوفى عمه أبو طالب .. وفى رمضان فى السابع عشر منه من السنة الثانية للبعثة كانت بدر الكبرى التى انتصر فيها الرسول والمسلمون انتصارا مؤزرا .

وفى الحادى والعشرين من رمضان من السنة الثامنة للهجرة ، أنعم الله على رسوله بفتح مكة .

وفى رمضان من العام الحادى عشر للهجرة ، توفيت فاطمة الزهراء بنت رسول الله وزوج على وأم الحسن والحسين .

وفى رمضان من السنة الثالثة والخمسين ، توفيت عائشة أم المؤمنين .

وفى رمضان من العام الثالث والخمسين ، فتحت جزيرة رودس إحدى جزر شرق البحر الأبيض على الشاطئ الجنوبى للأندلس لفتح هذه البلاد .

وفى رمضان من العام الحادى والستين والثلاثمائة ، تم بناء الجامع الأزهر .

وفى رمضان من العام ٦٥٨ ، كان نصر الإسلام على التتار ـــ فى معركة « عين جالوت » بقيادة قطز .

وفى العاشر من رمضان ١٣٩٣ ، كان النصر على اليهود وتحطيم خط بارليف .

إلى غير ذلك من الانتصارات الباهرة التى تمت فى رمضان على امتداد السنين والأجيال ، ونال بها الإسلام عزا وتمكينا .

ولقد كان الصوم معروفا فى الجاهلية ، فقد كانت قريش تصوم يوم عاشوراء .

وشريعة الصيام شريعة عرفتها جميع الأمم القديمة والحديثة على السواء . وفى شريعة الإسلام للصوم شروط وآداب يجب أو يستحسن مراعاتها .

والمسلمون على طول عصور التاريخ يحتفلون برمضان احتفالات رائعة .

ويبدأ الاحتفال برمضان بموكب الرؤية أى موكب رؤية هلال شهر رمضان .

وفى مصر كان القاضى أبو عبد الرحمن بن لهيعة الذى ولى القضاء فى مصر عام ١٥٥ هـ / ٧٧١م أول قاض خرج لرؤية هلال شهر رمضان ، فكان ذلك سنَّة لمن جاء بعده من القضاة ، حيث كانوا يخرجون إلى مسجد محمود بسفح جبل المقطم لرؤية الهلال فى شهر رمضان وشهر شعبان استعدادا لرؤية هلال رمضان .

وفى مكان مرتفع من المسجد كانت توجد « دكة » تسمى « دكة القضاة » حيث كانوا يجلسون عليها لرؤية الهلال ، ، وقد أعيد بناء هذا المسجد فى العصر الفاطمى فصاروا يرصدون الهلال من فوق منارته .

وكان موكب الرؤية فى العصر الفاطمى يتصدره الخليفة والعلماء والأمراء والوزراء والقواد والشعب من جميع المهن والحرف ، ويسير الموكب من بين القصرين إلى باب الفتوح ، ثم يعود من باب النصر إلى باب الذهب حيث قصر الخليفة .. وكان الخليفة ينتظر حضور شهود الرؤية ، فإذا ثبت رؤية الهلال كتب الخليفة بذلك إلى الولاة والنواب على البلاد ، وأمر بإنارة مآذن الأزهر بالقناديل ، وبعث بالجنود إلى الأحياء المختلفة ، واستبشر الناس بذلك استبشارا كثيرا .

وفى عهد المماليك كان يخرج قاضى القضاة ومعه القضاة الأربعة للمذاهب الإسلامية والشهود لرؤية الهلال ، ويشترك معهم محتسب القاهرة وتجارها ورؤساء الطوائف والمهن فيها وجموع الشعب ، وكان شهود الرؤية يرصدون الهلال من فوق منارة مدرسة السلطان قلاوون بالنحاسين ، فإذا تحققت لهم الرؤية أضيئت القناديل على واجهة الدكاكين وخرج قاضى القضاة فى موكب تحف به الفوانيس والمشاعل حتى يصل إلى داره ، وعندئذ تتفرق جموع الشعب معلنة بأن غدا هو أول أيام الصيام ، وقد اتخذت ساحة القاضى مكانا لانتظار مواكب الرؤية حتى يجيء الشهود بالنبأ الحاسم .

وقد عنيت الدولة الفاطمية بإحياء ليالى رمضان والاحتفاء بأيامه وبذكرى نزول القرآن فيه ، وبخاصة أن شهر رمضان اقترن عندهم بذكرى فتح مصر على يدى جوهر الصقلى عام ٣٥٨هـ ، وبذكرى دخول المعز للقاهرة فى رمضان من عام ٣٦١هـ .

وقد بالغ الفاطميون فى وضع الطعام ، حتى كانت القدور التى تعد للفقراء كل ليلة من ليالى رمضان فى قصر الخلافة أكثر من ألف ومائتى قدر .

وكان هدفهم من كل ذلك غير بعيد عن الدعاية لدولتهم ولعقيدتهم .

ولا ننسى أن الفاطميين كانوا يجلسون فى قصورهم الشامخة لتلقى التهنئة فى رمضان وللاستماع إلى مدائح الشعراء كلما حل رمضان ، كما كانوا يجلسون كذلك هذا المجلس إذا ودَّع رمضان احتفـاء بالعيد .

وهذا الأمير الشاعر تميم بن المعز الفاطمى يمدح العزيز بالله ويهنئه بإقبال رمضان فيقول :

ليهنك أن الصوم فرض مؤكـد　　　من الله مفْروض على كل مسـلم
وأنك مفـروض المحبـة مثلـه　　　علينـا بحق قلت لا بالتوهـم

وفى العصر الفاطمى كان الخليفة يجلس فى شرفة كبيرة من شرفات قصره لسماع الشعراء والوعاظ والمنشدين ، ثم يأمر الخليفة بتوزيع الهدايا والحلوى من القطائف والكنافة عليهم — ويقال إن هذه الأنواع من الحلوى كانت قد صنعت خصيصا لسليمان بن عبد الملك أو لمعاوية بن أبى سفيان — وفى نهاية الليلة تمد للخليفة مائدة السحور ومعه جلساؤه وخواصه والمقربون من أقاربه وأصهاره وأصدقائه ورجال دولته ، ويوزع عليهم الخليفة نصيبا من الحلوى لأولادهم ، ثم يأذن لهم فى الانصراف .

وكان من تقاليد الأتراك فى القاهرة فى رمضان الصلاة فى مسجد الحسين ، وإضاءة المآذن بالليل .

ولا زالت آثار الحفاوة برمضان بإحياء لياليه ظاهرة واضحة فى القاهرة الحديثة حتى اليوم .

وفوانيس رمضان ظاهرة رمضانية معروفة ، وقد عرف الناس فانوس رمضان فى عهد الدولة الفاطمية ، حيث استقبل المعز فى دخوله القاهرة فى الخامس من رمضان عام ٣٦١ هـ من صحراء الجيزة حتى قصره الكبير فى القاهرة المعزية ، بالفوانيس المزدانة ..

ويقال : إن النساء كن لا يخرجن من منازلهن إلا فى رمضان ، حيث يتقدم السيدة أو الفتاة صبى صغير يحمل فى يده فانوسا أحمر مضاء ، ليعلم المارة أن إحدى السيدات تسير فيفسحون لها الطريق .

وفى عصر المماليك أكثر الشعراء من وصف فانوس رمضان ، كما ارتبط رمضان فى العصرين المملوكى والتركى بأنواع من الحلوى كالكنافة والقطائف ، وقد أكثر شعراء العصرين من الحديث عن حلوى رمضان . وهذا شاعر العصر المملوكى ابن نباتة يقول :

يا سيدى جاءتك فى صدرها كأنها روحـــــى فى صدرى
كنافــة بالحلــو موعـــودة كما تقــول الــعسل المصرى

إلى أن يقول :

لا زلت فى الدهــر كما تبتغــى وفـــوق ما تبغـــى من الدهر

وقد عرف المسحراتى منذ صدر الإسلام حيث كان هناك مؤذن للإعلام بالفطور وآخر للإعلام بالإمساك عن الطعام والشراب .

وفى عام ٢٣٨ هـ كان ولاة مصر يذهبون إلى جامع عمرو بن العاص سيرا على الأقدام من مدينة العسكروهم ينادون للسحور ، وقد سنَّ لهم هذه السنَّة عنبسة بن إسحاق والى مصر فى ذلك العصر .

وكان المؤذنون فى العصر الفاطمى يؤذنون على المآذن للسحور .

وهذا شاعر يقول :

أيها النـــوَّام قومـــوا للفـــــلاح
واذكروا الله الذى أجـرى الريـاح
إن جيش الليـل قد ولَّـــى وراح
اشربوا عجلا فقـد جاء الصبـاح

وكان ابن نقطة (٥٩٧ هـ) يسحِّر الناس واخترع القوما لذلك ، وهو فن شعبى له تقاليده الفنية الخاصة .

وفى القرن الثامن الهجرى كانت القناديل التى تعلَّق فوق المآذن هى التى تحدد للناس مواعيد السحور والإمساك ، فإذا كانت مضاءة فإن موعد السحور باق ، وإذا أطفئت كان ذلك رمزا لأن الفجر قد اقترب .

وقد استمر المؤذنون يوقظون الناس للسحور .

كل هذه المظاهر من الحفاوة برمضان كانت ظاهرة فى مصر وفى كل أنحاء العالم العربى والإسلامى .

وفى الحرم المكى والحرم المدنى يتجمع الناس فى الحرمين قبيل المغرب يقرأون القرآن

ويطوفون ، ثم إذا ما أُذِّن للمغرب تناولوا التمر وبعض أنواع الحلوى والفاكهة ، ثم يصلون المغرب ، وبعد ذلك يجلسون حتى يصلوا العشاء وصلاة التراويح ، ثم ينصرفون إلى منازلهم . فيتناولون طعام العشاء .

ولا ننسى أن عمر بن الخطاب هو الذى جمع الناس لصلاة التراويح وأضاء محاريب المساجد فى رمضان ، رحمه الله ورضى عنه .

هذا قليل من كثير مما قلَّ نظيره عن رمضان فى هذه المناسبة العاجلة ، والله ولى التوفيق .

حقيقة سافرة

نهاية إسرائيل وتوسعها الباطل .. نهاية حتمية قررها القرآن الكريم وأكدها بما لا يعتريه الشك ، وحقيقة لا يقرب الريب إلى ما بين يديها ولا خلفها ..

فهذه الدولة القائمة على الغصب والجور والتدمير لا التعمير ، والتوسع إلى مالا نهاية ، دولة يهوذا الأخيرة لا بد أن تلقى مصيرها الحتمى ونهايتها التى لا مفر منها . نطق بذلك الكتاب الحكيم وهو أصدق الناطقين وأحكم العادلين وأعدل الحاكمين ..

يقول الله عز وجل فى كتابه الحكيم من سورة الإسراء :

﴿ لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا * فإذا جاء وعدا أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا * ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا * إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ..

فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا * عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا ﴾ . (٤ ـــ ١٨ الإسراء) .

القضاء : الحكم الفاصل القاطع الذى لا رجوع فيه .. وعدى الفعل « قضى » هنا بإلى وكان الأصل تعديته بعلى ، وذلك لأنه ضمن معنى « أنهى » أى انهينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب والكتاب قد يفسر هنا بمعنى أمر الله والقضاء الأزلى والقرآن ، ولكن تعدية « الفعل » « قضى » هنا بإلى تدل على أن المراد به التوراة ، والمعنى على هذا أن هذا الحكم الإلٰهى والقضاء السماوى قد ورد فى التوراة وبلغه الله إلى بنى إسرائيل على لسان نبيهم موسى عليه السلام . والقضاء الإلٰهى لا بد أن يكون لجرائم كثيرة وقعت من اليهود ، وقد كانت هذه الجرائم دامية وكثيرة كاثرة . وقد قص القرآن الكريم بعضها فقص الله عز وجل عليهم هذه الجرائم وبين لهم مصيرهم وما ينتظرهم من عذاب الله وعقابه الأليم فى الدنيا ، وأنزل بذلك آيات فى التوراة كانوا يقرأونها ثم أخفوها ومحوها من كتابهم ، ولقد اخفى رهبانهم

كثيرا من آيات التوراة وغيروا وبدلوا فيها الكثير من الأحكام كما يقول الله عز وجل فى سورة البقرة (آية ٧٥) :

﴿ افتطعمون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴾ .

وهذا الفريق هم أحبار اليهود وعلماؤهم ﴿ لتفسدن فى الأرض مرتين ﴾ .

الإفساد ضد الإصلاح ، وهو يشمل الهدم والتدمير والجور والنهب واغتصاب حقوق الناس وأموالهم وأعراضهم وحرياتهم إلى غير ذلك من ألوان الإفساد .. وإسناده إلى جماعة اليهود دليل على أنهم جميعا مشتركون فى الإفساد وأن الإفساد ليس بالأمر الذى يقع من جماعة منهم دون جماعة ومن فرد دون فرد ، بل هم كلهم سواء فى الإفساد ومفطورون عليه ، وهو أمر يقع منهم جميعا موقع العادة والشىء المألوف .

والأرض : المراد بها فلسطين فهى مسرح جرائمهم وأرض جرائرهم ، مثلوا فيها فى القديم أفظع فصولهم ومثلوا فيها كذلك فى الحديث أسوأ فظائعهم .

مرتين : أى مرة فى عصرين مختلفين .

ولتعلن : الفعل « علا » يراد به شدة الطغيان حينا كما فى قوله تعالى : ﴿ إن فرعون علا فى الأرض ﴾ .

ويراد به حينا آخر شدة التمكن .. والمراد به هنا المعنى الأول بدليل السياق وعطفه على الفعل « لتفسدن » .. ولو كان المراد به التمكن لقال الله عز وجل :

« ولتعلن علوا شديدا » مثلا أى لكان قد وصف العلو بالقوة أو الشدة ولم يوصف بالكبر . ﴿ فإذا جاء وعد أولاهما ﴾

أى فإذا جاء قضاء الله الموعود بمصير دولتكم فى المرة الأولى ﴿ بعثنا عليكم عبادا لنا ﴾ وهم نابوخذ نصر « بختنصر » وجيشه على أرجح الآراء .. وكلمة « لنا » هنا لا تفيد أنهم مسلمون ، ولو قال عز وجل عبادا من عبادنا لأفاد هذا التركيب ذلك المعنى .. ﴿ أولى بأس ﴾ أى قوة ﴿ شديد ﴾ « أى قوى .. »

﴿ فجاسوا خلال الديار ﴾ مشوا فيها ودخلوا خلالها غازين متسيطرين متسلطين يهدمون ما بنى بنو إسرائيل وكان وعدا قد وعدتم بحدوثه ﴿ مفعولا ﴾ واقعا لا مفر منه ، وهو على الحقيقة وعيد لا وعد لأن الوعد فى الخير والوعيد فى الشر . وأطلق هنا الوعد على الوعيد على سبيل التهكم ، وهذا هو الغزو البابلى الكبير لدولة بنى إسرائيل فى عهد الملك

البابلى بختنصر ، وقد دمر دولتهم وقتل منهم مئات الألوف وأسر منها كذلك ما لا يحصى من الرجال والنساء والأطفال .

﴿ ثم رددنا لكم الكرة عليهم ﴾ :

أى مضى زمن طويل عليكم تحت الحكم البابلى ثم انتهى زمن هذا التسليط وفك أسركم وعدتم إلى بلادكم وعادت الكرة لكم عليهم .

﴿ وأمددناكم بأموال وبنين ﴾ .

أى أمدكم الله بالأموال وهذا دليل على عودة الازدهار إلى حياتهم الاقتصادية ، كما امدكم بالبنين وهذا دليل على تكاثرهم وكثرة عددهم :

﴿ وجعلناكم أكثر نفيرا ﴾ أى نفرا وعددا ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾ هذا تأكيد من الله عز وجل بأن أعمال إسرائيل هى سبب حياتهم أو دمارهم ، فإن أحسنوا فلأنفسهم وإن أساءوا فعليها .. ولكنهم قوم مطبوعون على الإساءة والإفساد ، ومصيرهم دائما هو الدمار والهلاك . وهذا كالوعيد من الله لهم وهو وعيد بعد وعيد ، ولا يترك شكا فى مصيرهم ونهايتهم المحتومة ..

والتعبير بأن فى مقام الإحسان دليل على حصول الإحسان قليلا منهم ، والتعبير بها فى مقام الإساءة دليل على وقوعها منهم كثيرا واستعمال « إن » إنما هو للمشاكلة .

﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ﴾ : أى إذا جاء وعد الآخرة أى الثانية التى أوعدكم الله فيها بحدوث التدمير لكم ووقوع الهلاك عليكم .

﴿ ليسوءوا وجوهكم ﴾ أى سلطنا عليكم عبادا لنا فملكوكم وقهروكم وأذلوكم ، وإساءة الوجوه دليل الذلة والخزى والهوان .

﴿ وليدخلوا المسجد ﴾ أى الأقصى الذى تملكتموه فيأخذونه من أيديكم ويرفعون يدكم عنه ﴿ كما دخلوه أول مرة ﴾ .

أى كما دخله عباد لنا من قبل أول مرة .. ﴿ وليتبروا ﴾ أى ليدمروا والتتبير أشد أنواع التدمير والاهلاك ﴿ ما علوا ﴾ أى ما رفعوا من بنيان ﴿ تتبيرا ﴾ أى تدميرا وهدما .

﴿ عسى ربكم أن يرحمكم ﴾ أى يخفف من العذاب الذى سيقع بكم فلا يستأصلكم عبادنا استئصالا شديدا .

﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ أى إن عدتم إلى الطغيان والإفساد عدنا إلى هلاككم وتدميركم وإذلالكم .

﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا ﴾ أى فراشا ينامون عليه ، ويشوون به ويعذبون من فوقه .

إن طغيان بنى إسرائيل فى المرة الثانية هو الطغيان الماثل بيننا اليوم ، ونتيجته أن يدمروا تدميرا وأن يهلكوا إهلاكا وأن يذلوا ذلا لاذل مثله ، وأن تباد دولتهم ويهدم ما بنوا ويحيق بهم عذاب الله وغضبه وانتقامه .

الطغيان ماثل ، والنتيجة حتمية والنهاية واقعة ، وكل ما يصنعون فإلى تبار وهلاك ودمار .

ليس لبنى إسرائيل من دون الله وانتقامه وغضبه من واق ،وليس لهم من ولى ولا شفيع .

وهم الذين يقول الله فيهم :

﴿ ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا ﴾ .

أى وجدوا ﴿ إلا بحبل ﴾ أى عهد وموثق وحماية ﴿ من الله وحبل من الناس ﴾ أى من بعض الدول الكبرى كما هو حادث اليوم ﴿ وباءوا ﴾ أى رجعوا ﴿ بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ (١١٢ من سورة آل عمران) .

وبعد فقد أنعم الله على بنى إسرائيل فى الزمن القديم فأقام لهم دولة .. ولكنهم لم يشكروا الله ولم يسيروا بالعدل ولم يحافظوا على العهد ولا على السلام فدمرهم الله .

ثم أقام الله لهم دولة فى الزمن الحاضر ، ولكنهم رجعوا إلى طغيانهم وبغيهم وجورهم . وسيدمر الله دولتهم كما دمرها أول مرة وسيدخل عباد الله المسجد الأقصى كما دخله عباده من قبل أول مرة ، جزاء طغيانهم وبغيهم وجورهم وانتهاكهم للأعراض والحرمات والأموال والدماء ، وليس ذلك على الله بعزيز .

إن القرآن الكريم الصادق الوعد والوعيد شاهد على مصارع بنى إسرائيل ، وعلى نهاية عدوانهم ، وخاتمة دولتهم المحتومة المصير .

والله خير الحاكمين وأصدق الواعدين وأحكم العادلين .

إن نبوءة القرآن الكريم فى هذا المجال تغنى عن آراء كثير من فلاسفة الاجتماع والتاريخ المعاصرين الذين يتنبأون بنهاية إسرائيل دولة وتجمعا قائما على الجور والعدوان ، وقد كرر توينبى المؤرخ الإنجليزى تحذيره لإسرائيل وتوقعاته السيئة لها .

وليس من المعقول أن يستمر وجود دولة مكونة من أخلاط من الشعوب والأجناس ، ولا يضمها روح واحدة ولا مشاعر واحدة ولا فلسفة فكرية واحدة .

وقيامها على مبادئ من الصهيونية الباغية المتعصبة يجعلها قريبة من مصيرها المحتوم ، وأكثر دنوا من خاتمتها المؤكدة ولله عاقبة الأمور .

حضـارة المستقبل
هى
حضـارة الإسـلام

من أهم علوم العصر ، ما يطلق عليه اسم « علـم المستقبـل Futurology » الذى أخذ ينمو وينتشر بعد الحرب العالمية الثانية بخاصة ، وأصبح يتميز بصفته العلمية وأسلوبه المنطقى الاختبارى . على أن هذا العلم لم يظهر فى عالم العلوم فجأة ، وإنما جاء ليرث ميراثا طويلا فى تاريخ البشرية ينبع من نزعة أصيلة فى النفس الإنسانية هى « نزعة الاستطلاع والاستبصار والتحسب »[1] كما أنه يرتبط بالنمط التخيلى الذى يلعب دورا كبيرا ، فضلا عما أنتجه من أعمال أدبية تتجه إلى الغد راسمة صورة عالم مثالى يتحقق فيه . وتتصف هذه المحاولات الأدبية بالنزعة التى عرفت بـ « اليوتوبية » أو « الطوباوية » Utopian ، وهى كلمة مأخوذة من عنوان كتاب « يوتوبيا » Utopia الذى وضعه سير توماس مور Thomas More باللاتينية عام ١٥٠٦ وترجم للإنجليزية لأول مرة عام ١٥٥١ ، فغدا أصلا ونموذجا لمحاولات كثيرة تصور المجتمع الإنسانى الذى يسوده الخير والسعادة والكمال . وظهرت فى تاريخ الفكر الغربى مؤلفات عديدة من هذا النوع[2] .

على أن الخيال بحكم اقتصاره على عالم الأحلام والفنون ظل قرونا طويلة لا يمس الحقائق الاجتماعية والسياسية إلا مسا غير مباشر . أما اليوم وبعد أن تحالف مع العلوم الدقيقة ومع دقة الهندسة ، فقد « أشعل ثورة فى حركة الحياة كلها على هذا الكوكب . ولم يمض أكثر من ثلاثة أجيال حتى غير مجرى حياة الناس تغييرا جذريا لم يتحقق لهم على مدى ثلاثين جيلا »[3] .

وعلى ذلك أصبح يتعين على كل من يعنيه عالم الغد ، وما بعده ، ومدى ما سيكون أو ما يريده هو أن يكون ، أن يضع الخيال فى مرتبة عالية من سلم القيم ـــ وهذا رأى لا يجرؤ الكثيرون من علماء المستقبل على تأمله ، لأنهم ما يزالون

يجدون فى الخيال شكا — أو شيئا غير منطقى لا يمكن الاطمئنان إلى صحته ، شيئا غامضا لا مكان له فى التنبؤ العقلانى إلا إذا استؤنس النمر الذى يمرن على النفاذ فى الحلقات ، وإلا إذا تحول إلى طاقة تزود بها الآلة حتى تعمل(٤) .

وإذا كانت اللغة هى المتلاغين أنفسهم ، فإن أهم وظائفها التعبير عن الفكر ، ومنذ اختراع الكتابة وتسجيل الأفكار بها تمكن البشر من نقل تلك الأفكار عبر القرون ، وكانت نتيجتها هذه الحضارة المتقدمة(٥) . وقد اتخذ الباحثون على اختلافهم مواقف مختلفة من قضية اللغة والفكر ، فعلماء النفس من أتباع المدرسة السلوكية مثل جون واتسون **John Watson** كانوا لا يميزون بين اللغة والكلام ، واعتبروا التفكير نوعا من الكلام الداخلى (المنطوق) على مستوى الحنجرة فقط . ومن الناحية اللغوية أثبت « دوسوسير » و « تشومسكى » وغيرهما أن اللغة نظام تجريدى يشارك فيه أبناء المجتمع الواحد . ويذهب هردر **Herder** وهمبولت **Hambolt** وغيرهما فى أوربا ، وسابير **Sapir** فى أمريكا ، إلى أن للغة تأثيرا كبيرا على الطريقة التى يفكر بها أفراد المجتمع الذين يتكلمون تلك اللغة ، والتى تختلف عن طريقة أفراد مجتمع آخر يتكلمون لغة أخرى(٦) ، ولكن هؤلاء جميعا لم يوضحوا بشكل صريح آراءهم فى نوع العلاقة بين اللغة والفكر . أما صاحب النظرية الواضحة بالنسبة لهذه العلاقة فهو بنيامين لى وورف **Benjamin Leewhorf** الأمريكى تلميذ سابير «(٧)

وإذا ذهبنا مع « ورف » إلى أن اللغات المتباينة تعكس العالم الذى حولنا على نحو مختلف ، فإننا نستطيع أن نذهب كذلك إلى أن اللغة العربية قد عكست المستقبل على مرآة « الوعى » فيها ، كما عكست « الحاضر » و « الماضى ».وهذا الوعى بالمستقبل يتعلمه المرء منذ تعلمه اللغة فى طفولته المبكرة ، ذلك أنه يبدأ فى مرحلة مبكرة جدا من حياته فى إدراك العالم من خلال إطار لغة الأم ، ومهما كان العالم الذى حوله غنيا ومتنوعا فإنه لن يرى ويدرك إلا تلك الظواهر التى لها مسميات فى اللغة : إن لغة الأم تحلل لنا العالم وفق طريقتها الخاصة وتفرض علينا جميعا هذا الطراز من التحليل وإدراك العالم« أى تفصيله وتصنيفه إذا شئت » ، ويقول الألمان : « صوغ العالم فى كلمات «(٨) .

وفكرة وورف يمكن تلخيصها فيما يلى :

إن الناس لا يعيشون فقط عالم الأشياء الذى يحيط بهم وفى نطاق عالم الحياة الاجتماعية ، بل يعيشون أيضا فى نطاق عالم لغة الأم ، إنما نبنى العالم الذى يحيط بنا وفق

« عالم اللغة » ، وكل لغة على حد تعبيره هو تتضمن بالإضافة إلى مفرداتها وجهات نظر وأحكام مسبقة ضد وجهات نظر أخرى .

وليس هذا كل شيء .. إذ تخضع اللغات لأطوار من التغير منها تغيرات تطرأ على العالم الذى يحيط بمتكلمى تلك اللغة ، وكى نكون أكثر دقة وتحديدا نقول : يبقى العالم كما هو من الناحية الطبيعية المادية « الفيزيائية » ، ولكنه يصبح عالما آخر مغايرا فى الوعى البشرى(٩) .

خلاصة القول إن اللغات المختلفة تعكس العالم بطرق متباينة ، ويكتسب المرء لغة الأم منذ نعومة أظفاره ، ومن ثم يدرك العالم منذ طفولته المبكرة من خلال نفس منظار لغة الأم ، ومن هنا زعم وورف أننا أسرى اللفظ . إننا ندرك قوانين لغة الأم منذ طفولتنا المبكرة على نحو تلقائى ، أى بطريقة غير واعية ، ونحن نكتسب لغة الأم ونكتسب معها وفى نفس الوقت وبطريقة غير واعية أسلوبا نوعيا ومتميزا للتفكير كما نكتسب « ميتافيزيقا » باطنية خافية(١٠) .

واللغات تتباين من حيث قواعد النحو والصرف الخاصة بكل منها ، ولكن ربما يرجع أهم مظاهر التباين بينها إلى الطريقة التى تحلل بها اللغة العالم إلى عناصر عن طريق الكلمات (وهو نوع من التحليل القاموسى) ، وعلى هذا الفهم فإننا نستطيع أن ندرك بوضوح الوعى بالمستقبل فى اللغة العربية بناء على أن اللغة هى المتلاغون أنفسهم ، فإن ذلك يعنى بالضرورة أن تكون اللغة هى قوام إنسانيتنا ، وهى على ذلك من أكبر الأدوات لتحقيق الشخصية الإنسانية مفردة وجماعية ، كما أنها ـــ أى اللغة ـــ حين تقترن بالفكر ، حيث يفكر المرء باللغة ، تتضمن فى أعطافها رؤى الإنسان ، وعلى ذلك فإن الصلة بين اللغة والزمن تعكس رؤى المتلاغين ، والطابع الأغلب على هذه الرؤى هل هو طابع « أمس » أو أنه طابع « مستقبلى » .

وتأسيسا على هذا الفهم فإننا نذهب بداءة إلى أن اللغة العربية تتضمن فى أعطافها رؤيا مستقبلية ، وهى لذلك من أكثر اللغات الإنسانية وعيا بمقتضيات المستقبل وضروراته . نجد ذلك فى حروف الاستقبال بها ، وهى الحروف التى تدخل على الفعل المضارع فتجعله فعلا مستقبليا ، كما نجد فى السين وسوف « فى حالة الإثبات » ولن « فى حالة النفى » .

كما نجد ذلك فى اشتقاق كلمتى « المستقبل » و « المستقبلية » من ألفاظ العربية ف ـــ ق ـــ ب ـــ ل ـــ قبلك حق ، وأصبت هذا من قبلك أى من جهتك وتلقائك ، ولقيته

قبلا وقبلا وقبلا : مواجهة وعيانا ، وافعل ذلك لعشر من ذى قبل وقبل : من وقت مستقبل . واقتبل الأمر واستقبله : استأنفه ، وتقابلوا واقتبلوا ، أقبل الأمر وقبل ، وأخذ الأمر بقوابله . و « القبال » من كل شىء : أوله وما استقبلك منه ، ومن ذى قبل : « فى المستقبل » ، يقال أفعل ذلك من ذى قبل : فيما أستقبل ، وأفعل ذلك من ذى قبل : فيما نستقبل ، ويقال : لا أكلمك إلى عشر من ذى قبل .إلى عشر فيما استقبل من الأيام(١١) .

وما قدمنا من استهلال لغوى يوضح احتفال العربية بالمستقبل وحروف الاستقبال على النحو الذى يجعلنا نذهب إلى أن الوعى بالمستقبل غير مفتقد فى لغتنا العربية التى نعتبرها قوام شخصيتنا العربية . وقد شاع بين « اللغويين » المختصين بدراسة تواريخ الألسنة فى الغـرب ، أن اللغات السامية ناقصة فى دلالة الأفعال على الأزمنة ، ومنها اللغة العربية على تفاوت بينها وبين الفروع الأخرى من الأرومة المشهورة باسم اللسان السامى ، أو لسان الساميين . وربما ساغ هذا القول عن اللغة العربية فى عقول المتعجلين من مصدقيه على حد تعبير العقاد ــ لأنهم توهموا أن هذه اللغة نشأت على صحراء خاوية لا قيمة للوقت عند أهلها ، فلا جرم تخلو من التوقيت الدقيق فى تمييز الأفعال والأحداث »(١٢) .

ويضيف العقاد أن هذا الوهم لا يثبت على نظرة محققة فى التاريخ ، ولا فى اللغة ، ولا نحسب أن لغة نفهمها ــ أو نفهم عنها ــ قد اشتملت على وسائل للتمييز بين الأوقات كما اشتملت عليها اللغة العربية ، سواء نظرنا إلى ضرورات سكانها أو نظرنا إلى تصريف أفعالها وكلماتها . فكل لحظة من لحظات النهار والليل قد كان لها شأنها فى حياة سكان البادية بين السفر والإقامة والحل والترحال ، فمنها ما هو صالح لبدء المسير وما هو صالح للراحة القصيرة ، وما هو صالح للراحة الطويلة ، وما ليس يصلح لغير السكينة والاستقرار. ولهذا وجدت كلمات البكرة والضحى أو الغدوة والظهيرة ، والقائلة والعصر ، والأصيل والمغرب ، والعشاء والهزيع الأول. من الليل والهزيع الأوسط والموهن والسحروالفجر والشروق .. ويكاد التقسيم على هذا النحو أن ينحصر بالساعات على صعوبة التفرقة بين هذه الأوقات فى كثير من اللغات الأخرى بغير الجمل والتراكيب »(١٣) .

ولقد توصل العالم الأمريكى تشارلس هوكت Charles Hocket إلى حصر ست عشرة صفة مميزة للغة الإنسانية(١٤) ، ومن أكثر هذه الصفات وضوحا أن الإنسان يستخدم الجهاز الصوتى للحديث والجهاز السمعى للاستماع إليها ، كما أن أصوات المفـردات

لا تدل على معانيها ، أى أنه ليست هناك صلة مباشرة بين كلمة « رجل » مثلا والمدلول الذى تدل عليه الكلمة ، ومفردات لغة الإنسان تستطيع أن تشير إلى أشياء محسوسة فى عالم الواقع ، كما يمكنها أن تشير إلى الأفعال التى يؤديها الإنسان أو غيره من المخلوقات ، وبإمكانها أيضا أن تعبر عن الأفكار الذهنية المجردة ، بالإضافة إلى ذلك فإن فى مقدور الإنسان مثلا أن يعمم الاسم مثلا على جميع الأشياء المتشابهة فى الجوهر المختلفة فى التفاصيل(١٥) .

وهناك خاصية أخرى تسمى بالازدواجية ، ومعناها أن الأصوات المنفردة فى اللغة الإنسانية لا معنى لها بحد ذاتها ، كحروف الصاد والهاء والفاء مثلا ، إلا أنها عندما تركب بشكل معين فتتولد عنها كلمة « صيف » مثلا يصبح لها معنى وإن كان هذا المعنى اصطلاحا لا طبيعة(١٦) .

غير أن الصفة التى تعنينا هنا ـــ وتبدو أهم من سابقاتها ـــ هى أن اللغة الإنسانية فى مقدورها أن تشير إلى أشياء وأحداث بعيدة عن المتكلم ، زمانا ومكانا ، فيمكن الإشارة إلى أشياء غير موجودة فى المحيط القريب ، وغير منظورة أو ملموسة أو مسموعة أو محسوسة ، ويمكن أن تبعد آلاف بل ملايين الأميال عن مكان المتكلم . كما أن اللغة يمكن أن تشير عن طريق الأفعال إلى الزمن الماضى أو المستقبل غير المنظور(١٧) .

وهذه الصفة من أهم الصفات التى تتميز بها اللغة العربية ، فوجدت فيها كلمة اليوم والنهار والليل . ولم تنقسم إلى يوم وليل دون تفرقة بين معنى اليوم ومعنى النهار ، بل لهذا وجدت للأوقات كلمات مختلفة على حسب الطول والقصر فى المدة ، فالمدة شاملة لجميع المقادير من امتداد الزمن ، وتنطوى فيها اللحظة أو اللمحة للوقت القصير ، والبرهة والردح للوقت الطويل ، والفترة للمدة المعترضة بين وقتين ، بل وجد فيها الحين للزمن المقصود المعين ، والعهد للزمن المعهود المقترن بمناسباته ، والزمن للدلالة على جنس الوقت كيفما كان ، والدهر للمدة المحيطة بجميع الأزمنة والعهود والأحيان(١٨) .

ويذهب العقاد إلى أن « مثل هذا الإحساس بالزمن لا تصوره الكلمات فى لغة من اللغات التى نفهمها أو نفهم عنها ، على صورة أدق من هذه الصورة ، ولا أدل على الفوارق بين أجزائها ، ولا غرابة فى ذلك لو أراد الباحثون أن يلتمسوا السبب الذى يبطل العجب ، فإن الزمن الماضى « مهم » عند أبناء البادية العربية فى كل عهد من عهوده ، لأنه مستودع المفاخر ، والأنساب والغارات ، والسوابق والذكريات ، وليس من المصادفة أن يسمى

التاريخ هنا باسم الأيام ، وأن يعرف لكل يوم أثره فيما كان وما يكون »(١٩) ، وليس من الطبيعى أن يبلغ إحساس قوم بالوقت هذا المبلغ ثم يخلو كلامهم من الدلالة على الإحساس به فى مختلف مواضعه ومناسباته . والواقع أن اللغة العربية تستوفى هذه الدلالة بأسلوبيها المعروفين فى اللغات ، ونعنى بهذين الأسلوبين أسلوب الكلمات المستفادة من التصريف والاشتقاق أو من الأدوات المصطلح على تخصيصها لمعانيها ، وأسلوب التعبيرات التى تدخل فى عداد الجمل والتراكيب ، ومن الأسلوب الأول الصيغ التى تأتى من تصريف الفعل للدلالة على المستقبل الإنشائى كفعل الأمر ، فإنه فى اللغة العربية مخصص بصيغتين لهذا المعنى بغير لبس فى الزمن ولا فى الفاعل ، فيقول العربى : اكتب ، ويفهم من ذلك أن الكتابة مطلوبة للمستقبل غير حاصلة حتما . فإذا عبر المتكلم بالإنجليزية عن هذا الفعل فترجمة « اكتب » فيها كلمة Write وهى تدل على مجرد الكتابة بغير زمن محدود ، ولا تتخصص لمعنى الأمر إلا إذا قيل Do write أو You should write ، ويندر فى اللغات الغربية ما يشتمل على تخصيص أدق من هذا التعميم(٢٠) .

أما الأسلوب الآخر — وهو أسلوب الدلالة على الزمن والتعبيرات التى تدخل فى عداد الجمل والتراكيب — فكل ما أمكن التعبير عنه بهذا الأسلوب فى لغة من اللغات فهو ممكن فى اللغة العربية فى سهولة — كسهولتها أو أسهل منها .

« فقد ينسب القول مثلا إلى أحد من الناس كأنه عادة كان يأتى بها فى غير زمن محدود ، فيقول المتكلم بالإنجليزية He was always saying, He used to say ، ويقول العربى : إنه كان يقول ، أو أنه تعود أن يقول ، أو أنه طالما قال . ولا تختلف العبارتان فى صحة الدلالة ولا فى التحديد الزمنى ولا فى الإطلاق من هذا التحديد ولا فى الإطالة والإيجاز » .

وننظر إلى « الأفعال من وجهة الأجرومية فنرى أن أوضاعها فى اللغة العربية أدل على التطور والارتقاء من لغات أخرى تحسب فى طليعة اللغات دقة وأداء للمعانى الذهنية(٢١) .

والقرائن التى تكشف عن ذلك كثيرة : فمن علامات التطور فى اللغة العربية « أن الفعل الماضى فيها هو الأصل ، ويأتى الفعل المضارع بالتصريف ... وفى لغات أخرى من أرق اللغات يشيع استعمال المضارع « أولا » ويأخذون منه الماضى بإضافة حرف أو مقطع أو تغيير الصيغة»(٢٢) .

« فالإنسان البدائى يتكلم كأنه يصور على الطريقة الهيروغليفية ، فيرسم الحاضر المشاهد فى أثناء العمل ، ويريد أن يعبر عن الكتابة فيرسم إنسانا فى أثناء عمل الكتابة ، أى فى الزمن الحاضر المضارع للرؤية ، فإذا أراد أن يعبر عن الماضى أضاف إلى الصورة علامة تدل على حدوثها فيما مضى ، أو أضاف إليها صورا تتم معناها بما يفهم منه مفادها إلى وقت مضى ؛ ولكن اللغة العربية تغلب فيها صيغة الماضى ويؤخذ منها المضارع بحرف يدخل عليها ، وإنما تتم غلبة الصيغة الماضية بتطور يتدرج فى الارتقاء حتى تستقر الصيغتان — صيغة الماضى وصيغة المضارع — على هذا التقسيم »[٢٣] .

ومن علامات التطور فى اللغة العربية أن تكون التفرقة بين الزمنين فيها فلسفية منطقية ، فضلا عن التفرقة النحوية .

ففى كثير من اللغات المعدودة من أرقى اللغات ينقسم الفعل إلى ماض وحاضر ومستقبل[٢٤] **Past, Present and Future** .

على حين أن « الحاضر شيء تبحث عنه فلا تجده ، أو تجده على الدوام متصلا بالاستقبال لا ينفصل عنه لحظة من أقصر اللحظات ، لأنه ما من لحظة مهما تنقص إلا وهى كافية أن تجعله فى حكم ما كان وليس هو حاضرا الآن »[٢٥] .

وهذا الفارق الدقيق ملحوظ فى « تقسيم الأفعال العربية ، لأنها ماض ومضارع يدل على الحال متصلا بالاستقبال ، ولا يكون الفعل إلا للحال والاستقبال ، أو يكون الزمن فيه مضارعا للزمن السائر الذى لا يستقر على قرار »[٢٦] .

وقد فطن لهذه الحقيقة عالم من أقدر علماء الأجروميات والمباحث اللسانية ، ففى كتاب أصول الأجرومية الإنجليزية لمؤلفه الدكتور « أوتو جسبرسن **Jespersen**» يقول هذا الباحث المحقق : « إن الأصح — أن نحسب أن الزمن ينقسم إلى جزأين ماض ومستقبل ، وبينهما حد الانفصال وقد حاضر كأنه النقطة الهندسية التى لا طول لها ولا عرض ولا ارتفاع ولكنها على الدوام منصوبة إلى المستقبل »[٢٧] .

وهذه التفرقة الفلسفية المنطقية ملحوظة فى التفرقة الأجرومية بين الحاضر والمستقبل فى لغة العرب . « فإذا أراد المتكلم أن يذكر المستقبل بشتى معانيه فهو موجود بمعنى الاستمرار ، وبمعنى الدلالة على ما يأتى ، وبمعنى الإنشاء ، واستحداث الفعل على الطلب . فصيغة المضارع تدل على الحال والاستقبال ، وصيغة المضارع مسبوقة بالسين تدل على المستقبل القريب ، ومسبوقة بـ« سوف » تدل على المستقبل البعيد »[٢٨] .

وصيغة الأمر تدل على فعل مطلوب فى المستقبل ، يقترن بالزمن عند حصوله : أمرته ففعل . وهذه المجاوبة بين طلب الفعل وحدوثه مألوفة فى اللغة العربية تتمثل فى أفعال المطاوعة التى لا نظير لها فى كثير من اللغات : فإذا وقع الحدث فى الزمن فله صيغ متعددة تؤكد هذا التحقق كما يقال : أمرته فأتمر ، ورسمته فارتسم ، وقطعته فانقطع ، وكسرته فانكسر(٢٩) .

ومن قبيل هذه التوكيدات للحدوث أو طلب الحدوث فى الزمن « دلالة المفعول المطلق حين نقول : فعلته فعلا ، وصنعته صُنعا ، إلى أشباه ذلك فى مواضعه ودواعيه من التصوير والتوكيد .

« ومن علامات التطور أفعال الدعاء والرجاء . فإنها فى هذه اللغة العربية غاية فى الدقة تحسب من قبيل التمييز المنطقى أو الفلسفى فى هذا الباب »(٣٠) .

فالمعنى غالب على اللفظ فى « أفعال الدعاء والرجاء » ، يقول القائل : « صحبتك السلامة » و « حفظك الله » و « رعاك الله » ... ومن آية القصد فى اللغة ألا يحتاج الفعل هنا إلى النقل من صيغة الماضى إلى الحاضر ، لأن المعنى بالبداهة معلق بالاستقبال وفى بقائه على صيغة الماضى ما يشعر بقوة الأمل فى الاستجابة ، كأن ما يُرجى أن يكون قد كان وأصبح من المحقق المستجاب . ولا شك أن هذا المعنى مقصود لأنه لم يأت عن عجز فى اللغة ، ولا يمتنع على قائل أن ينقله إلى صيغة المضارع إذا شاء »(٣١) .

تلك صفحة الزمن فى لغتنا العربية تكشف عن « حضور الوعى بالمستقبل » .. ولغتنا العربية ثمرة اجتماعية فى آن واحد تصله بغيره آحادا وقبيلا ، وما من مجتمع متجانس إلا وكانت لغته الخاصة هى العروة الوثقى بين عناصره وأفراده . وضعف هذه اللغة يشير بذاته إلى ضعف المجتمع الذى يصطنعها ، وإذا عجز مجتمع من المجتمعات عن الملاءمة بينه وبين البيئة التى استقر فيها وبين الحياة حوله ، وأصابته الشيخوخة فإن لغته تشيخ هى الأخرى ، وكما يفنى هذا المجتمع فى غيره تفنى لغته فى لغة أخرى ، وإذا تحول عن بيئته الأولى إلى بيئة ثانية واستقرت فيها أجياله زمانا فإن لغته تأخذ من بيئته الجديدة خصائص جديدة وإن بقيت حروف من بيئته الأولى تستعمل إلى حين ، وإذا نهض المجتمع وتكاثرت عناصره واتسعت الرقعة التى يعيش فيها ، قويت لغته واتسعت وغلبت هى على ما كان قبلها »(٣٢) .

وبما أن اللغة والفكر بأوسع معانيه شيء واحد ، فإنها تزعم كذلك حضور الوعى

المستقبلى فى الفكر العربى ، لأن المرء يفكر باللغة ، واللغة لا تنفصل عن الفكر بحال من الأحوال ، ولعل فى ذلك ما ينفى ما ذهب إليه البعض من « افتقاد الوعى بالمستقبل لدى الفكر العربى » . ويستندون فى ذلك إلى أن من سمات هذا الفكر « التيه بالتاريخ ، وتغليب السوابق فى الأحكام ، وقياس كل مستحدث بما هو حادث » .

وإذا كان « الوعى » يمثل مؤشرا علميا للتعرف على حقيقة هذا القول فى اللغة العربية ، وعاء العقل العربى .. فإن السؤال المبدئى هنا يمكن أن يصاغ على هذا النحو :

ـــ هل تتوقف نظرتنا إلى « الوعى » على اللغة التى نستخدمها ؟ وإذا كان الأمر كذلك فما هى أشكال هذه العلاقة ؟ وهل تشير إلى وجود « الوعى المستقبلى » فى اللغة العربية ، ولدى العقل العربى بالتالى ؟

إن تحليل مضمون مصطلح « الوعى » يبين أنه :

١ ـــ شكل معين لعملية عقلية مميزة للإنسان ، يمثل استخدام اللغة إحدى خصائصها ، وبهذا المعنى يكون الإنسان واعيا دائما .

٢ ـــ نشاط حقيقى كامن فى العمليات العقلية يوجد لدى الحيوانات بدرجة مختلفة تماما ، ولهذا الشكل من الوعى دلالة بيولوجية فى أنه يرتبط بعمل المثيرات الخارجية وبالاستجابات السوية للأورجانزم . وبهذا المعنى يختلف الإنسان الواعى عن الإنسان فى حالة النوم ، وعى الإنسان المريض عقليا ، فالوعى الذى يعتبر حالة أرقى للأورجانزم ـــ قد يتعرض للانطفاء والضياع .

٣ ـــ قد تقوم اللغات التى تستخدم مصطلح « وعى » بالمعانى التى وردت فى (١) وفى (٢) بإدراج التصورين فى مبدأ واحد ، فالإنسان المتمتع بالوعى (١) ينبغى أن يسعى لكى يصل إلى حالة الوعى (٢) فى علاقته بقدرته الخاصة من ناحية وبالمجتمع الكلى لعلاقاته القائمة بالعالم من ناحية أخرى . ويخلق هذا المعنى الأخير تصورا من الدرجة الثانية للوعى على أنه إرادة الوعى ، فالإنسان واع لأنه ينشد أن يكون.وهنا يتداخل الوعى مع التصور الآخر الذى يعتبر تصورا أساسيا بالنسبة للإنسان ، وهو المعرفة ، فالوعى (٢) هو الشكل الأكثر تركيبا للمعرفة التى يمكن أن نجدها فى الإنسان ، ألا وهى معرفة ذات الشخص العارف .

وينبغى التحقق من أن مصطلح « وعى » فى اللغات الأوربية الحديثة مدين « للعبقرية » اللغوية للغات الكلاسيكية **Conscientia** وباللاتينية **Synsidésis** باليونانية .

وقد يبدو من المجدى أن يستبين التحليل اللغوى هذه التكوينات الاسمية . ففى اللغة اللاتينية على سبيل المثال يستخدم « الوعى » **Conscientia** كتعبير مكافئ « للأشياء التى تكون معروفة ... » (أو فى اللغة اليونانية « عارف بـ ... ») ، أو يقول آخر : المعرفة التى تكون متضمنة فى أى شكل معين للمعرفة ، تلك التى تكون ضرورية لكل ما هو معروف .

وفى اللغة العربية يستخدم مصطلح « الوعى » مع « العلم » « وعيت العلم وعيا ﴿ وتعيها أذن واعية ﴾ ولفلان عين واعية ، وأذن واعية ، وأوعيت المتاع .

ويقال : سمعت واعية القوم : أصواتهم(٣٣) ، وفى المعجم الوسيط « الوعى » « الفهم وسلامة الإدراك ، يكون فى الفرد والجماعة : والوعى : الفقيه الحافظ الكيِّس »(٣٤) ، وفى معجم ألفاظ القرآن الكريم : « وعى الحديث والخبر يعيه وعيا : حفظه وتدبره ، والوصف واع وواعية »(٣٥) .

قال تعالى : ﴿ لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ﴾ (١٢/الحاقة) ، أوعى الشيء يوعيه : حفظه ووضعه فى صوان له ، ويقال : هو يوعى المال : يكنزه ولا ينفق منه فى وجوه البر . ويقال : إن المنافق يوعى فى صدره الكفر والنفاق : يضمره ويكنه .

قال تعالى : ﴿ تدعوا من أدبر وتولى وجمع فأوعى ﴾ (١٨ / المعارج) . وقال سبحانه وتعالى : ﴿ بل الذين كفروا يكذبون والله أعلم ما يوعون ﴾ (٢٣ / الانشقاق) .

والوعاء : الظرف يوعى فيه الشيء ويصان ويحفظ . والجمع أوعيه . قال تعالى ﴿ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ﴾ (٧٦ « مكرر » / يوسف) .

وهذا التأكيد على مصطلح « الوعى » فى اللغة العربية قوى بدرجة يمكن معها أن يتضمن بذاته فى عناصر تحليل مضمون « الوعى »(١) و (٢) و (٣) إلى حد كبير ، فاللغة العربية تؤكد على ملكة الوعى ، وعمله ، ومعرفة الذات .

« وإذا حاولنا أن نضاهى بين اللغة والوعى فإن ثمة شيئين يوجهان انتباهنا : (أ) تبدو اللغة والوعى فى علاقتهما بالحياة على أنهما الوسط الإنسانى المباشر ، نفس خاصية الظاهرة اللاحقة ، (ب) من الممكن أن نتكلم فى كلتا الحالتين عن معلومات جديدة تسهم داخل إطار العالم الذى يمكن إدراكه كتركيب إحصائى .

ومن المهم أن نلاحظ نقص نجاح المحاولات لتعيين موضوع الوعى فى منطقه معينة من المخ . فقد اعتبر الوعى مكافئا « للعمليات العقلية الإنسانية » ، حتى ولو كان سندها المادى يختلف عما لدى الحيوانات الأخرى ، إلا أنه لا يمكن اختزاله إلى هذا الاختلاف .

فمن ناحية ميدان اللغة ، كما لاحظ أرسطو بالفعل ، ليس للكلمة المنطوقة عضو ، أو منطقة بالمخ خاصة بها ، وإنما تفيد من أعضاء أو مناطق الإحساس بالمسمع والتذوق الّتى لها وظائف مختلفة . وفى حاله المخ يمكن أن تتأثر مناطق الوظائف المختلفة بدرجة هائلة بظاهرة الوعى التى لا تتموضع فى أى منطقة منها . فالوعى كحضور للذات مثل اللغة ليس ناتجا **Eryzengtes** كما يذهب فون همبولت ، ولكنه فى المقام الأول إنتاج **Eryzeugung** حيث تتقارب مصادر منفصلة متعددة فى عمل واحد للوعى .

« فالمشكلة الأساسية بالنسبة لكلتا اللغة والوعى تتمثل فى قدرتهما على تناول عدد غير محدود من المواقف ، حيث يواجه الإنسان ببيانات حسية محدودة بصفة مستمرة يكون فيها قادرا على خلق تعبيرات جديدة . وتكمن هذه الملاحظة وراء نظريه كومسكى عن النحو التحولى الذى يقابل « الأداء » اللغوى (تحقيق عمل اللغة) والإتقان اللغوى المقدرة الإنسانية على تجريد التركيبات اللغوية الذى يجعل الاتصال الكلامى ممكنا . وبالنسبة لكوسكى تعتبر الوظيفة الأخيرة ذات اهتمام مباشر لعلم اللغة لأن « الأداء » يتوقف للغاية على الاختلافات الفردية المتعلقة بالشخص أو بالظروف . إلا أن الأداء لا يتغاضى عنه فى علم اللغة ، ولكنه لا يحتل إلا موقعا وسطا يعمل منه كملجأ أخير فحسب ، إذا كان ثمة جانب للكلمة المنطوقة لا يمكن تفسيره تماما على أساس « الكفاية » .

« وإذا واصلنا عقد المشابهة بين اللغة والوعى ، نلاحظ أنه يوجد فى السلوك الإنسانى جانب ثابت نسبيا « كفاية » للفعل أو العمل ، مستقل عن الأفعال الخاصة التى يمكن مقارنتها بالمصطلح الكلاسيكى « لعلم الأخلاق » (**Ethike**) باللغة اليونانية . ومن الواضح أن الفعل ، وعلى وجه الخصوص فعل أو عمل التعرف ، ينبغى أن يسبق « بمعرفة كيف يفعل » ، ربط الأفعال الماضية والتخطى للأفعال المستقبلة . فلا يوجد علم بدون وعى بالمعنى السليم (رقم ١ من قبل) . المعرفة بذات العارف ، وهذا أمر جلى تماما .. جلى وشائع حقا لتجنب الملاحظة ، ولكن إذا أردنا أن نذهب إلى ما هو أبعد من هذا ، نستطيع أن نقرر أن مضمون العلم ليس له قيمة فى حد ذاته ، بل ينبغى أن يرتبط من هذا

باستمرار بشكل العلم ـــ الفهم بواسطة الشكل الذى ينتج بالضرورة علما من العلوم : الارتقاء الداخلى والضرورة الإنسانية »(٣٦) .

وإذا كانت لغتنا العربية تشير إلى « حضور الوعى بالمستقبل » فإن حياة العرب الفكرية قد حفلت بإشاعات فى الفكر المستقبلى ككتابات أبى العلاء المعرى ، وزياد الحريرى ، وتوفيق الحكيم . وهذا « الوعى بالمستقبل » فى لغتنا العربية أوضح ما يكون فى الأدب الجاهلى ، الذى يشبهه الدكتور ناصف « بالبؤرة التى انصهر فيها الأدب العربى »(٣٧) . فالأدب الجاهلى ـــ كما يقول ـــ ليس لحظات عابرة فى حياة الأدب العربى ، وليس عصرا من عصوره . الأدب الجاهلى حقبة مهمة ـــ على أقل تقدير ـــ فى حياة الأدب العربى . نشأ الأدب العربى من ذلك الأدب الجاهلى ونمت الشجرة وترعرعت لكن جذورها ثابتة فى تربة الأدب الجاهلى »(٣٨) .

وأول مظاهر هذا « الوعى » فى الأدب الجاهلى ، هو توحد اللغة الأدبية كنتيجة لنمو الإحساس الاجتماعى عند القبائل العربية ، ورغبتها فى الامتزاج الوجدانى . وترك ذلك أثره فى تقارب اللغة الأدبية وسعيها المتواصل نحو الوحدة ، فكل ما بين أيدينا من الشعر ذو قواعد إعرابية واضحة متجانسة ، كما يبدو أن معجم اللغة الأدبية معجم واحد كالمتفق عليه . حقا إن قبائل العرب اختلفت منازلها ، وتباعدت ، وتقاربت ديارها ، ولكن ذلك كله لم يكن يعنى أكثر من اختلاف بعض اللهجات ، أما لغة الشعر فكانت فى نظر العرب هى شعار التلاقى ، وهى التعبير الواضح عن إحساس العربى بعروبته ، وهى التجسيد العملى لحلم ساكن الجزيرة فى أن يحيا حياة ناضجة »(٣٩) .

ويذهب الدكتور ناصف إلى أن هذه الظاهرة تشير إلى مغزى اجتماعى ، يتمثل فى سقوط لغات كثيرة فى الطريق حتى تحقق الظفر « لهذه الصورة الأخيرة التى ورثناها وخيل إلينا أنها كانت موجودة منذ البدء » وعلامات هذا الشعور الاجتماعى كثيرة فى العصر الجاهلى ، ولعلك سمعت فى مناسبات غير قليلة أن العرب عرفوا ما يسمى بالأسواق . والأسواق ظاهرة اقتصادية واجتماعية وأدبية ، فهى ظاهرة اقتصادية لأنها تقوم على تبادل التجارة ، وهى ظاهرة اجتماعية لأنها تنمى ضروبا من العادات أو الشعائر ، وهى ظاهرة أدبية تعتبر من بعض الوجوه ثمرة لهذا الازدهار الاقتصادى الذى عرفته بعض أرجاء الجزيرة قبل الإسلام(٤٠)

وهناك مظهر آخر يشير إلى الوعى بالمستقبل فى الأدب الجاهلى ، حيث نجد احتفال

الشعراء ببعث الماضى ، وذكر الدمن والأطلال والرسوم والعلامات الأولى فى الطريق :
« لا بدء إلا من الماضى ولا خطاب فى مشغلة من المشاغل إلا إذا قام أولا على وظيفة التذكر . ويصبح التذكر فريضة مهمة لا يستطيع أن يفرط فيها إنسان .

لا شعر لمن لا ذاكرة له ، ولا يستسيغ المجتمع معنى الشعر والمعرفة إلا مقرونا بالتذكر . والتذكر — بهذه الوسيلة — يصبح شعيرة من الشعائر »(٤١) .

وإذا كانت الأفكار الجديدة فى عصرنا عن علاقات الإنسان ببنى جنسه لم تلبث أن تمخضت عن مفاهيم جديدة لماضيه ، ولما يمكن أن يكون عليه مستقبله ، فإن « الذاكرة » فى الأدب الجاهلى حية نشيطة ، يبعث على نشاطها ما نسميه الدمن والآثار . وكل شىء عند الشاعر الجاهلى ينبض بروعة التذكر وقدسية الذاكرة . لدينا باستمرار أماكن من مثل الدراج والمتثلم والترقمين وسقط اللوى والدخول وحومل والغول والرجام وأماكن أخرى كثيرة . وكأن الشاعر مشغول بأن يستوعب فى ذاكرته الجزيرة »(٤٢) .

إن الديار تذكر بكثرة فى الشعر الجاهلى ، ومعنى ذلك كما يقول الدكتور ناصف أن :
« الشاعر يريد أن يحتضن كل محل ومقام ، وأن يتذكر كل علاقة . إن المكان الواحد هو علاقة واحدة أو هو تجارب محدودة أو هو فردية ضيقة. أما الشاعر الجاهلى فيستوعب أماكن كثيرة يضمها — جميعا — فى نسق واحد . هذا النسق لا يمكن أن يكون فرديا ، فالجزيرة كلها تستوعب وتنبض(٤٣) . ويقول الدكتور ناصف إنه انتقل إلى هذا الاستنتاج « بدءا من الوقوف عند فكرة الظاهرة المشتركة المتصلة بلا شعور المجتمع . والذى يقرأ الشعر الجاهلى يجد الشاعر — باستمرار — كالذى يشعل النار أو النشاط فى كل مكان ، ويصبح المكان جذوة من اللهب . لا شىء يصبح منسيا أو مهملا أو مكبوتا مضيعا ، لقد بدا الشاعر معلما يلقن المجتمع بطريقته الغامضة أهم درس وأعمقه ، فالجزيرة متناثرة فى رأى العين ، ولكنها مجتمعة مؤلفة فى ذهن الشاعر . والعقل الخالق هو الذى يستطيع أن يحول هذه (المواد) المبعثرة المفككة إلى نظام واحد ونسيج ذى قوام » .

ويعقب الدكتور ناصف على هذه الظاهرة التى يبدو لنا فيها لأول وهلة أن الماضى انتهى وأصبح جزءا لا يعود : « أن هذا غير حقيقى ، فالشاعر حينما ينهض لكى يتذكر الأطلال يجد الماضى حيا لا يزول . ذاكرة المجتمع كما يراها الشاعر — قوية حساسة ، وبعبارة أخرى أن الشاعر موكل من قبل المجتمع فى الاحتفال المستمر ببعث الماضى . وكأنما المجتمع الجاهلى كله يقوم بشعائر واحدة ، وكأنما يشارك أفراده جميعا فى صلاة واحدة ، كأنما يرتلون على

الدوام أغنية الماضى ، فالماضى فى ذهن المجتمع حى لا يموت . ومن أكثر الأشياء بعثا للتأمل حرص جماعة معينة هى الجماعة العربية قبل الإسلام على التذكر ، واعتبار هذا التذكر نقطة بدء كل تأمل ومبتدأ كل رغبة من الرغبات »(٤٤) .

ويذهب الدكتور ناصف من هذا التحليل إلى أن الماضى ليس جزءا من الزمان يأسى المرء على فقدانه ، ولكن هناك صورا متكررة ذات دلالة على الوعى بالمستقبل ، مثل ، فالوشم صورة مجددة وليس صورة بالية . وكلما عرض لها البلى أتيح لها أن تنبعث ، وأن تتجدد . وهذا الوشم ليس أمرا موقوفا على شاعر دون شاعر ، فهو جزء من الميراث الذى وجدنا الشعراء يحتفلون به غاية الاحتفال . ألم تر لبيد يقول :

أو رجع واشمة أسف نئورها كففا تعرض فوقهن وشامها

« فهنا أيضا شبه الأطلال — كما يقال — بعد دروسها بتجديد الوشم ، وعادت الأطلال كما عاد الوشم . وإلى جانب هذه الصورة الشائعة صور أخرى لا تقل أهمية عنها يتداولها الشعراء أيضا . من هذه الصور ما نجده فى قول زهير :

بها العين والآرام يمشين خلفه وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

ويقول امرؤ القيس شيخ الشعراء :

ترى بعر الآرام فى عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفل

« وهذا البيت يشبه بيت زهير الذى يراه النقاد رائعا ، لكن هناك قدرا من التفاوت بينهما .

كلاهما يقول إن الديار لم تعد وحيدة موحشة . ولكن بيت امرئ القيس يستوقفنا على الخصوص عند فكرة الحب ، وهى تعبر عن رغبة لا شعورية — غالبا — فى إنبات حياة جديدة ، ويحاول امرؤ القيس — بعبارة أخرى — أن يتصور الحياة طبقات يختلف بعضها عن بعض . فذكر الحب — إذن — يمكن أن يدل بإيماءة غير بعيدة تماما على هذه الرتب : فالحياة متداخلة الرتب ينفذ بعض طبقاتها فى بعض ، ويؤدى كل خط منها إلى ما عداه ، ومن ثم تكون الآرام طبقة من الحياة تؤدى إلى طبقة أخرى تغيب فى أثنائها »(٤٥) .

ولقد كان الشاعر الجاهلى أسبق من فلاسفة الحضارة فى حرصه على « مواجهة فكرة الدمار ، وتحدى العبث بحياة الإنسان » . فالشاعر يرى أن نقطة الانطلاق الحقيقية هى إعادة النظر فى مفهوم الماضى ، ويرى — كذلك — أنه لا يمكن أن يؤدى مفهوم الحياة

إلا إذا بدأ من نقطة قديمة : وكلما كانت عريقة فى القدم أعان ذلك على فكرة البعث . فالماضى ليس أصم ، وإنما هو زمان مفتوح منطلق بناء . وسرعان ما يصبح الماضى — الذى يتحدث عنه الشاعر — حاضرا متوثبا ، فالماضى يأخذ شكل وثبة . والطلل أقرب إلى فكرة الوثبات المستمرة من الماضى إلى الحاضر — وفكرة « ما حدث » أو « ما كان » أبعد الأشياء عن الانعزال والخواء وبعد المسافة . وليس أدل على ذلك من معاودة تذكر العناصر السابقة .. وكل شاعر على التقريب — يقول مع زهير :

فلما عرفت الدار قلت لربعها ألا أنعم صباحا أيها الربع واسلم[46]

وإذا كان وورف على صواب حين قال إن كل لغة لها ميتافيزيقا خاصة بها ، فإن اللغة العربية لها دور كبير فى الوعى بالمستقبل من جهة ، وفى الوعى الإسلامى من جهة أخرى

فاللغة — كما نعلم — تؤثر على التفكير ، ولكنها تؤثر على أسلوبه دون جوهره ، ذلك أن جوهر الفكر انعكاس للواقع الموضوعى .. وهدف اللغة هو التواصل ونقل المعلومات عن الواقع ، ولكن اللغة أيضا تحدد نظرة الإنسان إلى العالم ، وإن كان هناك علماء محدثون يرون غير هذا .

« فعلماء النفس يشيرون إلى الحقائق التالية :

يبدأ الطفل فى إدراك العالم المحيط به حتى من قبل أن يكون هناك أى « تفكير لغوى » يدور فى ذهنه . وأخيرا وبعد أن يتعلم الطفل الكلام يبدأ فى استخدام لغته ليسم خبرته الحسية المكتسبة بمسميات لغوية . فالأشياء تسبق الكلمات لا العكس .

« وإليك ما قاله فى ندوة شيكاغو عالم اللغة الأمريكى المبرز جوزيف جوينبرج : لنفترض أن اثنين من البشر يتحدثان لغتين مختلفتين هبطا على سطح القمر . إنهما سيكونان فى بيئة جديدة تماما ذلك لأن القمر يختلف عن الأرض . سيعود رجلا الفضاء ثانية إلى الأرض ويقصان انطباعاتهما عن القمر . لنا أن نتوقع حسب نظرة وورف أننا سنسمع وصفين متباينين تمام التباين ، أى سنجد أنفسنا بصدد قمرين متمايزين (القمر الروسى والقمر الإنجليزى على سبيل المثال) .

« ولكننا لسنا بحاجة إلى مثل هذه الرحلة البعيدة فى الفضاء لكى نفند نظرية وورف ، على حد تعبير كندراتوف. إن تاريخ البشرية زاخر بحالات مماثلة لرحلة القمر هذه . فقد اعتاد الرحالة العرب منذ ألف عام خلت أن يزوروا أراضى الشمال . وكانت عادات وتقاليد وطبيعة أهل الشمال غريبة فى نظر الرحالة العرب تماما مثل غرابة عالم القمر بالنسبة لنا نحن سكان الأرض .

ولكن لازالت الأوصاف التى قدمها الرحالة العرب تطابق تلك الأوصاف التى كانت تروى بلغة أهل الشمال القديمة . فنحن نستطيع أن نرى نفس الظواهر والأحداث والمدن والجبال . إن كل لغة تصبغ العالم بطريقتها الخاصة ، بيد أن فحوى رسالتها عن الواقع يظل بشكل كامل ومطلق انعكاسا صحيحا وصادقا(٤٧) . ويقارن علماء اللغة المحدثون بين اللغة ونسق الأحداثيات الهندسية . فالانتقال من لغة إلى أخرى يماثل الانتقال من نسق لعلاقات هندسية إلى نسق آخر . والعالم المحيط بنا الذى تصوره أحداثيات اللغات المختلفة هو نفس العالم وإن اختلفت انعكاساته فى هذه اللغات(٤٨) .

لقد كان وورف على حق حين قال إن اللغة تؤثر على تفكيرنا فى ظروف معينة ، ونضيف إلى ذلك قول كندراتوف أنها تؤثر على نمط التفكير لا جوهره ، وبالتالى فإنها تؤثر على سلوك الناس(٤٩) .

وإذا كنا نصوغ صورة العالم من خلال الفلسفة والعلوم والفنون ، فإن لغة حياتنا اليومية هى واحدة من أهم مذاهب صوغ العالم . « فاللغة هى وسيلتنا الأساسية لنقل المعلومات فى المجتمع البشرى . ولكن اللغة قادرة على ما هو أكثر من ذلك إذ يمكنها أن تصوغ العالم — أو بمعنى آخر على سبيل المجاز — إنها بمثابة منشور تحليل الطيف الذى ننظر إلى العالم من خلالها »(٥٠) .

واللغة بهذا المفهوم « ليست منطقا صوريا يتوسل به فى ضبط جهاز التعقل ونقل الأفكار ، ولكنها أوسع من ذلك مدى بكثير ، وهى ليست مجرد المخارج والأصوات المحددة ، والكلمات والعبارات المحددة ، والمعانى والدلالات المحددة ، وإنما هى كل ما اصطلح المجتمع عليه للإبانة عن وجدانه العام ، ووجدان أفراده ، فهى تنتظم إشارات أخرى ، وأمارات أخرى ، وتندمج فيها حركات تقوم بها الجوارح وتدخل فيها دلالات ألوان وأشياء وأصوات غير التى تصدر عن اللسان ، وقوامها إلى جانب التلفظ عادات ومراسيم واصطلاحات تعبر عن فعل الجماعة ، وفكر الجماعة ووجدان الجماعة فى مختلف الشئون »(٥١)

ومع هذا كله فنحن نقتصر فى هذا المقام على جارحة اللسان الإنسانى ، وننظر فى علاقة هذه الجارحة بمجتمعنا الكبير ومجتمعاتنا الصغيرة .

فلغتنا القومية — كما فهمها القدماء — هى لساننا القومى ، أو بتعبير آخر لساننا الجماعى .. إنها ليست لهجة خاصة تمتاز عن غيرها بأنها لهجة الطبقات العليا ، وليست

امتياز إقليم من أقاليم الوطن الكبير ، وليست تعصبا لبادية أو حاضرة أو قبيل ، ولكنها كل اللهجات التى يتلاغى بها المواطنون ، وأبناء عمومتهم فى الوطن العربى الكبير(٥٢) .

« وليس ينبغى أن نحتكم فى هذه اللغة إلى معيار تاريخى فنجعل لها مثلا إنسانيا ماضيا لا ينبغى أن نتجاوزه ، فاللغة مستمرة ومتواصلة باستمرار مجتمعها وتواصل سيرته ، وليس يناقض طبيعة اللغة أكثر من شدها إلى صورة « العصر الذهبى » ، أيا كان هذا العصر ، وأيا كانت الحياة الاجتماعية فيه ، ذلك لأن المجتمع فى لحظته الراهنة قد تطور وتعدل عما كان منذ قرون ، وصور الحياة فقد اختلفت عما كانت فى ذلك العصر الذى ينعت بالذهبى ، وليس ينبغى كذلك أن يحتكم فى اللغة القومية احتكاما جغرافيا يجعل مثلها الأعلى فى أقليم دون سائر الأقاليم التى يعيش فيها المجتمع أيا كان هذا الإقليم . ومن الخير أن نعرف هذه اللغة بفطرتها الاجتماعية ، وألا نشدها بوسيلة مصطنعة إلى فترة مضت ، أو إقليم جزئى محدود ، وأن نعينها على السير فى طريقها بأن ننهض بمجتمعها فإنها لا تنفصل عنه ، وهو مادام حيا فاعلا لا يستطيع أن ينفصل عنها(٥٣) .

وكما أن المجتمع علاقاته بالمجتمعات الأخرى يأخذ منها ويعطيها ، فكذلك اللغة تحكى هذه العلاقات بما تأخذه من المجتمعات الأخرى ، وبما تعطى هذه المجتمعات . وليست هناك لغة لم تأخذ من غيرها ولم تعط غيرها ، ولغتنا القومية قد أعطت اللغات الأوربية التى تبسط رقعتها على قارات شاسعة كثيرا من الألفاظ الدالة على العلم والتجربة ، واستقرت هذه الألفاظ وهى كثيرة فى المعجم الحى لهذه اللغات ، واحتفظ بعضها بصورته العربية وإن دون بحروف لاتينية ، وتعدل بعضها الآخر وبقيت فيه دلائل على أصله العربى ، وتغير باقيها تغييرا جعل من المتعذر حتى على الدارس المتخصص أن يعرف أصلها العربى(٥٤) .

ولو عرفت هذه الحقائق على وجهها ، وعرف معها قوة النزوع إلى الاتحاد الإسلامى، خف ذلك الإحساس الذى يستشعره المثقفون بمشكلة اللغة ، فقد واجهوا أولا اختلاف اللهجات فى الوطن العربى الكبير ، وهى لهجات تتقارب وتتباعد بتقارب الوحدات الإقليمية وتباعدها . وواجهوا ثانيا ذلك الاختلاف الظاهر بين اللهجة الفصحى واللهجات التى تسمى بالعامية، وهو اختلاف يجعل الواحد منهم يضطر إلى أن يفكر بلهجة ، ويكتب بلهجة أخرى ، وواجهوا ثالثا توقف المعجم اللغوى منذ قرون ، وعدم زيادته على الرغم من تواصل الحياة الاجتماعية الحضارية . فلما التقى العالم العربى بالعالم الغربى وشهد تطور العلوم ورقى الصناعة ، وجد نفسه عاجزا عن حكايتها بلغته ، ووقع فى

حيرة بين النحت والتعريب والنقل(٥٥) .

وليس نزوع المجتمع الإسلامى الكبير إلى الوحدة عملا سياسيا بالمعنى القديم للفظ « السياسة » وليس استجابة لوجدان الأمة الإسلامية فحسب، ولكنه توجيه الحياة فى هذا العصر بعد أن ارتفعت الحواجز الجغرافية بفعل وسائل الاتصال الحديثة التى غيرت معدل المسافة بين الأقطار ، وقربت الأبعاد إلى مدى كان يعد فى القرن الماضى فقط من الخوارق ، وأصبح الآن من اليسير أن يفطر المرء فى قطر ، وأن يتناول غداءه فى قطر آخر ، وعشاءه فى قطر ثالث ، ويسرت الطباعة والصحافة التقارب بين العقول والقلوب فى الجماعة الناطقة بلغة واحدة مهما اتسعت أقطارها ، وبفضلهما تحولت الثقافة من امتياز لا يحصل عليه إلا الأغنياء الواجدون ، إلى سبب من أسباب الديمقراطية يستطيع أن يحصلها أكثرون بالتعليم ، ثم دخل إلى الميدان ذلك العامل اللغوى الخطير الذى يكاد يسوى بين الناس فى المعرفة والذوق الفنى ، ونعنى به الراديو الذى يوحد الألسنة ويطبعها على الأنموذج الذى اصطلحت عليه الجماعة وارتضته ، وهذا الراديو جعل لكل جماعة جارحتها الناطقة على سبيل الحقيقة لا على سبيل المجاز ، وكما أن لكل فرد لسانه الذى ينطق به ، فإن لكل جماعة لسانها الذى تنطق به ، وهو جهازها ذاتها ، فالتقارب بين اللهجات إذن ، واقع لا شك فيه وهو يحدث بنظام وقوة وسرعة ، وكل ما فى الأمر أن نعين هذا التقارب على أن يبلغ غايته ، وأن نسايره ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ، وألا نقاومه بحال من الأحوال ، وإن استطعنا أن نشحذ حركته ونحث خطاه بعجلة متزايدة السرعة ، كان التوحد بين اللهجات أمرا قويا ، وأقرب مما يتصور المتفائلون أنفسهم(٥٦) .

ومن ذلك يتضح أن اللغة العربية قد صاغت للمتلاغين بها صورة « للمستقبل » ، وقرنت بها صورة أخرى تنزع إلى « الوحدة » ، فإذا كان المتلاغون يكتسبون اللغة بطريقة لا شعورية منذ طفولتهم المبكرة ، فإنهم قد اكتسبوا من اللغة العربية هذا التصور وهذا النزوع إلى الوحدة الإسلامية .

وهكذا يتسنى لنا أن ننفى ما ذهب إليه البعض من « اعتقاد الوعى بالمستقبل لدى الفكر العربى ، الذى من سماته ــ ولا يقولون من عيوبه ــ التيه بالتاريخ وتغليب السوابق فى الأحكام ، وقياس كل مستحدث بما هو حادث ، ذلك أن « الوعى » يمكن أن يكون مؤشرا

علميا للتعرف على حقيقة هذا القول فى اللغة العربية التى هى وعاء العقل العربى » .

وتأسيسا على هذا الفهم ، وعلى أن اللغة هى المتلاغون أنفسهم ، فإن العقل الإسلامى بوجه عام ، هو الذى سيحدد حضارة المستقبل ، وهو الذى سيصنعها ويهدى البشرية إليها لترشف من نور الإسلام ، ومن القرآن الكريم الذى نزل باللغة العربية على النبى عليه الصلاة والسلام فى قلب جزيرة العرب ، فى الأرض المقدسة .

هذا الأمر أدركه مفكرو الغرب أنفسهم ، نذكر منهم « باول شمتز » الذى ألف كتابا جعل عنوانه « الإسلام قوة الغد العالمية »(٥٧) ، وقال فيه نصا : « وبينما تزاد صورة البلاد الغربية تمزقا يقترب الشرق الإسلامى من الوحدة التى ينادى بها المسلمون ، فيتفادى السقوط فى هوة الصراع السياسى التى سقطت فيها أوربا اليوم »(٥٨) ، ثم يستخلص « شمتز » من ضعف الغرب فى تمزقه السياسى ، وقوة المسلمين فى تماسكهم الإيمانى بالإسلام ، عودة المسلمين إلى القوة إن هم أحسنوا استثمار مواردهم الطبيعية ، وموقعهم الجغرافى فى العالم ، وإن هم تعلموا التكنولوجيا كما تعلمها الأوربيون(٥٩) :

« وسيعيد التاريخ نفسه مبتدئا من الشرق الإسلامى عودا إلى بدء : من المنطقة التى قامت فيها القوة الإسلامية العالمية فى الصدر الأول للإسلام وستظهر هذه القوة التى تكمن فى تماسك الإسلام ووحدته العسكرية ، وستثبت هذه المنطقة وجودها إذا ما أدرك المسلمون كيفية استخراجها والعمل على الإفادة منها ، وستنقلب موازين القوى لأنها (أى قوة الإسلام) قائمة على أسس لا تتوفر فى غيرها من تيارات القوى العالمية .

وقد أدرك الكاتب الإنجليزى مدى فاعلية هذه القوة ــ معارضا بذلك كثيرا من الأحكام السطحية عليها ــ حين كتب يقول :

« لا يساورنى أدنى شك فى أن الحضارة التى ترتبط أجزاؤها برباط متين وتتماسك أطرافها تماسكا قويا وتحمل فى طياتها عقيدة مثل الإسلام ، لا ينتظرها مستقبل باهر فحسب ، بل ستكون أيضا خطرا على أعدائه ، ومن الممكن أن يعارض المرء هذا الرأى بأن الإسلام فقد سيطرته على بعض الأشياء المادية وخاصة فيما يتصل بالحرب .. فهو لم يلحق بالتقدم التكنولوجى الحديث ، ولا أستطيع أن أدرك : لماذا لم يعوض الشرق الإسلامى ما فاته فى هذا الميدان ؟ إذ لا تحتاج علوم الهندسة الحديثة إلى طبيعة عقلية خاصة .. بل يتطلب الإلمام بها والتفوق فيها إلى الخبرة وتوجيه الخبراء ، ومن المؤكد أنه غالبا ما يحدث أن تكون

حضارة ذات منزلة عالية فى التقدم التكنولوجى هى أقل درجة من حضارة أخرى لم تبلغ تطورها بعد فى هذا المجال ما بلغته الأولى » .

« إذن فهناك احتمال كبير فى أن يصبح شعب ظهر حتى الآن (١٩٥٢) أن مواهبه فى الناحية التكنولوجية ضعيفة .. سيدا على شعب آخر استولت التكنولوجيا على حواسه ومشاعره ، فلم ينقذه أحد وتحكمت فى سلوكه النظريات التى تسلبه الإحساس بالطبيعة .

« لماذا لا يتعلم العالم الإسلامى ما تعلمنا فى مجال التكنولوجيا ؟ وفى مقابل هذا : سوف يكون من الصعب علينا استعادة التعاليم الروحية ، وهى من العوامل الأساسية لوحدة أوربية ــ التى فقدتها المسيحية ، بينما لم يزل الإسلام محافظا عليها » .

ويذهب شمتز « إلى أن انتفاضة العالم الإسلامى صوت نذير لأوربا ، وهتاف يجوب آفاقها يدعو إلى التجمع والتساند الأوربى لمواجهة هذا العملاق الذى بدأ يصحو ويزيل النوم عن عينيه . هل يسمعه أحد ؟ ألا من يجيب » ؟ (٦٠) .

كما يقول : « إن قوة القرآن فى جمع شمل المسلمين لم يصبها الوهن ، ولم تنجح الأحداث التى مرت على المسلمين فى القرون الأخيرة فى زعزعة ثقتهم به كقوة روحية تستطيع أن تجمع التيارات المختلفة التى نادى بها رجال يعدون من الصفوف الأولى التى صارعت الاستعمار الغربى على الصعيد السياسى ، وكيف جذبت الأحداث الإسلامية الزعماء إلى التكاتف والتساند ضد الغرب . إن الروح الإسلامية ما زالت تسيطر على القادة وعواطفهم ، وستظل كذلك ما دامت هناك شعوب إسلامية ربطت مصيرها بتعاليم الإسلام ، واعتقدت أن الرباط الجامع بين أجناسها المختلفة هو الإسلام . إن روح التعاطف والتواد بين المسلمين هى السبب الرئيسى فى تجميع القوى الوطنية على طريق الأمة الإسلامية »(٦١) .

والأستاذ شمتز مؤلف كتاب « الإسلام قوة الغد العالمية » يبصر بكتابه أوربا فى فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى بيقظة الشرق الإسلامى ، وقوة الإسلام فى ترابط المسلمين . ولكن هذا الكتاب مع ذلك يمكن كما يقول الدكتور البهى ــ أن يكون الآن من جانب آخر كما كان بعد الحرب العالمية الأولى ــ دعوة إلى المسلمين كى يزدادوا إيمانا بالإسلام ، بالتمسك به إبقاء على وجودهم واحتفاظا باستقلالهم السياسى والاقتصادى .

وهذا الفهم يفسر لنا : لماذا ذهب فلاسفة الحضارة الأوربية إلى أن الغرب « يعيش اليوم فى ظل انهيار الحضارة » ، على حد تعبير « ألبرت اشفيتسر »[٦١] الذى يذهب إلى أن هذا الوضع ليس نتيجة للحرب ، ولكن الحرب مجرد مظهر من مظاهره ، فلقد تجسد الجو الروحى فى وقائع فعلية ، ينعكس أثرها عليها انعكاسا له نتائج مدمرة من كل ناحية ، وهذا التفاعل يبين ما هو مادى وما هو روحى قد اتخذ طابعا مضرا كل الإضرار . إننا نسير بالسفينة فى تيار ملىء بالأمواج العاتية تحت شلال هائل ، ولا بد من مجهودات جبارة لإنقاذ السفينة ، سفينة سيرنا (يقصد الغرب) من المجرى الجانبى الخطير الذى سمحنا لها بالانطلاق فيه ، ومن إعادتها إلى المجرى الرئيسى إن كان ثمة أمل فى ذلك أبدا » .

ولقد أدرك المفكرون المنصفون فى الغرب أن الإسلام هو المرفأ الأمين لهذه السفينة ، وهو الذى ينقذ بالفعل سفينة الحضارة ، على نحو ما نجد عند المستشرق المجرى المسلم عبدالكريم جرمانوس ، وعلى نحو ما وجدنا مؤخرا فى فكر المفكر الذى أعلن إسلامه « رجاء الله جارودى » ، وغيرهما من الذين هداهم الله إلى الإسلام حيث وجدوا فيه مستقبل الحضارة الإنسانية ، ذلك أن تطور الحضارة — كما يقول « اشفيتسر » إنما يقوم به عامة أفراد من الناس يفكرون فى المثل التى تهدف إلى تقدم المجموع ، ويكيفونها مع وقائع الحياة على نحو يجعلها قادرة على التأثير الأقوى فى ظروف العصر . ولهذا فإن مقدرة الإنسان على أن يكون رائدا للتقدم ، أى أن يفهم ماهية الحضارة وأن يعمل لها ، تتوقف على كونه مفكرا وعلى كونه حرا . إذ ينبغى أن يكون مفكرا ليكون قادرا على فهم مثله وتصورها ، وينبغى أن يكون حرا ليكون فى وضع يتهيأ له منه أن يدفع بمثله فى الحياة العامة ، وكلما ازداد نشاطه فى الكفاح من أجل الوجود ، ازداد عنده الدافع إلى إصلاح أحواله طلبا لنصيبه من مُثُل الفكر ، وحينئذ تختلط مُثُل المصلحة الذاتية مع مثل الحضارة وتفسدها . والحرية المادية ترتبط بالحرية الروحية ارتباطا وثيقا . فالحضارة تفترض أناسا أحرارا ، لأن بالأحرار وحدهم تتحقق الحضارة وتصنع[٦٢] هذا التشخيص لأمراض حضارة العصر كما يذهب إليه فلاسفة الحضارة الأوربيون يؤدى بسفينة الحضارة الإنسانية كما تقدم إلى الإسلام الذى يجعل الإنسان فى أرفع مقاماته ، وفى خير حالات حضارته ، حين يحقق مقام العبودية لله . إذ أنه وهو يصنع الحضارة يكون فى أقوى حالات فطرته ، فالله تعالى يقول : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ . فى هذه الحضارة الإسلامية — حضارة المستقبل — تتحقق الحرية المادية والحرية الروحية التى يفتقدها فلاسفة الحضارة الأوربيون فى حضارتهم ، إذ فى

حضارة الإسلام بتحرر الإنسان من عبودية العبيد للعبيد ، ويحتفظ بكرامته على اختلاف مركزه الدنيوى ، وفى حضارة الإسلام يرفع الإنسان جبهته فلا تنحنى إلا لله ، ويبتعد عن الاستكبار فى الأرض بغير الحق ، وعن الغلوّ فيها والفساد ، ومن ثم فإنه لا تعارض — فى حضارة المستقبل — حضارة الإسلام التى ستشمل البشرية بإذن الله تعالى — بين رفعة الإنسان وعظمته وكرامته وفاعليته ، وبين عبوديته لله — سبحانه — وتفرد الله بالألوهية وبخصائصها جميعا(٦٣) .

وهذه الحضارة الإسلامية هى النعمة الإلـٰهية التى منَّ الله بها على عباده جميعا وهو يقول لهم : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾

— على حد تعبير المرحوم سيد قطب .

وهذه هى الهدية التى يملك أصحاب عقيدة التوحيد أن يهدوها بدورهم — للبشرية كلها — وهذه هى النعمة التى يملكون أن يفيضوا منها على الناس ، بعد أن يفيضوها على أنفسهم ، ويرضوا منها ما رضيه الله لهم ،« وهذا هو الجهد الذى يملك أصحاب عقيدة التوحيد أن يتقدموا به للبشرية اليوم ، كما تقدم به أسلافهم بالأمس ، فتلقته البشرية يومها كما تتلقى الجديد ، ولم تستطع أن تقاوم جاذبيته لأنه يمنحها ما لا تملك بالفعل ، فلا يقف لجاذبيته إباؤها العنيد .. وهو اليوم يمنحها ما لا تملك ، فهو شىء آخر غير كل ما لديها من تصورات وعقائد ، وأفكار وفلسفات وأنظمة وأوضاع .. بكل تأكيد » . « لقد قال ربعى بن عامر رسول جيش المسلمين إلى رستم قائد الفرس وهو يسأله ما الذى جاء بكم ؟ كلمات قلائل تصور طبيعة هذه العقيدة ، وطبيعة الحركة الإسلامية التى انبثقت منها ، كما تصوِّر طبيعة تصوُّر أهلها لها ، وإدراكهم لحقيقة دورهم بها .. قال له : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة .. ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » .

« وأصحاب عقيدة التوحيد حين يفيئون اليوم إليها ، وحين يرفعون رايتها وحدها — يملكون أن يقولوا للبشرية كلها ما قاله ربعى بن عامر ، فالبشرية من هذه الناحية — اليوم كما كانت يوم قال ربعى بن عامر كلمته .. إنها كلها غارقة فى عبادة العباد .. والتوحيد — بمعناه الشامل — هو الذى يخرج من شاء الله من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، وبذلك وحده « يتحرر الإنسان » بل « يولد الإنسان »(٦٤) .

هـــذه الولادة الجـديدة للإنسان لن تتأتى إلا فى حضارة المستقبل ـــ حضارة الإسلام ، ذلك أن الإنسان اليوم ـــ كما يقول اشفيتسر[٦٥] ـــ فى « خطر ليس فقط من جراء فقدانه لحريته ، وافتقاره إلى قوة التركيز الذهنى ، وإلى فرصة للتطور الشامل ، بل هو أيضا فى خطر أن يفقد إنسانيته » .

وإذا كانت الحضارة ـــ كما يعرفها فلاسفتها ـــ هى التقدير الروحى والمادى للأفراد والجماهير على السواء ، فإن هذا التعريف لم تقدمه عبر العصور إلا حضارة الإسلام ؛ ولن تقدمه فى المستقبل كذلك إلا حضارة الإسلام ، حين يفىء أصحاب عقيدة التوحيد إلى منهج الله الذى منَّ به عليهم وينادون به .. إنهم حينئذ ـــ كما يقول سيد قطب ـــ يملكون أن يتقدموا للبشرية بالشىء الذى تفقده جميع المذاهب والمناهج والأنظمة والأوضاع فى الأرض كلها بلا استثناء .. ومن ثم يكون لهم اليوم وغدا دور جديد .. دور عالمى إنسانى كبير .. ودور قيادى أصيل فى التيارات العالمية والإنسانية .

الهوامش

(١) قسطنطين رزيق ، نحن والمستقبل (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٧) ص ٧٠ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٧٧ .

(٣) د. محمد عبد القادر حاتم : الرأى العام (القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٣) ، ص ٢٨١ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٣٨٢ .

(٥) د. نايف خرما : أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ، الكويت ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٧٨ ، ص ٢١٦

(٦) المرجع نفسه ، ص ٢١٦

(٧) المرجع نفسه ، ص ٢١٧

(٨) أ. كندراتوف : الأصوات والإشارات (ترجمة شوقى جلال) ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ ، ص ٦٦ .

(٩) المرجع نفسه ، ص ٦٦ .

(١٠) المرجع نفسه ، ص ٦٧ .

(١١) الزمخشرى : أساس البلاغة ، القاهرة — دار الكتب — ١٩٧٣ ، جـ ١ ، ص ٢٢٦ ، المعجم الوسيط ص ٧٧١ .

(١٢) عباس محمود العقاد — اللغة الشاعرة (القاهرة — مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٠ ، ص ٧١) .

(١٣) المرجع نفسه ، ص ٧٢ .

(١٤)

(١٥) د. نايف خرما : المرجع السابق ، ص ١٤٢

(١٦) المرجع نفسه ، ص ١٤٩

(١٧) المرجع نفسه ، ص ١٤٩

(١٨) العقاد ، المرجع السابق ، ص ٧٢

(١٩) المرجع نفسه ص ٧٣

(٢٠) المرجع نفسه ص ٧٤

(٢١) المرجع نفسه ص ٧٤ .
(٢٢) المرجع نفسه ص ٧٥ .
(٢٣) المرجع نفسه ص ٧٥ .
(٢٤) المرجع نفسه ص ٧٥ .
(٢٥) المرجع نفسه ص ٧٦ .
(٢٦) المرجع نفسه ص ٧٦ .
(٢٧) المرجع نفسه ص ٧٦ . ، د . محمد عبد المنعم خفاجى ود . عبد العزيز شرف ــ النحو العربى لرجال الإعلام ــ القاهرة ــ مكتبة الأنجلو المصرية ــ ١٩٨٣ .
(٢٨) المرجع نفسه ص ٧٧ .
(٢٩) المرجع نفسه ص ٧٧ .
(٣٠) المرجع نفسه ص ٧٧ .
(٣١) المرجع نفسه ص ٧٨ ود . عبد العزيز شرف ــ العربية لغة الإعلام ــ الرياض ــ دار الرفاعى ١٩٨٣ .
(٣٢) د. عبد الحميد يونس ــ المرجع السابق ، ص ٣٨ ــ د . عبد العزيز شرف ــ الإعلام لغة الحضارة ــ القاهرة دار المعارف ١٩٨٠م .
(٣٣) الزمخشرى ــ المرجع السابق ــ جـ ١ ، ص ٥١٨ .
(٣٤) مجمع اللغة العربية ــ المعجم الوسيط جـ ٢ ــ القاهرة ــ مطبعة مصر ١٩٦١ . ص ١٠٦٦ .
(٣٥) محمد على النجار ــ معجم ألفاظ القرآن الكريم ج ٢ ــ القاهرة ــ مجمع اللغة العربية : ١٩٧٣ ــ ص ٦٦٨ .
(٣٦) يوجد ان دانييل آرايو : « علم اللغة ومشكلة الوعى » فى « العلم والمجتمع » . ع . ٥٣٢ سبتمبر / نوفمبر ١٩٧٥ ص ١٢١ ــ ١٢٤ .
(٣٧) مصطفى ناصف : قراءة جديدة لشعرنا القديم ، بنغازى : الجامعة الليبية د . ت . ص ٤١ .
(٣٨) المرجع نفسه ، ص ٤١ .
(٣٩) المرجع نفسه ص ٤٤ .
(٤٠) المرجع نفسه ص ٤٥ .
(٤١) مصطفى ناصف : المرجع نفسه ، ص ٥٥ .
(٤٢) المرجع نفسه ، ص ٥٥ .
(٤٣) المرجع نفسه ، ص ٥٥ .

(٤٤) المرجع نفسه ، ص ٥٦ .

(٤٥) المرجع نفسه ، ص ٥٧ .

(٤٦) المرجع نفسه ، ص ٦١ .

(٤٧) كندراتوف : المرجع السابق ، ص ٦٩ .

(٤٨) المرجع نفسه ، ص ٧٠ ، د . محمد عبد المنعم خفاجي ود . عبد العزيز شرف ـــ التفسير الإعلامي للأدب العربي ـــ القاهرة ـــ دار الفكر العربي ١٩٨٢ .

(٤٩) المرجع نفسه ، ص ٧٠ .

(٥٠) المرجع نفسه ، ص ٧٢ .

(٥١) عبد الحميد يونس : مجتمعنا ـــ القاهرة ـــ دار المعارف ١٩٦٠ ، ص ٣٨ .

(٥٢) المرجع نفسه ص ٣٩ .

(٥٣) المرجع نفسه ص ٣٩ .

(٥٤) المرجع نفسه ، ص ٣٩ .

(٥٥) المرجع نفسه ص ٤١ .

(٥٦) المرجع نفسه ، ص ٤٢ ، د . عبد العزيز شرف ـــ المدخل إلى وسائل الإعلام ـــ دار الكتاب اللبناني ـــ بيروت ١٩٨٠ .

(٥٧) باول شمتز : الإسلام قوة الغد العالمية (نقله إلى العربية د . محمد شامة ـــ القاهرة ـــ مكتبة وهبة ١٩٧٤ .

(٥٨) نفسه ، ص ٣٣٦ .

(٥٩) نفسه ـــ من مقدمة د . محمد البهى للكتاب فى ترجمته العربية ص ١٢

(٦٠) نفسه ص ٣٣٧ .

(٦١) نفسه ، ص ١٥٧ .

(٦٢) ألبرت شفيتسر : فلسفة الحضارة ـــ ترجمة د . عبد الرحمن بدوى ٥ ص١١

(٦٣) سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي ـــ القاهرة ـــ دار الشروق ص ١٣٢ .

(٦٤) نفسه ، ص ٢٠ .

(٦٥) شفيتسر : السابق ـــ ص ٢٦ .

(٦٥) أمينة الصاوى ، د. عبد العزيز شرف : رجاء جارودى وحضارة الإسلام ـــ القاهرة . مكتبة مصر .

محتويات الكتاب

مؤلفات د. محمد عبد المنعم خفاجي
بالاشتراك مع د. عبد العزيز شرف

اسرار البلاغة
الاسلام والغزو الفكري
الادب الاسلامي: المفهوم والقضية — بالاشتراك مع د. علي صبح علي
الاصول الفنية لاوزان الشعر
الماحي شاعر العروبة
التفسير الاعلامي للادب العربي
الرؤيا الابداعية في شعر احمد زكي ابو شادي
عبد العزيز شرف شاعر الحب والغزل — بالاشتراك مع محمد حجازي

تحت الطبع :

الانسانية تعود الى الاسلام
البلاغة العربية بين التقليد والتجديد
التفسير الاعلامي للسيرة النبوية
منهج في الادب

مؤلفات وتحقيقات

د . محمد عبد المنعم خفاجي

ابن المعتز وتراثه في الادب والنقد والبيان ـ مجلد

الادب الاندلسي

الادب الجاهلي (دراسة ونصوص)

الادب العربي وتاريخه في العصرين الاموي والعباسي

اسرار البلاغة — بالاشتراك مع د. عبد العزيز شرف

الاسلام والغزو الفكري — بالاشتراك مع د. عبد العزيز شرف

اشعار الشعراء الستة الجاهلين

اعجاز القرآن (للباقلاني)

الاقتصاد الاسلامي

البديع (لابن المعتز)

التفسير الاعلامي للادب العربي ـ مجلد — بالاشتراك مع د. عبد العزيز شرف

الحياة الادبية بعد ظهور الاسلام ـ مجلد

الحياة الادبية بعد سقوط بغداد الى العصر الحديث

الحياة الادبية في العصر الجاهلي

الرؤيا الابداعية في شعر
احمد زكي ابو شادي — بالاشتراك مع د. عبد العزيز شرف

شاعر الشام خليل مردم
الفكر الاسلامي بين الاصالة والتجديد
فلسفة التاريخ الاسلامي
قصة الادب في ليبيا العربية
المختار من الحديث النبوي الشريف .
من تراثنا الخالد

تحت الطبع :

الآداب العربية في العصر العباسي الاول
الادب العربي الحديث ومدارسه
اعلام الادب في عصر بني امية
دراسات في الادب الجاهلي والاسلامي
دراسات في الادب العربي الحديث
دراسات في الادب المعاصر
دراسات في الادب والنقد
دراسات في النقد الادبي
فصيح ثعلب والشروح التي عليه
قصة الأدب في مصر
القصيدة العربية : دراسات ونقد
القصيدة العربية بين التطور والتجديد

مؤلفات د. عبد العزيز شرف

الادب الاسلامي (المفهوم والقضية)	بالاشتراك مع د. خفاجي وعلي صبح علي
اسرار البلاغة	بالاشتراك مع د.عبد المنعم خفاجي
الاسلام والغزو الفكري	بالاشتراك مع د.عبد المنعم خفاجي
الاصول الفنية لاوزان الشعر	بالاشتراك مع د. خفاجي
الماحي شاعر العروبة	بالاشتراك مع د. خفاجي
التفسير الاعلامي للادب العربي ـ مجلد	بالاشتراك مع د.عبد المنعم خفاجي
دراسات تطبيقية حول التفسير الاعلامي الحديث	
الرؤيا الابداعية في شعر احمد زكي ابو شادي	بالاشتراك مع د.عبد المنعم خفاجي
الرؤيا الابداعية في شعر البياتي	
شاعرية الهمشري في ميزان النقد الادبي	
اللغة الاعلامية	
اللغة العربية والفكر المستقبلي	
محمد حسين هيكل والفكر القومي المصري	
المقاومة في الادب الجزائري المعاصر	
النماذج البشرية في ادب ثروت اباظة	
الهمشري (دراسة وقصائد)	
الوحدة والتنوع في الادب العربي المعاصر	

تحت الطبع :

اباطيل البهائية و بروتوكولات صهيون
الادب الاسلامي ومواكب النور
الادب العربي ووجه العصر
الانسانية تعود الى الاسلام — بالاشتراك مع د. خفاجي
البلاغة العربية بين التقليد والتجديد — بالاشتراك مع د. خفاجي
التفسير الاعلامي للسيرة النبوية — بالاشتراك مع د. خفاجي
التنوير فريضة وطنية
العالم عام ٢٠١٣
الفن الروائي والوعي الاخلاقي
لكل زمان شعراؤه
مختارات الزهور
منهج في الادب — بالاشتراك مع د. خفاجي
وسائل الاعلام ومشكلة الثقافة